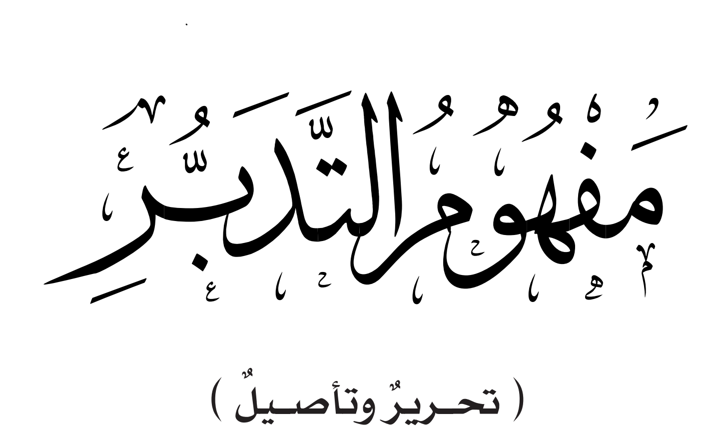




(تحرير وتأصيل)

(أوراق عمل الملتقى العلمي الأول لتدبر القرآن الكريم)





مفهوم التدبر - تحرير وتأصيل
١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م
المملكة العربية السعودية
الرياض - الدائري الشمالي - مخرج ٥
تلفاكس ٤٥٦٣٤٢٣ - ص. ب ٨٧٦١٢ / ١١٦٥٢
البريد الحاسوبي: tadabbor@gmail.com

....

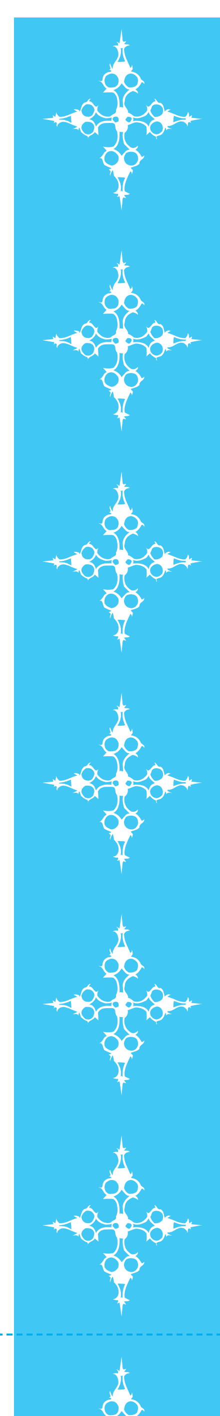
الإخراج الفني
أبو عمر محمود بن شوقي بن مفلح
٠٥٤٤٣٤٣٧٧١ - الرياض
mahmoodshawqi@yahoo.com

....

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
مركز تدبر للاستشارات التربوية والتعليمية
مفهوم التدبر: تحرير وتأصيل / مركز تدبر للاستشارات
التربوية والتعليمية . - الرياض، ١٤٣٠ هـ
٢٩٦ ص؛ ١٧ × ٢٢ سم
ردمك: ٧ - ٢٥٠٧ - ٠٠ - ٦٠٣ - ٩٧٨
١ - القرآن - مباحث عامة ٢. القرآن - أحكام أ. العنوان
ديوي ٢٢٩ ١٤٣٠ / ٢٩٢٤

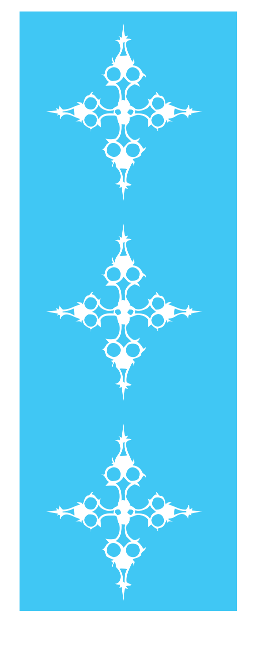
رقم الإيداع: ٢٩٢٤ / ١٤٣٠
ردمك: ٧ - ٢٥٠٧ - ٠٠ - ٦٠٣ - ٩٧٨


بسم الله الرحمن الرحيم




مُقَدِّمَة





مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على معلّم الناس الخير، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإنَّ من البشائر التي تلوح في الأفق، تلكم التي تعلن عن إقبال الأمَّة على كتاب ربِّها إقبالًا خاصًّا يعتني بتدبُّره، بعد أن اعتنت بتلاوته وتجويده وحفظه.

وهذا الإقبال يوجب على العلماء -بالذات أهل الاختصاص- المساهمة في ترشيد مسيرة هذا الإقبال؛ ليكون منضبطًا من الناحية العلمية والعملية.

لذا فإن من أهم مايضطلع به (مركز التدبر للاستشارات التربوية والتعليمية) المساهمة في عقد اللقاءات والندوات العلمية التي تُعنى بموضوع (التدبُّر): تحريرًا، وتأصيلًا، واقتراحًا للمشاريع التي تخدم هذا الموضوع المهم، تزامنًا مع مشاريعه الطموحة الأخرى التي تُعنى بتدبُّر القرآن وفهمه.

ومن هنا فقد تمَّ عقد اللقاء العلمي الأول لتحرير (مفهوم التدبُّر)، الذي وقع فيه أخذٌ وردٌّ بين أهل العلم قديمًا وحديثًا، وقد شارك في ذلك اللقاء نخبة من المختصين في علوم القرآن واللغة العربية، وذلك يوم الخميس ١/ ٦/ ١٤٢٩هـ في مدينة الرياض،

وقد كان لقاءًا علميًّا متميِّزًا -بحمد الله-؛ لجودة الأوراق العلمية التي طرحت من قبل الإخوة الباحثين، ومن ثم المناقشين والمعلقين.

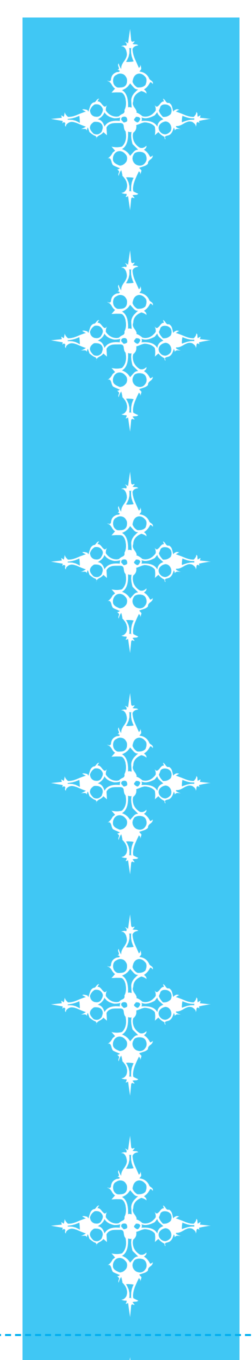
ولأهمية هذه الأوراق صحَّ العزمُ على طبعها؛ ليعم نفعُها، وليفيد منها المختصُّون، والباحثون في هذا المجال، راجين من الله تعالى أن يعيننا على الاستمرار في مثل هذه اللقاءات العلمية التي ترتقي بهذا المعنى الشرعي العظيم (تدبر) علميًّا وعمليًّا، ولا يفوتني في هذه المقدمة أن أتقدَّم بالشكر للإخوة المشاركين في ذلك الملتقى، وبخاصة مقدِّمي الأوراق والبحوث على هذه المشاركة المتميِّزة، والجهد الرائع، وكذلك الأخوة المناقشين للأوراق والمعلقين عليها، وكل من ساهم في هذا الملتقى إعدادًا وإدارةً وتنظيمًا، أو تمويلًا ودعمًا، والحمدلله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبيِّنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكتبه

أ.د / ناصر بن سليمان العمر

رئيس مجلس إدارة مركز تدبر

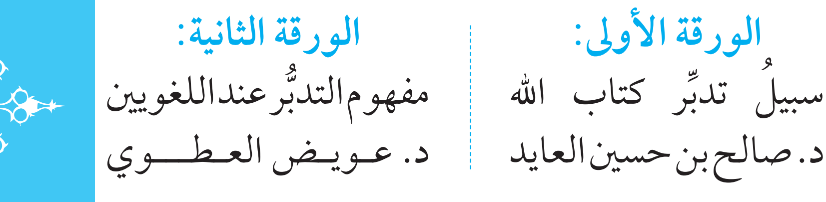
٢٩/ ٩/ ١٤٢٩هـ

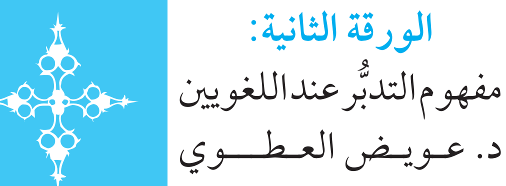




الجلسة الأولى :

التدبُّر عند اللغويين





الورقة الأولى:

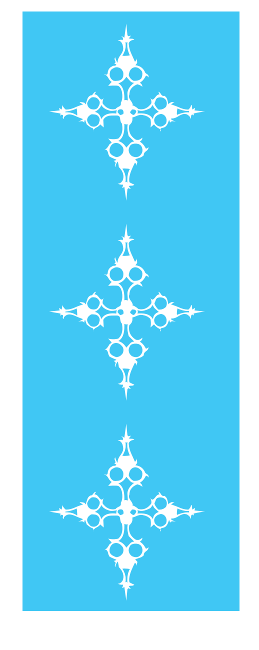
سبيلُ تدبِّر كتاب الله

د. صالح بن حسين العايد

الورقة الثانية:

مفهوم التدبُّر عند اللغويين

د. عويض العطوي



الورقة الأولى:

د. صالح بن حسين العايد

سبيل تدبر كتاب الله

إنَّ اللغةَ العربيَّةَ تفخر على كلِّ اللغات بمزايا كثيرة، ليستْ في غيرها؛ منها:

أنَّها الأطول عمرًا، حيث تكفَّل اللهُ تعالى بحفظها حين تكفَّل بحفظ كتابه الذي نزل بلسانٍ عربيٍّ مبين: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

وأنَّها الأغزر مادَّةً، حيث تزيد موادُّها على مئة ألفٍ سوى المشتقَّات.

وأنَّها الأبلغُ في مراعاة مقتضى الحال، ولذلك تفرَّدتْ بكثرة القواعد النحويَّة والصرفيَّة والبلاغيَّة، التي يستطيع بها الموهوب أن يملك ناصيةَ البيان، ومع ذلك تمتاز بالسهولة؛ فهي بحرٌ له عمقٌ، وله سطحٌ، وعلى قدر همَّة الغوَّاص يحصل على الدُّرر، وإذا كانت العربيَّة بحرًا، فإنَّ القرآنَ أنْفَسُها دُررًا ولؤلؤًا، ولكنَّ الحصولَ على جواهره يحتاج إلى غواصٍ ماهرٍ، عدَّتُهُ التدبُّرُ العميقُ لآياته وسوره.

وإن لبلوغ منـزلة المتدبِّرين للقرآن الكريم، وللوقوف على مدى بلاغته وإعجازه ثلاثةَ أركان:

الأوَّل: فهم علوم اللغة.

والثاني: الإخلاص.

والثالث: الذوق السليم. وسأكتفي بإيراد أقوالٍ لبعض العلماء الأعلام في هذه الأركان:

*** الركن الأوَّل: فهم علوم اللغة:**

وأقصد بعلوم اللغة: نحوَها، وصرفَها، وبلاغتَها، ودلالاتِ ألفاظها؛ فإنَّ فهم أسرار اللغة العربية، ومنها القرآن الكريم، يحتاج إلى الاطلاع على كلِّ علومها مجتمعة؛ لأنَّها حلقةٌ متَّصلةٌ، يأخذ بعضها برقاب بعضٍ.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا بدَّ في تفسير القرآن والحديث من أن يَعْرِفَ ما يدلُّ على مراد الله ورسوله ﷺ من الألفاظ، وكيف يفهم كلامه؛ فمعرفة العربيَّة التي خُوطبنا بها ممَّا يعينُ على أن نفقه مرادَ الله ورسوله بكلامه، وكذلك معرفةُ دلالة الألفاظ على المعاني؛ فإنَّ عامَّة ضلال أهل البدع كان بهذا السبب؛ فإنَّهم صاروا يحملون كلام الله ورسوله ﷺ على ما يدَّعون أنه دالٌّ عليه، ولا يكون الأمرُ كذلك».

والثمرة العظمى لهذا الفهم هو التدبُّر الذي نُدِبَ المرءُ إليه؛ ليؤديَ به ذلك إلى الإيمان بالله مُنْزِلِ هذا الكتاب، وإلى تعظيم القرآن ومَنْ أوحاه، ومَنْ بَلَّغَهُ، وهذه كلُّها لا تتأتَّى إلا لمن عَرَفَ لغته، وأدرك أسرارها.

قال ابن النقيب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّما يَعرف فضلَ القرآن مَنْ عَرَفَ كلام العرب، فَعَرَفَ علم اللغة، وعلم العربيَّة، وعلم البيان... فإذا علم ذلك، ونظر في هذا الكتاب العزيز، ورأى ما أودعه الله -سبحانه- فيه من البلاغة والفصاحة وفنون البيان، فقد أوتي فيه العجبَ العجابَ، والقولَ الفصلَ اللبابَ، والبلاغةَ الناصعةَ التي تحيِّرُ الألبابَ، وتُغلقُ دونها الأبوابُ... ولذلك يقع في النفوس عند تلاوته وسماعه من الروعة ما يملأ القلوبَ هيبةً، والنفوسَ خشيةً، وتستلذُّه الأسماعُ، وتميل إليه بالحنين

الطباعُ، سواءً كانت فاهمةً لمعانيه، أو غير فاهمةٍ، عالمةً بما يحتويه، أو غيرَ عالمة، كافرةً بما جاء به، أو مؤمنةً».

*** الركن الثاني: التقوى والإخلاص والتجرُّد:**

فالقرآن العظيم نور الله، وفهمه يحتاج إلى نورٍ منه: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور:٤٠]، قال الزركشيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اعلمْ أنَّه لا يحصلُ للناظر فهمُ معاني الوحي حقيقةً، ولا تظهرُ له أسرارُ العلم من غيبِ المعرفة، وفي قلبهِ بدعةٌ، أو إصرارٌ على ذَنْبٍ، أو في قلبه كِبْرٌ، أو هوًى، أو حُبُّ دنيا، أو يكونُ غيرَ متحقِّقِ الإيمانِ، أو ضعيفَ التحقيقِ، أو معتمدًا على قول مفسِّرٍ ليس عنده إلا علمٌ بظاهرٍ، أو يكونُ راجعًا على معقولِهِ، وهذه كلُّها حُجُبٌ وموانعُ، وبعضُها آكَدُ من بعضٍ، (فـ) إذا كان العَبدُ مصْغيًا إلى كلامِ ربِّهِ، ملقيَ السمعِ وهو شهيدٌ لمعاني صفات مخاطِبه، ناظرًا إلى قدرته، تاركًا للمعهود من علمه ومعقوله، متبرِّئًا من حوله وقوَّته، معظِّمًا للمتكلِّم، مفتقرًا إلى غيبِ الجوابِ بدعاء وتضرُّعٍ، وابتئاسٍ وتمسكنٍ، وانتظارٍ للفتحِ عليه من عند الفتَّاحِ العليمِ، وليستعنْ على ذلك بأن تكون تلاوتُهُ على معاني الكلام وشهادة وصفِ المتكلِّم من الوعد بالتشويق، والوعيد بالتخويف، والإنذار بالشديد، فهذا القارئ أحسنُ الناس صوتًا بالقرآن، وفي مثل هذا قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة:١٢١]، وهذا هو الراسخ في العلم، جعلنا الله من هذا الصنف ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤].

*** الركن الثالث: الذوق اللغويُّ السليم:**

إنَّ قراءة القرآن الكريم، ولو توافر معها التقوى والإخلاص ومعرفة العربيَّة، لا تستلزم القدرة على الوقوف على جمال الأسلوب وبلاغة كلام العرب؛ لأنَّ ذلك

يحتاج أيضًا إلى ذوق سليم، وكذلك إدراك مواطن الإعجاز اللغويِّ في القرآن الكريم يتطلَّبُ وجود مَلَكَةِ الذوقِ القادرِ على تمييز الفروق بين المشتبهات وأسرارها، وعلى مواطن الفصاحة والبلاغة، وإجراء الكلام على النَّسق الرائع.

قال ابن أبي الحديد: «اعلمْ أنَّ معرفة الفصيح والأفصح، والرشيق والأرشق، والجليِّ والأجلى، والعليِّ والأعلى من الكلام أمرٌ لا يُدْرَكُ إلا بالذوق، ولا يمكن إقامةُ الدلالةِ المنطقيَّة عليه، وهو بمنـزلة جاريتين: إحداهما بيضاءُ مُشْرَبَةٌ حُمْرَةً، دقيقةُ الشفتين، نقيَّة الشَّعْرِ، كحلاءُ العينِ، أسيلةُ الخدِّ: دقيقةُ الأنفِ، معتدلةُ القامة.

والأخرى دونها في الصفات والمحاسن، لكنَّها أحلى في العيون والقلوب منها، وأليقُ وأملحُ، ولا يُدْرى لأيِ سببٍ كان ذلك، لكنَّه بالذوق والمشاهدة يُعْرَفُ، ولا يمكن تعليله.

وهكذا الكلامُ، نعمْ يبقى الفرقُ بين الوصفين: أنَّ حُسْنَ الوجوهِ وملاحتَها، وتفضيلَ بعضِها على بعضٍ يدركه كلُّ مَنْ له عينٌ صحيحةٌ، وأمَّا الكلامُ؛ فلا يعرفُه إلا بالذوق، وليس كلُّ مَنِ اشتغلَ بالنحو، أو باللغة، أو بالفقه كان من أهل الذَّوق، وممَّن يصلح لانتقاد الكلام.

وإنَّما أهلُ الذوق هم الذين اشتغلوا بعلم البيان، وراضوا أنفسهم بالرسائل والخطب والكتابة والشعر، وصارتْ لهم بذلك دُرْبَةٌ ومَلَكَةٌ تامَّةٌ، فإلى أولئك ينبغي أن يُرْجَعَ في معرفةِ الكلام، وفضلِ بعضِه على بعض».

ولا شكَّ في أنَّ سائلًا سيقول: ولكنْ أيكون الذوقُ فطريًّا أم مكتسبًا؟

فأقول: إنَّ الذوق في الأصل ملكةٌ فطريَّةٌ، لكنَّ الاكتسابَ فيه هو المعتَمَدُ، ولذلك قال الزمخشريُّ عن تدبُّر كتاب الله: «إنَّ أملأ العلوم بما يغمر القرائح، وأنهضها بما يبهر

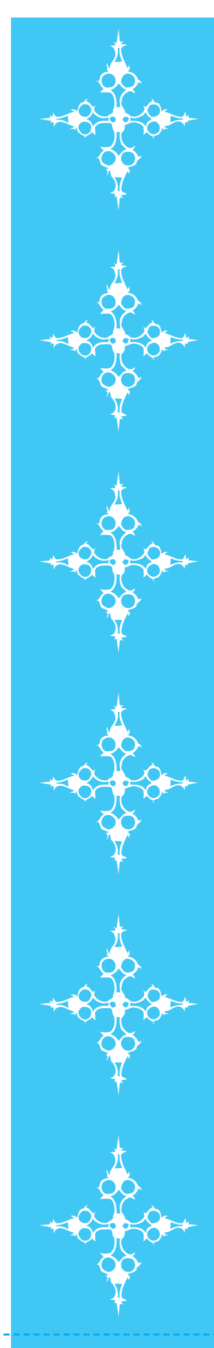
الألباب القوارح، من غرائبِ نكتٍ يلطفُ مسلكها، ومستودعاتِ أسرارٍ يدقُّ سلكها، علمُ التفسير الذي لا يتمُّ لتعاطيه وإجابة النظر فيه كلُّ ذي علم، كما ذكر الجاحظ في كتاب (نظم القرآن)؛ فالفقيه وإنْ برَّز على الأقران في علم الفتاوى والأحكام، والمتكلِّم وإن بَزَّ أهلَ الدنيا في صناعة الكلام، وحافظُ القصصِ والأخبارِ وإنْ كان من ابن القرِّيَّة أحفظَ، والواعظُ وإن كان من الحسن البصريِّ أوعظَ، والنحويُّ وإنْ كان أنحى من سيبويه، واللغويُّ وإن عَلَكَ اللغاتِ بقوَّةِ لحييه، لا يتصدَّى منهم أحدٌ لسلوك تلك الطرائق، ولا يغوصُ على شيء من تلك الحقائق إلا رجلٌ قد برع في علمين مختصَّين بالقرآن، وهما علم المعاني والبيان، وتمهَّل في ارتيادهما آونةً، وتَعِبَ في التنقير عنهما أزمنةً، وبعثته على تتبُّع مظانِّهما هِمَّةٌ في معرفة لطائف حجَّة الله، وحرص على استيضاح معجزة رسول الله، بعد أن يكون آخذًا من سائر العلوم بحظٍّ، جامعًا بين أمرين: تحقيق وحفظ، كثيرَ المطالعاتِ، طويلَ المراجعاتِ، قد رَجَعَ زمانًا، وَرُجِعَ إليه، وَرَدَّ، وَرُدَّ عليه، فارسًا في علم الإعراب، مقدَّمًا في حملة الكتاب، وكان مع ذلك مسترسل الطبيعة منقادها، مشتعل القريحة وقَّادها، يقظان النفس، دراكًا للمحة، وإن لَطُفَ شأنها، منتبهًا على الزَّمرَة، وإنْ خفي مكانها، لا كَزًّا جاسيًا، ولا غليظًا جافيًا، متصرِّفًا ذا دُربةٍ بأساليب النظم والنثر، مرتاضًا غير ريِّض بتلقيح بناتِ الفكر، قد علم كيف يُرَتَّبُ الكلامُ، ويُؤَلَّفُ، وكيف يُنْظَمُ، ويُرْصَفُ، طالما دُفعَ إلى مضايقه، ووقع في مضاحضه ومزالقه».

وكتبه

د. صالح بن حسين العايد

الأمين العام للمجلس الأعلى

للشؤون الإسلامية





الجلسة الأولى :

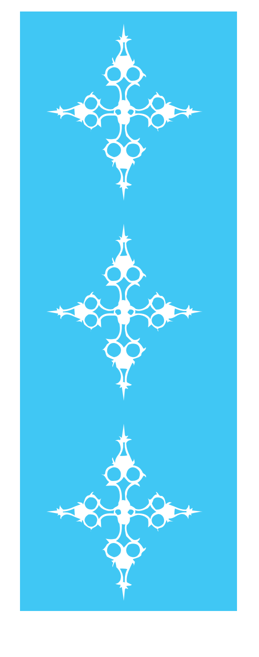
التدبُّر عند اللغـويـين



الورقة الثانية:

مفهوم التدبُّر عند اللغويين

د. عـويـض العــطـــوي



الورقة الثانية:

د. عويض العطوي

مفهوم التدبر عند اللغوين

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله..، وبعد:

فقد تلقَّيت دعوةً كريمةً من (مركز تدبُّر) المتخصص بتدبر القرآن، بشأن المشاركة في الملتقى العلمي الذي عنوانه: (مفهوم التدبُّر، تحريرٌ وتأصيلٌ) المزمع إقامته في يوم الخميس ١/ ٦/ ١٤٢٩هـ من الساعة ٤-١١ مساءً.

وقد رأيتُ أن أشارك في هذا الملتقى بورقةٍ بعنوان: **(مفهوم التدبُّر عند اللغويين)**، وقد كانت لي عنايةٌ خاصَّةٌ بهذا الموضوع منذ زمن ليس بالهيِّن، وكان أكثرُ تلك العناية منصبًّا على التطبيق أكثر من التنظير، لكن لاح لي وأنا أكتب هذه الورقات، وأتصفَّح تلك المحاور المرسلة، سؤال مفاده:

لماذا كلُّ هذا الاهتمام بهذا الموضوع؟ هيئات، ومراكز، وأبحاث، ودورات، وكتب، بينما لا نجد ما يماثل ذلك عند السلف، هل عندنا شيءٌ ليس عند السابقين، هل فَهْمُنا اختلف عن فَهمِهم؟

أَسئلةٌ قد تدور في ذهن من يتصدَّى لهذا الموضوع، ولعلَّ من إجابات تلك الأسئلة:

أنَّهم قوم فهموا المراد، واهتموا بالتطبيق أكثر من التنظير.

أنَّهم فهموا التدبُّر بما يؤول إليه من عمل وسلوك، فقاموا بذلك، ونحن اشتغلنا بالتنظير.

ولكن هذا لا يعني أن نترك البحث والنظر، والتأليف، لكنه سؤال لا بُدَّ أن نستحضره ونحن نناقش هذا الموضوع، حتى لا نسرف في شيءٍ على حساب شيءٍ آخر.

* توطئة:

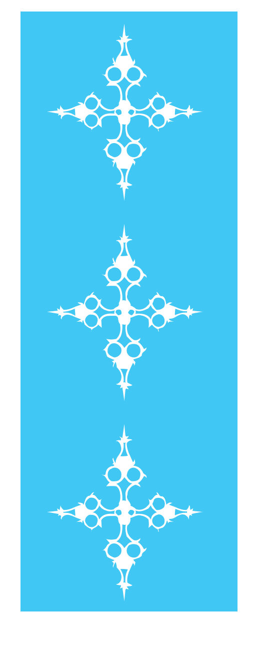
عند التأمُّل في هذه الكلمة (التدبُّر) نجد أنه يمكن أن يُحدَّد مفهومها بالنظر إليها من زوايا عدَّة، هي المادة التي بنيت منها هذه الكلمة وهي (دبر)، وذلك لأن كلمة (التدبر) مصدر للفعل (تدبَّر) وهو مزيد بالتاء وتضعيف العين، وهذه الزيادة لا بُدَّ من استحضارها عند بيان مدلول هذه الكلمة، وذلك من خلال دراسة صيغة الكلمة (تَفَعَّل)، كما لا بُدَّ من التعرض للصيغة التي وردت عليها الكلمةُ في القرآن، وهي الفعل المضارع (يتدبرون، يدَّبروا)، وسر اختصاص هذه الكلمة بالقرآن، دون (التأمل، والتفكر، والنظر).

ومِن خلال هذه المحددات رأيت أن تشمل الورقة ثلاثة مباحث على النحو الآتي:

المبحث الأول: دلالة مادة التدبُّر في المعاجم اللغوية.

المبحث الثاني: الفروق الدلالية بين التدبر وبعض مرادفاته: (التأمل، التفكر، النظر، التأويل).

المبحث الثالث: دلالة صيغة الكلمة (التدبر).



المبحث الأول :

دلالة مادة (التدبُّر) في اللغة

بالنظر في معاجم اللغة نجد أنَّ المادة الأصليَّة لكلمة التدبر هي: (د ب ر)، وهذه المادة تدل على معانٍ عدَّة، هي:

١ - الذهاب والانصراف:

يقول الخليل (ت ١٧٠ هـ): «ويقال للقوم في الحرِّ: وَلُّوهُم الدُّبُرَ والإدبار، والإدبار التَّوْلِيةُ نفسُها... وإدبار النُّجومِ، عند الصُّبحِ في آخر اللَّيل إذا أَدبَرَتْ مُوَلِّيةً نحو المغرب»»[١].

ويقول ابن سيدة (ت ٤٥٨ هـ): «دَبَرَ الليل والنهار يَدْبُر دُبورًا»[٢]، أي: ذهب وولى.

٢ - مُؤخِّرة الشيء:

لذا تذكر هذه المادة في مقابل القُبل كثيرًا، وقد نصَّ على ذلك الخليل بقوله: «دُبُر

(١) العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، مادة (دبر)

(٢) المخصص، ابن سيدة، باب فعلت وأفعلت، ٣/ ٤٤٤.

كلِّ شيءٍ خلاف قُبُلِه ما خلا قولهم: جَعَلَ فلانٌ قَولي دَبْرَ أُذُنِه؛ أي خَلْفَ أُذُنه، ودُبُرَ أذنه»[1].

وقد جمع الزمخشريُّ (٥٣٨ هـ) كثيرًا من أقوالهم في ذلك، ومما ذكره قولهم: «قبَّح الله ما قَبُل منه وما دَبُر، والدلو بين قابل ودابر: بين من يُقبل بها إلى البئر وبين من يُدبر بها إلى الحوضِ، وما بقي في الكنانة إلا الدابر وهو آخر السهام، وقطع الله دابِرَهُ وغابِرَهُ، أي آخِرَه وما بقي منه، وصكَّ دابرتَه؛ أي: عرقوبه...»[2].

٣- النظر في عواقب الأمور وأواخرها:

وقد يكون هذا من الدلالة المجازية المنقولة من الدلالة الحسية التي سبق ذكرها، يقول الخليل: «والتَّدبير: نَظَرٌ في عَواقِبِ الأمور، وفلانٌ يَتَدَبَّرُ أعجازَ أمورٍ قد وَلَّتْ صدورُها»[3].

ويقول الزبيدي (١٢٠٥هـ): «ويقال: عَرَف الأَمرَ تَدَبُّرًا؛ أَي: بأَخَرَةٍ.

قال جَرِير:

ولا تَتَّقُون الشَّرَّ حتَّى يُصِيبَكُمْ   ولا تَعْرِفون الأَمرَ إلاَّ تَدَبُّرَا»[4].

٤- التقاطع والهجران:

يقول الخليل: «والتَّدابُر: المُصارَمة والهجْران، وهو أن يُوَلِّي الرجل صاحبَه دُبُرَه،

---

(١) العين، مادة (دبر).

(٢) أساس البلاغة، الزمخشري مادة (دبر).

(٣) العين، مادة (دبر).

(٤) تاج العروس، مادة(دبر).

ويُعرضَ عنه بوَجهه»[1].

٥- التجاوز:

جاء في الأساس: «دبر السهمُ الهدفَ: جازه، وسقط وراءه»[2].

٦- التتبع والتعقُّب:

يقول الخليل: «والدابِرُ: التابع، ودَبَرَ يَدْبُرُ دَبْرًا؛ أي: تَبِعَ الأَثَر، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ﴾ [المدثر:٣٣]؛ أي: وَلَّى ليذهَبَ، ومن قَرَأَ: دَبَرَ؛ أي: تَبِعَ النَّهارَ..، واستَدْبَرَ فلان فلانًا من حِينه: أي حين تَوَلَّى تَبِعَ أمرَه»[3]، وجاء عند الأزهري (٣٧٠ هـ): «قال: ويقال: عقَّبت الأمر، إذا تدبَّرته، قال: والتعقُّب: التدبُّر والنظر ثانيةً.

قال طفيلٌ الغنوى:

فلن يجد الأقوامُ فينا مَسَبَّةً   إذا استُدبرتْ أيَّامنا بالتعقُّبِ

يقول: إذا تعقبوا أيامنا لم يجدوا مَسَبَّةً»[4].

٧- ريح خاصَّة:

تسمى بالدَّبور، «وسمِّيت دبورًا؛ لأنها تجيء من دبر الكعبة»[5].

وهناك معان أخرى يمكن استنباطها من إيرادهم التدبر تفسيرًا لبعض الكلمات، ومن ذلك:

---

(١) العين، مادة (دبر).

(٢) أساس البلاغة، مادة (دبر).

(٣) العين، مادة (دبر).

(٤) تهذيب اللغة، الأزهري، مادة (عقب).

(٥) جمهرة اللغة، لابن دريد، مادة (دبر).

٨- الحرث:

يقول الزمخشري في (الأساس): «وحرثت القرآن: أطلت دراسته وتدبره»[١].

٩- التطفيل:

يقول الزمخشري: «وطفلت الكلام ورشحته: تدبرته»[٢].

١٠- الفلي:

يقول الزمخشري: «فليت الشعر: تدبَّرته وفتَّشت في معانيه»[٣].

١١- الاقتداح:

جاء في (الأساس): «ومن المجاز: اقتدح الأمر: تدبَّره»[٤].

١٢- التعقُّل:

«التعقُّل:التدبُّر، وتعقَّلتُ الشيءَ تدبَّرتُه»[٥].

ومن خلال النظر في كلِّ ما سبق نلحظ تقارب المعاني، وأنَّ جُلَّها يعود إلى عاقبة الشيء ومؤخرتِه، وقد كفانا ابن فارس(٣٩٥ هـ) مؤونة ردِّ تلك المعاني إلى معنًى كُلِّـيٍّ بقوله: «(دبر) الدال والباء والراء، أصل هذا الباب: أنَّ جُلَّه في قياسٍ واحد، وهو آخِر الشَّيء وخَلْفُه خلافُ قُبُلِه، وتشذُّ عنه كلماتٌ يسيرة نذكرُها، فمعظم الباب

---

(١) أساس البلاغة، مادة (حرث).

(٢) أساس البلاغة، مادة (طفل).

(٣) أساس البلاغة ١/ ٣٥٩.

(٤) أساس البلاغة، مادة(قدح)

(٥) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي، تحقيق: د. محمد رضوان الداية (دار الفكر المعاصر ، دار الفكر - بيروت ، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ) (ج ١ / ص ١٨٨)

أنَّ الدُّبُرَ خلافُ القُبُل»[1].

ووجَّه ابن فارس كثيرًا من الأقوال وفقًا للمعنى الذي ذكر فقال: «... مِنْ ذلك: ودبَّرْتُ الحديثَ عن فُلانٍ، إذا حدَّثتَ به عنه، وهو من الباب؛ لأنَّ الآخِرَ المحدِّثَ يَدْبُر الأوَّلَ يجيءُ خَلْفَه... وقد دَبَرَ يَدْبُرُ دُبورًا، والدَّبرانُ: نجمٌ، سمِّي بذلك؛ لأنَّه يَدْبُر الثُّريَّا، ودابَرْتُ فُلانًا: عاديتُه، وفي الحديث: «لا تَدَابَرُوا»، وهو من الباب، وذلك أنْ يترُكَ كلٌّ واحدٍ منهما الإقبالَ على صاحبه بوجْهه، والتدبير: أنْ يُدبِّر الإنسانُ أمرَه، وذلك أنَّه يَنظُر إلى ما تصير عاقبتُه وآخرُه... والدَّابر من القِداح: الذي لم يَخْرُج؛ وهو خلاف الفائز، وهو من الباب؛ لأنَّه ولَّى صاحبَه دُبُرَه. والدَّابر: التابع؛ يقال: دَبَرَ دُبُورًا. وعلى ذلك يفسَّر قوله جلَّ ثناؤُه: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ﴾ [المدثر:٣٣]، يقول: تبِع النَّهارَ...

وأما الكلمات الأُخَرُ؛ فأُراها شاذَّةً عن الأصل الذي ذكرناه، وبعضُها صحيح»[2].

وبهذا ندرك أنَّ دلالات هذه المادة يمكن أن ترشدنا إلى أن (التدبُّر) يحتاج إلى: التتبُّع للوصول للغايات، وأواخر الأشياء.

وإنما أَورَدتُّ كلَّ ما يخص هذه المادة من معانٍ من أجل الاستقصاء؛ ليمكننا بعد ذلك الخروج بمعنى مناسب لدلالة التدبُّر في القرآن، وفي نظري أنَّ المعاني المذكورة تآزرت بصورة واضحة في دلالة أشرت إليها قبل قليل.

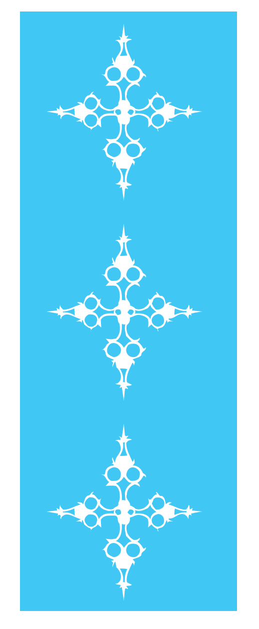
---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس،تحقيق: عبد السَّلام محمد هَارُون، (اتحاد الكتاب العرب، ١٤٢٣ هـ = ٢٠٠٢م)، مادة (دبر)

(٢) مقاييس اللغة، مادة (دبر).

ومع هذا؛ فأنا لا أرى ما يدعو إلى التعمُّق في البحث اللغوي إلا للمختصين، أما عند مخاطبة الناس بهذا الموضوع، أو التأليف؛ فأرى أن يقصر الأمر على ما يفهمُه الناسُ بسهولة، حتى لا نقيم حدودًا أو حواجز تضيق من مساحة التدبر الواسعة.

وفي رأيي أنَّ عامة المسلمين يفهمون المعنى العام من مصطلح (تدبر القرآن)، ولهذا فلا أرى مناسبة للتوسُّع فيه على ما ذكر، إلا للبحوث المتخصصة، وهذه الورقة إحداها.



المبحث الثاني:

الفروق الدلالية بين التدبر وبعض مرادفاته من حيث اللغة

بما أنَّ التدبر لم يذكر في القرآن إلا مع القرآن، فهذا يعني خصوصية لهذه الكلمة ليست لغيرها، مما يرى أنه بمعناها مثل: التفكُّر، والتأمُّل، والنظر، والتفسير، والتأويل، ولهذا رأيت أنَّ مما يمكن أن يُسهم في تجلية معنى التدبر وتحديد مفهومه بيان الفروق الدلاليَّة بينه وبين هذه الكلمات؛ لإدراك سرِّ اختصاص كلٍّ منها بما اختص به.

* التدبر والتفكر:

يقول ابن سيده: «الفَكْر، والفكْر: إعمال الخاطر في الشيء»[1]، وجاء في القاموس: «الفِكْرُ -بالكسر، ويُفْتَحُ-: إعمالُ النَّظَرِ في الشيءِ»[2]، وجاء عند ابن فارس: «(فكر) الفاء والكاف والراء تردُّدُ القَلْب في الشَّيء، يقال: تفكَّرَ إذا ردَّدَ قلبه معتبِرًا»[3].

ويظهر من هذا: أنَّ التفكر هو استخدام للعقل المشار إليه بالنظر والقلب، وليس من دلالاته الوصول إلى الغايات، بل الاعتبار بالمشاهدات وما يماثلها من

(١) المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيدة، مادة (فكر).

(٢) القاموس المحيط، الفيروز آبادي، مادة (فكر).

(٣) مقاييس اللغة، مادة (فكر).

دلائل القدرة، لذا نجده يذكر مع الآيات المنظورة (الكون)، دون الآيات المسطورة (القرآن)؛ لأن ذلك هو مجال، وقد أجاد أبو هلال العسكري حين جعل جوهر الفرق بين اللفظين يرجع إلى مقصد كلٍّ منهما (العواقب، والدلائل)، بناء على الفرق المعجمي في دلالة كل منهما، فقال: «الفرق بين التدبر والتفكر: أن التدبُّر: تصرُّف القلب بالنظر في العواقب، والتفكُّر: تصرف القلب بالنظر في الدلائل»[1].

*** التدبر والنظر:**

جاء في «العين»: «تقول: نَظَرْتُ إلى كذا وكذا من نَظَر العين، ونَظَر القلب»[2]، وفي «المقاييس»: «(النون والظاء والراء) أصلٌ صحيح، يرجع فروعُه إلى معنًى واحد، وهو تأمُّلُ الشَّيءِ ومعاينتُه، ثم يُستعار ويُتَّسَع فيه، فيقال: نظرت إلى الشَّيءِ أنظُر إليه، إذا عاينْتَه»[3].

ويتضح من هذا: أنَّ عماد هذه الكلمة (النظر) هو المعاينة التي أداتها العين، وبهذا يكون النظر أقرب التفكر منه إلى التدبر، وأرى أن الاثنين (التفكر والنظر) أداتان يمكن أن يوصلا إلى القدرة على التدبر.

*** التدبر والتأمل:**

يقول الخليل: «التَّأَمُّل: التَّثَبُّتُ في النَّظر، قال:

تأمّلْ خليلي هل تَرَى من ظَعائنٍ... تحمّلْنَ بالعَلْياءِ من فَوْق جُرْثُمِ»[4].

(١) الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري ١ / ١٢١.

(٢) العين، مادة (نظر).

(٣) مقاييس اللغة، مادة (نظر).

(٤) العين، مادة (أمل).

وجاء في «القاموس المحيط»: «تأمَّلَ: تَلَبَّثَ في الأَمْرِ والنَّظَرِ»[1]، وقال ابن فارس: «(أمل) الهمزة والميم واللام أصلان: الأول: التثبُّت والانتظار، والثاني: الحَبْل من الرَّمل»[2].

ويتضح من هذا: أنَّ التأمل يدور حول التثبت والتلبُّث والانتظار، ومن هذا الوجه يختلف عن التدبر الذي يراد منه التتبُّع حتى الوصول إلى غاية المقصد.

وقد عرَّفه العسكريُّ بقوله: «التأمُّل هو: النظر المؤمل به معرفة ما يطلب ولا يكون إلا في طول مدة، فكل تأمل نظر، وليس كل نظر تأمُّلًا»[3]، وقريب منه قول المناوي: «التأمُّل: تدبُّر الشيء وإعادة النظر فيه مرَّة بعد أخرى ليتحقَّقه»[4].

*** التدبر والتفسير:**

قال ابن فارس: «الفاء والسين والراء كلمة واحدة تدلُّ على بيانِ شيءٍ وإيضاحِه»[5]، وهذا يعني: أنَّ التفسير مبناه على الكشف والإيضاح، ويكون له مرتكز محدد كاللُّغة مثلًا، ولهذا نجد العناية بذكر ما يدل على الإبانة والإيضاح في قول الزمخشري في «الأساس»: «وكذلك كلُّ ما ترجم عن حال شيء؛ فهو تفسرته»[6].

فهذا يدل على وجود مؤشر للمعنى يوضح المراد من خلاله، ولهذا يكون التفسير -غالبًا- قريبًا ظاهرًا مفهومًا، بخلاف التدبر؛ فقد يكون لطيفًا عميقًا، ولأجل هذا

(١) القاموس المحيط، مادة (أمل).

(٢) مقاييس اللغة، مادة (أمل).

(٣) الفروق اللغوية ١ / ٥٤٣.

(٤) التعاريف ١ / ١٥٦.

(٥) مقاييس اللغة مادة(فسر).

(٦) أساس البلاغة ١ / ٣٥١.

الملحظ نجد المناوي يقول: «التفسير لغة: الكشف والإظهار، وشرعًا: توضيح معنى الآية وشأنها وقصتها والسبب الذي نزلت فيه، بلفظٍ يدلُّ عليه دلالة ظاهره»[(١)].

* التدبر والتأويل:

قال ابن فارس: «الهمزة والواو واللام أصلان: ابتداء الأمر وانتهاؤه»[(٢)]، وهو بهذا يشير إلى دلالة النهاية والغاية، ويظهر ذلك بوضوح من قوله: «ومن هذا الباب تأويل الكلام، وهو عاقبتُهُ وما يؤُولُ إليه، وذلك قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ﴾ [الأعراف:٥٣] يقول: ما يَؤُول إليه في وقت بعثهم ونشورهم.

وقال الأعشى:

على أنَّها كانَتْ تأَوَّلُ حُبّها تأَوُّلُ رِبعِيِّ السِّقابِ فأصحبا

يريد مرجعَه وعاقبتَه، وذلك مِنْ آل يَؤُولُ»[(٣)].

ونص ابن منظور (٧١١ هـ) على المآل والمرجع، وذكر معه التفسير فقال: «الأَوْلُ: الرجوع، آل الشيءُ يَؤُول أَوْلًا ومآلًا: رَجَع، وأَوَّل إليه الشيءَ: رَجَعَه... وأَوَّلَ الكلامَ وتَأَوَّله: دَبَّره وقدَّره، وأَوَّله وتَأَوَّله: فَسَّره»[(٤)].

ولعلنا من خلال هذه المعطيات نستطيع القول بأن التأويل يبحث فيما يؤول إليه الشيء، وإذا تعلَّق ذلك بالكلام كان المراد هو ما يؤولُ إليه ذلك الكلام، أو هو الرجوع به إلى مآل آخر.

(١) التعاريف ١ / ١٩٢.

(٢) مقاييس اللغة، مادة(أول).

(٣) مقاييس اللغة، مادة (أول).

(٤) لسان العرب، مادة(أول).

وبهذا يكون التأويل أقربَ المعاني للتدبر؛ لاشتراكهما في الوصول للغاية والمآل، والمقصد، لكن قد يكون في التأويل من الخفاء في الدلالة ما ليس في التدبُّر.

وقد اهتمَّ أبو هلال العسكري -كغيره[1]- بإيراد الفروق بين التفسير والتأويل على وجه الخصوص[2]، وما ينبغي التنبه إليه في كلامه قوله في نهاية تلك النقول الكثيرة، والتفصيلات المتعدد: «أقول: لا يخفى أن غاية ما يتحصَّل من هذه الأقاويل:... أنَّ: التأويل له مزيَّة زائدةٌ على التفسير، ويرشد إليه قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران:٧]، حيث حصر سبحانه علم التأويل في جنابة تعالى، ومن رَسَخَ في العلم قدمُه، واستضاء في طريق التحقيق علمُه، ووقع على عجائب ما أودع فيه من الأسرار، وأطلع على تفاصيل ما اشتمل عليه من الأحكام والآثار.

وقد دعا النبي صلى الله عليه وآله وسلم لابن عباس، وقال: «**اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ في الدِّيْنِ، وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ**»، فلو لم يكن للتأويل مزيدُ فضلٍ لم يكن لتخصيص ابن عباس بذلك -مع جلالةِ قدره، وعظيم شأنه- مزيدُ فائدة».

ولعلَّ هذا ما يجعلنا نقول: إن هناك علاقة بين التأويل والتدبر، يحكمها التقاؤهما في الغايات والمقاصد، وافتراقهما فيما يتعلَّق بالمكلفين، فالتدبر مطلوب محثوث عليه، متاح لكلِّ الخلق ممن ملك الأداة، والتأويل محصور في أهل الرسوخ أمثال حبر الأمة وترجمان القرآن، حتَّى لكأن التأويل يبحث فيما خفيت دلالته، وصعب على سائر الناس إدراك المراد منه.

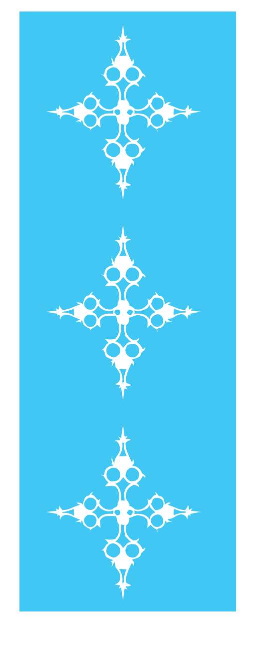
وقد يرشد إلى ذلك تأمل الآيات التي ورد فيها لفظ التأويل، فهي جلُّها -أو

(١) كالمناوي في التعاريف ١ / ١٩٣.

(٢) انظر: الفروق اللغوية ١ / ١٣٠.

كلها- مما خفيت دلالته، مثل الرؤيا، وما خفي من العلم في قصة موسى -عليه السلام- والعبد الصالح، لهذا ينبغي عدم الوقوف عند القول بأن التأويل هو التفسير فحسب، بل إنَّ الدلالة الأخرى المتعلقة بالمآل فيها من العمق والبعد ما يحتاج إلى طول نظر من خلال الأسلوب القرآني، أما التأويل الحادث؛ وهو صرف اللفظ عن ظاهره إلى معنى آخر، فهذا لا تدعمه اللغة.

وليس حديثُنا هنا عن التأويل المذموم، وإنما عن دلالته اللغوية وربطها بوروده في القرآن، ومدح النبي ﷺ لابن عباس به، ولهذا يمكننا من خلال النظر في مواطنه في القرآن من جهة، واستقصاء ما انفرد به ابن عباس من أقوال من جهة، يمكننا من خلال ذلك أن ندرك بصورة أدق معنى التأويل، وسر اختصاص ابن عباس رضي الله عنهما به.



المبحث الثالث :

دلالة صيغة الكلمة (التدبُّر)

لصيغة الكلمة أثر في مدلولها، لهذا رأيت أن أُسلِّطَ الضوء على صيغة هذه الكلمة من الناحية الصرفية ومن الناحية النحوية، وذلك من خلال مطلبين:

المطلب الأول: دلالة الصيغة الصرفية (تفعل).

المطلب الثاني: دلالة الصيغة النحوية (صيغة المضارع).

* المطلب الأول: دلالة الصيغة الصرفية (تفعل):

معلوم أن (التدبُّر) هو مصدر الفعل (تدبر)، وهو فعل مزيد، ومعاني الزيادة تظهر في الفعل، ثم تنقل للمصدر، فالحديث عن المصدر سيكون من خلال الحديث عن الفعل، يقول ابن سيدة: «وأمَّا مصدر تفعَّلْت؛ فإنه التَفَعُّل، جاؤوا فيه بجميع ما في تفعَّل، وضمُّوا العَينَ؛ لأنه ليس في الكلام اسمٌ على تفعُّلٍ»[1].

وبناء على ذلك؛ فإنَّه لا بد أن يكون لصيغة هذا الفعل على (تفعُّل) دون غيرها من الصيغ دلالة تتميَّز بها، ويمكن لهذه الدلالة أن توضح المراد وتحدد المفهوم، وحتى يتم ذلك، فيحسن أن نعرف المعاني التي ذكرها الصرفيون لهذه الصيغة (تفعُّل)،

(١) المخصص ٣/ ٤٠٩.

(بزيادة التاء في أوله، وتضعيف العين).

يقول العكبري (٦١٦ هـ) في «اللباب»: «وقد اطَّردت زيادةُ التَّاء في الفعلِ للمعاني، نحو تَفَعَّل وتَفَاعَل وافتعل، وفي مصادرها وفي مصدر فَعَّل نحو قطَّع تَقْطيعًا، فزيادةُ التَّاء والياء عوضٌ من تَشْديد العينِ في الفعل؛ ليدلَّ على التكثير والتوكيد»[1].

وبعد النظر فيما ذكره الصرفيون من دلالات صيغة (تفعَّل)[2]، نستطيع القول: إنَّ كثيرًا من المعاني الواردة مع هذه الصيغة مبني على المطاوعة، حيث إنها تلمح في أغلب المعاني المذكورة، وعادة ما ينص الصرفيون على ذلك، وسأشير إلى ذلك عند ذكر معاني الصيغة التي هي:

التكثير: (مطاوع) (فعَّل) نحو: كسَّرت الزجاج فتكسَّر.

النسبة: (مطاوع) (فعَّل) نحو: قيَّسته فتقيس، أي نسبته إلى قيس.

الاتخاذ: (مطاوع) (فعَّل)، ولا يأتي إلا متعدِّيًا، والاتخاذ يعني: اتخاذ فاعل الفعل، وجعله مفعول أصل الفعل، نحو: تسنم عليَّ المجد، اتخذه سنامًا.

التكلف: (مطاوع) (فعَّل)، وهو رغبة الفاعل، واجتهاده في حصول الفعل له حقيقة، نحو: تشجَّع، وتحلَّم، وتصبَّر، وتجلَّد، وتكرَّم، وتنوَّه، تقول: تشجَّع المغامر؛ أي: كلَّف نفسه الشجاعة؛ ليتم حصولها.

التَّجنب: (مطاوع) (فعَّل)، وهو للدلالة على السلب، وترك الفعل والابتعاد عنه، نحو: تحرَّج محمد؛ أي: ترك الحرج، وتأثم الرجل. بمعنى: ترك الإثم.

---

(١) اللباب علل البناء والإعراب ١ / ٣١٢.

(٢) ممن فصل في هذا الأمر الرضي في شرحه لشافية ابن الحاجب، انظر تفصيل ذلك في: شرح شافية ابن الحاجب ١ / ١٠٤.

التدرُّج: (مطاوع) (فعَّل)، وهو العمل المتكرر في مهلة، وهو بهذا يؤول إلى معنى التكثير، وحصول الفعل مرة بعد أخرى، ويأتي للأمور الحسية والمعنوية.

مثال الحسيَّة: جرعت المريض الدواء فتجرعه؛ أي: شربه جرعة بعد جرعة.

ومثال المعنوية: علمت التلميذ المسألة فتعلمها؛ أي: علمها مرة بعد مرة.

التأصيل: (مطاوع) (فعَّل)؛ أي جعل الشيء ذا أصل حقيقة، أو تقديرًا، فالحقيقة نحو: أصَّلته فتأصل؛ أي: صار ذا أصل، ومثال التقدير: أهَّلته فتأهَّل؛ أي: صار ذا أهل، وقد يكون مطاوع «فعَّل» الذي معناه جعل الشيء نفس أصله حقيقة، أو تقديرًا، مثال الحقيقة: تزبَّب العنب؛ أي صار زبيبًا، والتقدير نحو: تكلَّل الشيء؛ أي: صار إكليلًا.

بمعنى «استفعل»: وذلك فيما يتعلق بالطلب والاعتقاد؛ لأنهما مختصان بـ «استفعل»، فالطلب نحو: تنجزته؛ أي: استنجزته، بمعنى: طلبت نجازه، وهو الحضور والوفاء به، والاعتقاد: وهو تصورك الشيء أنه على صنعة أصله، نحو: تعظمته؛ أي: استعظمته، بمعنى: اعتقد فيه أنه عظيم.

بمعنى «فَعَلَ»، نحو: تظلمني؛ بمعنى: ظلمنى، وتجهَّمت الرجل؛ بمعنى: جهمته؛ أي: كلحت في وجهه، ومنه حديث دعاء الرسول: «**إِلَى مَنْ تَكِلُنِي، إِلَى عَدُوٍّ يَتَجَهَّمُنِي**»؛ أي: يلقاني بالغلظة والوجه الكريه.

ولعله اتَّضح من خلال هذا العرض لأهم معاني هذه الصيغة كيف أن المطاوعة كانت السمة الأظهر فيها، والعامل المشترك بين أكثرها، وحتى لو كانت المطاوعةُ واردةً في صيغ أخرى، فإن المعاني المذكورة مع هذه الصيغة، والبنية التي وردت عليها، تحدِّد نوع الدلالة فيها، وتمنحها السمةَ المميزةَ لها، عن (تفاعل، وانفعل) على

سبيل المثال.

وشيوع المطاوعة في هذه الصيغة عمومًا يجعلنا نستحضر معناها في حديثنا عن التدبُّر، وإن لم يكن ذلك ظاهرًا في الفعل (تدبَّر)؛ لأنه ليس مطاوعًا لـ(دبَّر)، ذلك أنَّ المطاوعة لا تكون عادة إلا بعد جهد ومشقة، حتى لكأن هذا المطاوِع كان مستعصيًا ثم لان وطاوع، والتدبُّر يحتاج إلى تعقب ونظر في العواقب إلى أن يحصل له مراده، وهذه بعض دلالات المطاوعة.

كما أننا إذا نظرنا إلى المعاني الأخرى الواردة، واستحضرنا معنى (التدبر) ومجاله وهو القرآن، عرفنا بعض السمات والصفات التي ينبغي للمتدبِّر التحلِّي بها، ويمكننا لحظُ ذلك من معنيين على وجه الخصوص هما: (التكلُّف) و(التدرُّج) المراد منه حصول الفعل مرَّة بعد مرَّةٍ، ومرحلة بعد مرحلةٍ، فالأول يُشعر بضرورة بذل الجهد، والثاني يُبين ضرورةَ التدرُّج والتتبُّع مرحلة مرحلة، لسبر أغوار أسرار القرآن، ولعل هذا يلتقي بوضوح مع المعنى اللغوي لمادة (التدبر)، مما يمكِّننا من رسم معالم واضحة لمنهجية التدبر تتمثل في: (الصبر، وبذل الجهد، والتدرج).

* المطلب الثاني: دلالة الصيغة النحوية (صيغة المضارع):

الحديث هنا عن الصيغة التي وردت عليها المادة في القرآن، وبالنظر في تلك الصيغة نجد أن التدبُّر جاء في القرآن في أربعة مواضع هي:

قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:٨٢]، وقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد:٢٤]، وقوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ

﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون:٦٨]، وقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩].

وعند تأمل هذه الآيات يمكن لمح الدلالات الآتية:

١- أنَّ هذه المادة (التدبر) لم تذكر في القرآن إلا مع القرآن، بينما ذكر مع غيره التفكر والتذكر والنظر، ولكل منها معناه الخاص به، على ما سبق بيانه.

٢- أنَّ الصيغة التي جاءت عليها هذه المادة هي (الفعل المضارع) بالفك (يتدبرون) والإدغام (يدبروا)، وقد تنوَّع معها ما يدل على القرآن معها، فقد ورد لفظ (القرآن) معرَّفًا مرتين، وورد لفظ (القول) معرَّفًا مرة واحدة، وورد لفظ (آياته) معرَّفًا بالإضافة مرة واحدة.

ومن خلال كلِّ هذا يمكننا إدراك معان أخرى يمكن أن تتكامل مع ما سبق، فصيغة الفعل -وخصوصًا المضارع- لها دلالات لا بد من استثمارها، وقد ألمح البلاغيُّون في دلالة المضارع في مقابل الاسم إلى بعض الفروق، ولعل أهمها: أن المضارع يدلُّ على التجدُّد والحدوث، أو ما يمكن التعبير عنه بالاستمرار التجددي، والاسم يدل على الثبوت، كما أنه يدل على الحركة بخلاف دلالة الاسم على السكون غالبًا، كما أنه أقدر من الاسم على استحضار الصورة، فإذا قلنا: فلان يركب، كان المضارع ناقلًا للصورة، ودالًّا على الحركة، وليس شرطًا أن يكون ذلك متجدِّدًا.

وإذا أردنا أن نستثمر كل هذا في دلالة المضارع الوارد معنا هنا، لأمكننا القول بأن المراد هو الحث على التدبر بطريق الإنكار لضدِّه (عدم التدبر)، بأسلوب يشعر بضرورة تجدد ذلك كلَّما دعا له داع، أو وجد له سبب.

وهذا الأمر يتناسب مع قضية التدبر، التي لا يتصور فيها أن الإنسان سيكون

متدبِّرًا كلَّ وقته، لكن ينبغي أن يتحرَّك عنده هذا الهاجس كلما طرق سمعه القرآن، أو تحرَّك به لسانه، أو قرأته عيناه، وهذا يعني أن (التدبر) حدثٌ متجدِّدٌ مع أسبابه ودواعيه.

فدلالة المضارع في الشواهد كلِّها مؤشِّرٌ مهمٌّ على ضرورة الاستمرار المتجدِّد في هذا الشأن، ذلك أنَّ مِنْ أهمِّ دلالات هذه الصيغة التجدد والحدوث.

* الخلاصة:

لعله اتَّضح مما سبق ما يأتي:

تآزر دلالة المادة (دبر) مع دلالة الصيغة في إظهار سمات محددة يمكن جمعها فيما يأتي:

أ- النظر في المقاصد والغايات.

ب- التدرُّج، والحدوث، والتجدُّد.

ج- بذل الجهد.

د- الصبر، والتحمُّل.

أنَّ أقرب المرادفات للتدبُّر هو التأويل لاجتماع الكلمتين في دلالة المآل والعاقبة، مع فروق في الوضوح والخفاء.

اختصاص (التدبر) بالقرآن؛ فلم يرد إلا معه، وهذا يوجب -في نظري- عنايةً خاصَّةً بالآيات التي ورد فيها التدبُّر، واقترح أن يكون هناك ملتقًى آخر خاصًّا بها (تحليلًا، وتفسيرًا، وموازنةً)، ويمكن أن تدرس فيه الفروق بين (النظر، والتفكر، والتأويل، والتدبُّر) من خلال القرآن، وهذا ما يمكن أن يوجد منهجًا معينًا في محاولة

تُحدِّد مفهوم هذه المصطلحات.

تنوُّع ما يدل على القرآن مع التدبر، فمرَّة يذكر القرآن، وهو الأكثر، ومرة يرد القول، ومرة ترد الآيات، ولعل هذا يشير إلى مجالات التدبر، وأن أدناها الآية، وأوسعها القرآن كله، وقد يكون فيه إشارة المقروء والمسموع منه.

هذا ما تيسر بيانه على ضيق في الوقت، وأسأل الله العون والتوفيق.

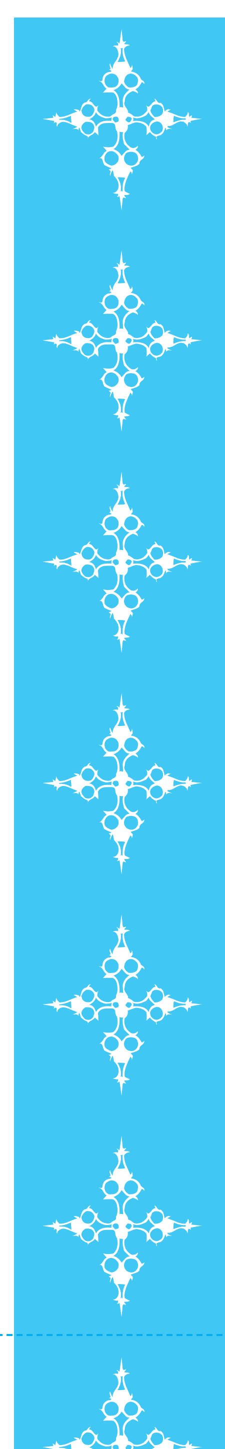
وكتبه

د. عويض بن حمود العطوي

عميد كلية المعلِّمين، ورئيس قسم اللغة العربية

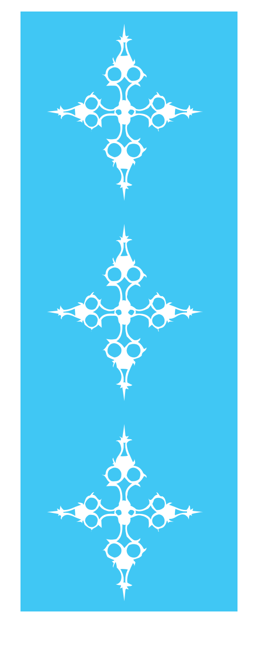
جامعة تبوك

الثلاثاء ١/ ٥/ ١٤٢٩ هـ



تعقيبات الجلسة الأولى





د. سليمان بن إبراهيم العايد

التعقيب الأول

من أصعب الأعمال: تفسير الواضحات، ومن هذه الواضحات (التدبر)، ويحسن بالقارئ أن لا يُغفلَ معجمًا يعنى بألفاظ القرآن ومفرداته، مثل «مفردات ألفاظ القرآن» للراغب الأصفهاني المتوفى سنة: ٥٠٣هـ، شرح فعل (تَدَبَّر)، ومضارعه (يتدبَّر)، ومصدره (تدبُّر).

التدبر فعل يخاطب به الأمة كلها، ولا يختص بذلك أهل العلم، فكما أن العالمَ مطلوب منه التدبر، وكذلك العامي ومن لا يملك أدوات علمية تؤهله يمكن أنَ يقع منه التدبر، وقد يصل إلى ما يصل إليه أهل العلم، وقد يفتح الله عليه بسبب نور بصيرته ما لا يفتحه على العلماء.

أذكر أن عاميًّا رأى شخصًا يجمع الناس حوله فيجتمعون، فقال: إن فلانًا - يقصد هذا الذي يجمع الناس- يدعو إلى نفسه.. ولو أخلص دعوته لوُفِّق، أخذًا من قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِىۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف:١٠٨]، وهذا معنى عزيز قد يغيب عن كثير من الدعاة والمشتغلين بالعلم.

شرع الإسلامُ أمورًا تُعين على التدبر والتفكر في المتلوِّ، ومن ذلك ما في قوله تعالى: ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾ [الإسراء:١٠٦]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾ [المزمل١-٦]، فهذا أمرٌ بالتلاوة في وقتٍ يعين على التأمل والتفكر، وهو وقت صفاء الذهن وفراغ الخاطر، واستعداد الفكر والقلب.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾ [الفرقان:٣٢]، وما اختص به القرآن من التلاوة والتجويد الذي يحمل الإنسان على التأمل والتدبر والنظر، أمر لا يكون مع كلام غيره، وهو مما أمر به، فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»، وزاد غيره: «يجهر به». [أخرجه البخاري].

وقد رد الشافعي على مَن فسر التغني بالاستغناء في حديث: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»، فقال رجل: يستغن، هذا منسوب إلى سفيان، فقال: لا، ليس هذا معناه، بل معناه: يقرأ حدرًا وتحزينًا.

قال أحمد: الرواية الأولى عن أبي سلمة تؤكد ما قال الشافعي، وكذلك ما روي عن البراء بن عازب مرفوعًا: «زينوا القرآن بأصواتكم»، عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»، قال ابن عباس: إني لأحدو به كحدو الراكب. [الحديث في مسند أبي عوانة].

وقد أمر بالتفكر في صدق مَن أُنزل عليه القرآن: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم

﴿بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ:٤٦]، وقد نهينا عن التكثر من ختم القرآن الناتج عن الإسراع في تلاوته، كما في حديث عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «صم من الشهر ثلاثة أيام، فقال: إني أطيق أكثر من ذلك، فما زال حتى قال: صم يومًا وأفطر يوما، قال اقرأ القرآن في كل شهر، قال إني أطيق أكثر من ذلك، فما زال حتى قال: اقرأه في ثلاث». [رواه البخاري عن محمد بن بشار]

وقد نهاه رسول الله ﷺ عن ختم القرآن في ليلة، كما في حديث عبد الله بن عمر؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «في كم تقرأ القرآن؟ قال: قلت: في كل ليلة. قال: فلا تفعل ولكن اقرأه في ثلاث». [الحديث في «شعب البيهقي»]، والحديث يروى بألفاظ متقاربة المعنى..

عن أبي حمزة قال: قلت لابن عباس: إني سريع القرآن، أقرأ القرآن في ثلاث، قال: لئن أقرأ القرآن في ليلة أتدبرها وأرتلها أحب إلي من أن أقرأه كما تقرأ.

وفي «شعب الإيمان» للبيهقي: كان ابن مسعود يقرأ القرآن في ثلاث لا يستعين عليه بالنهار إلا باليسير.

وروي من وجه آخر أنه كان يختمه في رمضان في ثلاث، وفي غير رمضان من الجمعة إلى الجمعة..

هذه مقدمة.. الذين يكتبون ويتعلقون بالجانب اللغوي يخطئون حين يهجمون على ما يدونه المعجميون في تبويب مادة مجردة؛ لأنهم يجانبون المطلوب؛ لأن ما يدرجه أصحاب المعاجم متوجه للعملية التنظيمية التي تنصرف إلى الناحية اللفظية الشكلية، فيدخل تحت المدخل معان ليس بينها صلة، وإيرادها من باب التكثر الذي لا تدعو إليه حاجة، ولا تتوقف عليه مصلحة، فالمداخل عملية تنظيمية قصد منها تنظيم المادة

المعجمية، ولا يلزم أن يكون ما تحتها مشتقًا من مادة واحدة ذات معنى واحد، وهذا ما يمكن أن نسميه الاشتقاق الصوري، وخلاف الاشتقاق الصرفي الذي يقوم على ركنين: اللفظ والمعنى، فالاشتقاق الصرفي يختلف عن الاشتقاق الصوري كما يظهر، فالاشتقاق الصوري الذي بنيت عليه المداخل معجمية، والذي يبنى على اللفظ دون المعنى فنحن نجد في مادة ضرب (ضرب زيد عمرًا) و(ضرب له بسهم)، (وضرب في الأرض)، والضرب بمعنى النوع والنمط، ولا داعي لمن يتحدث عن معنى من هذه المعاني أن يوردها كلها، بل عليه أن يقتصر على ما يجمع بين اللفظ (المادة والمعنى)، والاشتقاق الصرفي، وما يفعله كتبة العصر حين يتحدثون عن التعاريف من التزيدات التي لا داعي لها، ومبعثه الرغبة في الإطالة وزيادة أحجام المقالات والمصنفات، ولا ألوم زميليَّ حينما تحدث أحدهما عن شروط بلوغ منزلة المتدبرين، والآخر عن المادة اللغوية والتصريفية التي يكفي منها القليل..

التمس د. عويض معناه من خلال المادة اللغوية، ومكونات المادة الأصلية، ومن خلال النظر إلى المعنى الصرفي، وهو معنى كلي مرده إلى الصيغة التي تدل على معانٍ منها: التكلف، وقد ذكر الصرفيون من معاني التكلف تفعَّلَ مثل تشجَّع وتحلَّم، والعمل المتكرر في مهلة نحو (تجرعته)، ومنه: تفهم، وهذان المعنيان ظاهران في تدبر، فالتدبر إنما يكون في بدايته معاناة، ويحتاج إلى بذل غير عادي، حتى يصير ممارسة، ثم يرتفع إلى أن يصير عادة، ثم يرتقي درجة إلى أن يكون مهارة، ثم يرتقي درجة فيصير سجية لا يستطيع الإنسان أن ينفك منها، ولا يستطيع قراءة القرآن بدونها، إنما الحلم بالتحلم، والصبر بالتصبر، وقد يربط بعضهم بين المطاوعة والتكثير في هذه الصيغة، كما قال الرضي: وتفعل الذي للعمل المتكرر في مهلة، مطاوع فعل الذي للتكثير،

نحو (جرعتك الماء فتجرعته)، أي: كثرت لك جرع الماء، فتقبلت ذلك التكثير، وفوقت لك اللبن فتفوقته، وحسيتك المرق فتحسيته، أي: كثرت لك اللبن..إلخ.. ومنه تفهم.

وحين قال: مِنهُ؛ لأن معنى الفعل متكرر في مهلةٍ ليس بظاهر فيه، لأن الفهم ليس بمحسوس كما في التجرع والتحسي، فبين أنه منه، وهو من الأفعال الباطنة المتكررة في مهلة.

هذا؛ والظاهر أنَّ تفهَّمَ للتكلف في الفهم كالتسمع والتبصر. (انتهى كلام الرضي)

ويحسن التنبيه إلى أن التدبر لفظًا أو معنى لا يختص بالقرآن إذ كل ما ورد لا يعدو أن يكون استعمالاً، والاستعمالات لا تتنافى بل تتآخى على اللفظ الواحد، ولا أرى محظورًا من استعمال اللفظ في غير القرآن، والكلام جارٍ بنحو (تدبر أمره)، أي: نظر فيه. [ينظر الفروق اللغوية للعسكري]

والفرق بين المكر والكيد.. إلخ.

(وفلان يتدبر أعجاز أمور قد ولت صدورها)، إلخ.

والتدبر التفكر، أي: تحصيل المعرفتين لتحصيل معرفة ثالثة.

ويقال: (عرف الأمر تدبرًا) أي: بأخرة.

قال جرير:

ولا تتقون الشر حتى يصيبكم ... ولا تعرفون الأمر إلا تدبرَا

قال أكثم بن صيفي لبنيه:

يا بَنِيَّ لا تدبروا أعجاز ... أمورٍ قد ولَّت صدورُها

وقد أورد الباحث الكريم أنَّ التدبر ورد في القرآن أربع مرات، مرتين مع القرآن ومرة مع القول، ومرة مع الآيات، وليت الباحث يراجع مقالته هذه، لما ذكر أن الفعل المضارع يدل على الحركة، والاسم يدل على السكون، والمعروف أن المضارع يدل على التجدد والاسم يدل على الثبوت، وفرق بين الثبوت والسكون.

هذه الملحوظات اللغوية أتركها له..

حديث أبي هلال العسكري عن الفروق لا يعدو أن يكون وجهة نظر، هي محل خلاف، فالدكتور عويض نقل قول المناوي: (التأويل: تدبر الشيء وإعادة النظر فيه مرة بعد أخرى ليتحققه)، علماً أن التفسير لا يلزم منه توافق اللفظين من كل وجه، والمستعمل للألفاظ لا ينْزع لهذا التأمل، وأستحضار أصل المعاني، والنظر فيما يكون بين اللفظين من فرق لا يلحظه المستمع، وقد جعل الدكتور عويض التأويل قريبًا من معنى التدبر، والحقيقة أن بينهما فرقًا، ذلك أن التأويل فيه تفسير، والتدبر لا يلزم منه هذا المعنى، فقد يتدبر الإنسان ولا يفسر، بل أكثر التدبر غير مكتوب، ولا مدون، وهو يتعلق بالشخص، وفائدة خاصة، بخلاف التأويل والتفسير، وهذا المعنى استدركه الدكتور عويض في آخر مقاله بقوله: فالتدبر مطلوب محثوث عليه، متاح لكل الخلق ممن ملك الأداة، والتأويل محصور في أهل الرسوخ أمثال حبر الأمة، حتى لكأن التأويل يبحث فيما خفيت دلالته، وصعب على سائر الناس إدراك المراد منه..

فرَّقَ الدكتور عويض بين فعَّل وتفعَّلَ، فجعل الأول صيغة صرفية، وجعل الثانية صيغة نحوية، وكلاهما من الصرف؛ لأن النحو إنما يعنى بالتراكيب، والصرف إنما يعنى بالأبنية والصيغ، وقد يطلق النحو ويراد به الكل، (النحو والصرف)، كما توسع بإيراد معاني تفعل، فنقل كل ما أورده الصرفيون، وهذا تزيد لا لزوم له، وليته

اكتفى بمعنيين، (التكلف والتدرج)؛ لأن بقية المعاني بعيدة عن المقصود من معنى التدبر.

وربط التدبر بالمطاوعة فيه نظر، إذ ليس فيه مطاوعة، إذ المطاوعة قائمة على فِعْلِ فِعْلٍ معينٍ من طرفٍ، والاستجابة له من طرفٍ آخر، مثل: (كسرتُ الزجاجَ فانكسرَ)، (وقضضت الجدار فانقض)، وليست المطاوعة إجابة الأمر والطلب.

التدبر في حقيقته مبادرة، واستجابة التدبر لأمر الله، وليس فيه المعنى الممنوح مثل (فهمته فتفهم)، (علمته فتعلم)، (وجهته فتوجه).

ربط الأستاذ د. صالح العايد، بين شيئين لا يلزم الربط بينهما فهو يقول: وإن لبلوغ منزلة المتدبرين للقرآن، وللوقوف على مدى منزلته وإعجازه ثلاثة أركان: الأول: فهم علوم اللغة، والثاني: الإخلاص، والثالث: الذوق السليم.

وهو غير لازم، المهم في الموضوع أن لا نجنح إلى ربط التدبر بإدراك وجوه الإعجاز، أو إدراك سر التعبير القرآني، فالتدبر عمل خوطب به الجميع، بل خوطب به الكفرة، ولم يقصر طلبه على النخبة والمعنيين بالإعجاز والراسخين في علوم العربية، وكأني بأخويَّ قد سلكَا أو تابعَا الزمخشري حين قال مقالةً طويلة -أورد الدكتور صالح بعضًا منها-.

وربط د. صالح بين التقوى وفهم معاني حقيقة الوحي، وظهور أسرار العلم له، ولا أدري صحة ذلك، إلا أن يكون قصد أن التقوى مظنة التوفيق في التأويل؛ لأن قصارى هذا القول أن يكون كلمة لبعض أهل العلم ورأيًا يحتاج إلى دليل، فكم من قاس قلبه يريد الهداية، كان الاطلاع على القرآن سبب هدايته، فالتدبر وإن كان من معرض كافر قد يكون سبب الهداية، كما حصل في قصة إسلام عمر بن الخطاب،

ولهذا أقترح على أخي د. صالح مراجعة مثل هذه المقالة، قد يقول إن ذلك خاص بمن يشتغلون في علوم القرآن، غير أن التدبر غير مقصور عليهم؛ لأنه أمر خوطبت به الأمة، بل إن التدبر ورد في الآيات الأربع ضمن سياق يخاطب غير المؤمنين، الآيات الأربع كلها وردت في سياق مخاطبة غير المؤمنين، ولم ترد في خطاب المؤمنين..

*** الخلاصة:**

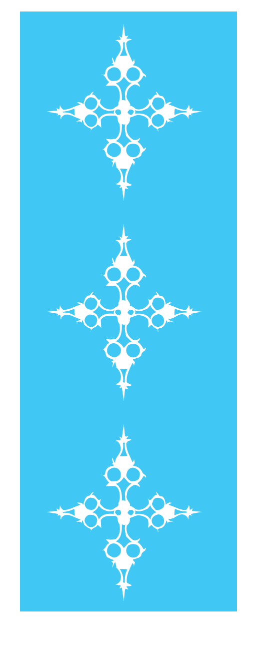
أن كل ما ذكر إنما يتوجه إلى جهة خاصة تعنى ببيان وجوه الإعجاز والوصول إلى تفسير قد لا يدركه عامة المفسرين، وهل يحرم من لا تتوافر فيه هذه الشروط الثلاثة من نعمة التدبر، وهي أساس الهداية..

إن معنى التدبر الذي ذكره الإخوان معنى مقبول؛ لكن هل لنا أن نقصر ما جاء في القرآن عن التدبر في هذا المعنى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ:٤٦].

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته،،،

وكتبه

د. سليمان بن إبراهيم العايد
أستاذ العلوم اللغوية
جامعة أم القرى



د. عبدالعزيز بن حميد الحميد

التعقيب الثاني

بذل الباحث الكريم د. عويض العطوي جهده مشكورًا لبيان معنى التدبّر؛ فسلك عدَّة مسالك لبيان مفهوم التدبُّر، ويمكن إيضاح ذلك فيما يلي مع بعض الوقفات حولها:

المسلك الأول: اهتمَّ ببيان معاني مشتقات مادة (دبر) محاولةً منه للوصول إلى معنى (التدبُّر)، فقد جعل المبحث الأول بعنوان: دلالة مادة (التدبر) في اللغة، واستعرض مشتقات مادة (دبر) مع بيان معانيها على النحو التالي:

الذهاب والانصراف: ذكر تحته (الإدبار والدُّبور) للدلالة على هذا المعنى.

مؤخرة الشيء: ذكر تحته (الدُّبُر والدَّبْر) و(الدابر من السهام، والدابرة أي العرقوب)، ومما يُلحظ عليه أنه جعل منه قولهم (الدلو بين قابل ودابِر)، والذي أراه أنه من المعنى الأول أي الانصراف.

عواقب الأمور: ذكر تحته (التدبير) وهو النظر في عواقب الأمور.

ومما يلحظ عليه أنه فسر التدبير بعواقب الأمور، وإنما هو النظر فيها فيكون العنوان الصحيح (النظر في عواقب الأمور).

كما أنه ذكر معه (التدبُّر) لمعرفة الأمر بأخرة، وليس هذا من (النظر في عواقب الأمور).

التقاطع والهجران: ذكر تحته (التدابر) للمصارمة والهجران.

التجاوز: ذكر تحته (دَبَرَ السهم الهدف) أي جازه.

التتبع والتعقّب: ذكر تحته (دَبَرَ) أي تَبِع، والدابِر التابع، و(استدبرَ) أي تَبِعَ.

ومما يلاحظ عليه أن معاني هذه المشتقات تدل على التَبَع لا التتبُّع، وبينهما فرق.

كما أن التعقُّب أورده الباحث وفسَّره بـ (التدبُّر). ويتضح هنا أنه جمع عددًا من المشتقات تحت معنى واحد.

ريح خاصة: ذكر تحته (الدَّبور) لنوع من الريح.

ويلاحظ على ما مضى:

١- لا أظنُّ أن إيراد معاني مشتقات المادة الواحدة ستقرِّبنا من معنى المشتقِّ المراد، وهو (التدبُّر) هنا، فهو مشتقٌّ من ضمن المشتقات العديدة للمادة، ومما هو معلوم اختلاف معاني مشتقات المادة الواحدة، من جهة كونها مشتقات ثلاثية أو غيرها، وكونها مزيدة أو مجردة، ويكثر جدًّا أن يكون لكل مشتقٍّ معنى لا علاقة واضحة له بمعنى المشتقِّ الآخر.

٢- لم يكن عنوان المبحث دقيقًا، فهو ليس (دلالة مادة التدبُّر في اللغة) بل (دلالة مشتقات مادة: دبر)، وإن كان قصدَ دلالة المادة التي اشتقَّ منها (التدبُّر) فهو ليس دقيقًا كذلك، فهي ليست دلالة مادة (دبر) بل مشتقاتها، ومما يوضح قصده بعد ذكر مادة (دبر) قوله: «وهذه المادة تدل على معانٍ عدة هي».

٣- (التدبُّر) إحدى مشتقات (دبر) لا أصل المادة، ولذا فلها معنى خاصّ كما لأخواتها معاني خاصَّة، وهو ما ينبِّهنا لكيلا نحمل بقيَّة المشتقات على كلمة (التدبُّر)،

وهو ما قد يتوهَّم القارئ من صنيع الباحث، مع أنه لم يرد ذلك. ومع أنه أورد معاني بعض المشتقات لكنَّ بيان تلك المعاني لا يوضِّح معنى (التدبُّر)، بل ما يقرِّبنا من ذلك هو معرفة المعنى العامِّ لمادة (دبر)، وهو ما ذكره في الصفحة الرابعة من بحثه نقلاً عن ابن فارس في أن أغلب المشتقات تدلُّ على (آخر الشيء وخَلْفه أي خلاف قُبُله).

المسلك الثاني: أتعب الباحث نفسه للوصول إلى معنى (التدبُّر) وسلك مسلكًا آخر غير بيان معاني أخوات (التدبُّر) من المشتقات الأخرى للمادة، بل بالبحث عن الكلمات التي فُسِّرَتْ بالتدبُّر، وهي:

الحرث: استدل بتفسير الزمخشري لـ (حرثتُ القرآن) بـ: أطلت دراسته وتدبُّره.

التطفيل: وأورد تفسير الزمخشري لتطفيل الكلام وترشيحه بالتدبُّر.

وعلى طريقة الباحث كان الأولى جعل عنوان هذا التفسير (التطفيل والترشيح).

الفَلْي: ذكر تفسير الزمخشري لفَلْي الشِعْر بالتدبُّر والتفتيش في معانيه.

الاقتداح: ذكر تفسير الزمخشري لاقتداح الأمر بالتدبُّر.

التعقُّل: ذكر تفسير التعقُّل بالتدبُّر.

ويظهر من استعراض الكلمات السابقة مجيء التدبُّر في شرحها، وهو إشارة إلى التقارب بين تلك الكلمات والتدبُّر، ويظهر لي أن التقارب بين هذه الكلمات والتدبُّر أكثر من تقارب المعاني التي ذكرها الباحث في بداية بحثه مع معنى التدبُّر.

كما أنَّ تفسير الألفاظ الخمسة السابقة بالتدبُّر يأتي في أغلبها على المجاز.

المسلك الثالث: سعيًا من الباحث الكريم إلى تحديد معنى التدبُّر فقد جعل المبحث الثاني: **الفروق الدلالية بين التدبر ومرادفاته من حيث اللغة**، فأبان الفرق بين التدبُّر ومرادفاته (التفكُّر، والنظر، والتأمُّل، والتفسير، والتأويل)، وأراد بذلك

التأكيد على تميّز التدبُّر عن غيره من المرادفات، لكنَّه في بيانه التقارب بين معاني (الحرث، والتطفيل، والفلي، والاقتداح، والتعقُّل) استدلالاً بمجيء التدبُّر تفسيرًا لها –وهو ما ذكرتُه في المسلك الثاني– قد يجعلنا نظنُّ أن هذه الكلمات من المطابقات للتدبُّر، وما أظنُّ الباحث الكريم أراد هذا، وكما هو معلوم فإن من ينفي الترادف بين الألفاظ وخاصَّة في القرآن يدرك تميُّز (التدبُّر) عن غيره.

المسلك الرابع: اجتهد الباحث في بيان دلالة صيغة (تَدَبَّر) في المبحث الثالث وعنوانه: **دلالة صيغة الكلمة (التدبر)**، فأورد دلالتها الصرفية ببيان معاني صيغة وزنها (تَفَعَّل)، وذكر سبعة معانٍ جاء الفعل فيها مطاوعًا لفعل آخر، إضافة إلى مجيئها بمعنى (استفعلَ)، و(فَعَلَ)، أي أن سبعةً منها جاء الفعل معها مطاوعًا لفعل آخر، وهو ما يدلُّ على غلبة المطاوعة على معاني هذه الصيغة، لكنَّ الباحث جعل ذلك مؤشرًا مهمًّا في موضوع التدبُّر، فالمطاوعة لا تكون إلا بعد جهد ومشقَّة، حتى لكأن المطاوِع كان مستعصيًا ثم لانَ وطاوعَ، وهذا يوجب على المتدبِّر إطالة النظر، والتأني والصبر.

لكني أتساءل:

ما قيمة إيراد معاني صيغة (تَفَعّل) وأكثرها للمطاوعة، مع أن (تَدَبّر) ليس مطاوعًا لـ (دَبّرَ) كما قد نتوهَّم من كلامه؟

لعل الأقرب في بيان معنى (تَدَبّر) ما ذكره من دلالته على التكلُّف والتدرُّج، أي بذل المتدبِّر الجهد وتكلُّفه، مع التدرُّج والتتبُّع مرحلة مرحلة.

ولبيان معنى التدبُّر أوردَ دلالة صيغتها النحويَّة، وذكر أن التدبُّر جاء في أربعة مواضع في القرآن الكريم، لكنَّه وقف عند ورود الكلمة بصيغة المضارع، وألمحَ إلى أنها تدلُّ على التجدُّد والحدوث، بينما الاسم يدلُّ على السكون غالبًا، والذي يظهر لي

أنه لا عجب من مجيء المضارع في الآيات الكريمة؛ فالتدبُّر مقصود ومحضوض عليه، وهو ما جاءت عليه الآيات الثلاث، والمضارع هو المناسب هنا، وفي الرابعة جاء التدبُّر علَّةً لإنزال القرآن، وهو ما يناسب المضارع، ولا أظنُّ أن التجدُّد والحدوث مقصودان هنا، وإنَّما دلالته كدلالة أيِّ مضارع يستدعيه السياق.

وأحسب أن السياق لو استدعى مجيء الكلمة بصيغة المصدر لدلَّت على ما يدلُّ عليه المضارع في هذه الآيات الكريمة.

وقد يكون بيان معنى (تَدَبَّر) أيسر من المسلك الذي سلكه الباحث الكريم، وهو بيان المعنى اللغوي المباشر لهذه الكلمة، فالمادة الأصلية (دبر) تدلُّ في أكثر معانيها -كما ذكر ابن فارس- على آخر الشيء وخَلْفه، وأكثر مشتقاتها تدور حول هذا المعنى، لكن (التدبُّر) لكون صيغتها (التفعّل) تدلُّ على التكلُّف والاجتهاد لمعرفة آخر الشيء، ولكون القرآن في عظمته يحتاج إلى الاجتهاد في فهمه والتعمُّق فيه، لذا ورد التدبُّر مختصًّا بالقرآن الكريم. لكنِّي أحسب أن ورود التدبُّر في كلام العرب لما يحتاج إلى التدبُّر فيه دليلٌ على أن هذه الكلمة تدلُّ كغيرها على المعنى الذي تحمله دون اختصاصها بالقرآن الكريم، فالتدبُّر -كما ذكر أبو هلال العسكري- تصرّف القلب بالنظر في العواقب، وهو ما يؤكد أنَّه يمكن أن يجري على أيِّ كلام.

ومِمَّا ورد في كلام العرب عن التدبُّر قول ابن أحمر الباهلي:

لو كنتُ ذا علمٍ علمتُ وكيف ... لي بالعلم بعد تَدَبُّرِ الأمرِ

ومِمَّا ورد في المعاجم عن التدبُّر قول الجوهري: «يقال: كان ذلك الأمر فلتة، أي: فجأة، إذا لم يكن عن تردُّد ولا تدبُّر». «الصحاح» (فلت).

ويُقال: «قَذَفَ بِقَوْلِهِ؛ تَكَلَّمَ مِنْ غَيْرِ تَدَبُّرٍ ولا تَأَمُّلٍ». «المصباح المنير» (قذف).

*** يتضح مما سبق أمور أشير إليها باختصار:**

١- بذل الباحث الكريم جهدًا كبيرًا لبيان مفهوم التدبُّر برجوعه إلى معاجم اللغة والكتب المتخصِّصة.

٢- حينما يتعلَّق الأمر بدلالات الألفاظ فهو أمرٌ دقيقٌ تختلف فيه الآراء والاجتهادات، وقد يغلب أحيانًا الجانبُ النظريُّ على الواقع في اللغة، وقد ثبت أنَّ كثيرًا من الألفاظ يختلف استعمالها في اللغة عمَّا ورد عنها في المعاجم وكتب الفروق، فنجد في اللغة العديد من الألفاظ التي نصَّ بعضهم على وجود فروق بينها، وحينما ننظر في استعمال العرب لها نجدهم يغفلون تلك الفروق ويفسرون بعضها ببعض.

٣- ضرورة البعد عن التكلُّف عند بيان معاني الألفاظ، فلا يكن همُّنا البحث عن أيَّة فروق تُذكر بين الألفاظ، بينما نجد في الاستعمال اللغويِّ ما يُلغي تلك الفروق... ما أعنيه هو عدم التكلُّف في التأكيد على تلك الفروق التي ذكرها بعض العلماء مع إغفال آخرين لها، مع ضرورة العناية بما ثبت لدى اللغويِّين من فروق متَّفق عليها.

٤- لاشتقاقات المادة الواحدة معانٍ مختلفةٌ، لكنَّها قد تتفق في معنى عامٍّ، وما يفيدنا في الوصول إلى معنى إحدى المشتقات هو معرفة المعنى العامِّ مع مراعاة دلالة صيغة الكلمة المقصودة.

٥- مما يساعدنا في إيضاح الدلالة -لا القطع بها- معرفة مرادفات أو مقاربات الكلمة المرادة، إمَّا بمجيء الكلمة المرادة تفسيرًا لها (وفي بحثنا جاء التدبُّر تفسيرًا للحرث والتطفيل والفلي والاقتداح والتعقُّل)، أو بذكر مرادفات للكلمة المرادة (وفي بحثنا ورد التفكُّر والنظر والتأمُّل والتفسير والتأويل مرادفات للتدبر).

٦- عدم تحميل الكلمة المرادة ما لا تحتمل في إضافة دلالات جانبيَّة، وفي بحثنا أشير إلى تحميل الباحث الكريم دلالة المطاوعة إلى التدبُّر استدلالًا بمجيء صيغة

(تفعّل) للمطاوعة في أكثر معانيها، مع أن التدبُّر ليس للمطاوعة، إلى جانب ما قد يتوهَّمه القارئ من اختصاص (التدبُّر) بالقرآن في القرآن الكريم، وأنه لا يصلح لغيره، مع إشارة الباحث إلى دلالة مجيء فعل التدبُّر في القرآن بصيغة المضارع، وهي أنه يدل على التجدُّد والحدوث، مع أن المضارع استدعاه السياق، ولو جاء السياق محتاجًا للماضي لدلَّ الماضي على المعنى نفسه.

٧- يقيني أن الخوض في دلالة لفظٍ قرآنيٍّ لا يخلو من التخوُّف، فيجب علينا الاتِّزان في إبراز الدلالة دون تكلُّفٍ من جانب، مع مراعاة كونه لفظًا قرآنيًّا يحتاج إلى مزيد عناية، ويمكن أن يكون دليلنا نوعان من المصادر: الأول: كتب التفسير الأولى المعتمدة على أقوال علماء التفسير ذوي المعرفة باللغة، والثاني: كتب اللغة من معاجم ورسائل لغويَّة، دون الاكتفاء بمن يبالغ في إيجاد الفروق أو التقريب بين المعاني المتباعدة، وأشير إلى أن أبا هلال العسكري أُخذ عليه تكلفه في إيجاد فروق دقيقة يتعامى العرب في كلامهم عنها، وإلى ابن فارس في تكلُّفه أحيانًا في إيجاد معنى عامّ لألفاظ مختلفة تتفق في المادة اللغويَّة.

أخيرًا:

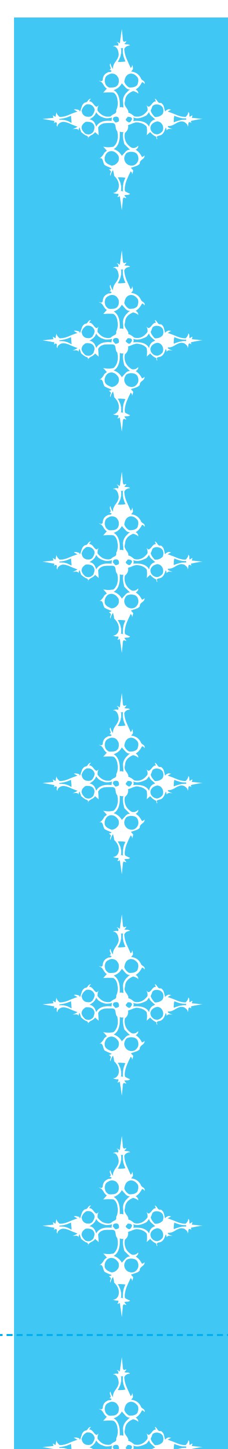
أشيد بالجهد الواضح للباحث الكريم د. عويض العطوي، مع اعتذاري لهذا الطرح المتعجِّل الذي لا يخلو من اختصار، لكني على يقين أن المطلع والسامع سيثريه بنقده وتقويمه. وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكتبه

د. عبدالعزيز بن حميد الحميد

الأستاذ المشارك بكلية اللغة العربية - جامعة الإمام محمد بن سعود

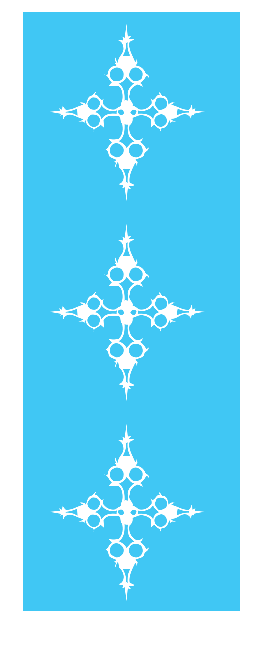
٢١/ ٥/ ١٤٢٩ هـ





مداخلات الجلسة الأولى





د. شايع الأسمري

المداخلة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم.. الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم.. مالك يوم الدين، ونصلي ونسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فشكر الله لمن سعى في هذا الملتقى، وبارك الله في هذا العمل، وجعلنا جميعًا مخلصين فيه..

أحبتي في الله..

عندي بعض الملاحظات التي وقفتُ عليها، ولعل الباحث ينتفع بها، وإن كنتُ سُبِقْتُ بها من قِبَلِ أستاذان فاضلان أحسن الله إلى الجميع:

أولًا: في صفحة (٥): ذكر الباحث بارك الله فيه كلام الزمخشري؛ ولم يؤيده بكلام اللغويين الذين سبقوه، وهذا لا يكفي، ونحن نعرف عقيدة الزمخشري، وأن الناس ينفرون مما يقول، وإن كان ما يقوله حقًّا أحيانًا، فحبذا لو يؤيده بكلام اللغويين..

ثانيًا: أؤيد ما ذكره شيخنا الأستاذ الدكتور/ سليمان العايد، أن الباحث في صفحة: (٨)، وصفحة: (٢٠) قال: (لم يرد التدبر إلا مع القرآن)، والشيخ سليمان ذكر أنه ورد في كلام اللغويين، وأقول أيضًا أنه ورد في الصحيحين عن رسولنا ﷺ

أنه قال: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت»؛ فأضاف التدبر إلى شأنه وأمره ﷺ، ولا أدري إن كان عند الباحث مقصد آخر فعليه تبيينه..

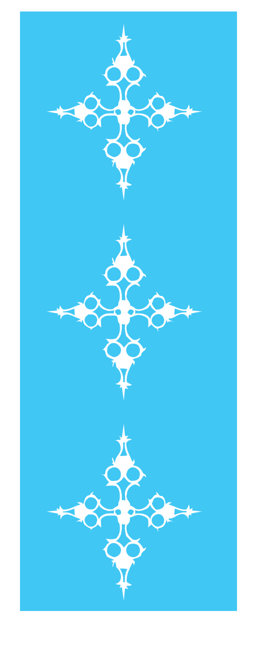
أيضًا؛ ورد في «مسند الإمام أحمد» عن ابن عباس قال: «تدبرت صلاة النبي ﷺ»، وهذا يؤيد ما قاله الشيخ جزاه الله خيرًا، وهذا من كلام الرسول ﷺ، ومن كلام ابن عباس الذي هو حبر هذه الأمة، وترجمان القرآن، وأعلم بلغة القرآن.

ثالثًا: في صفحة (٨): ذكر الباحث فوارق لغوية، ولا أدري إن كان قصده ذكر الجميع، حبذا لو قال: الفروق الدلالية بين التدبر وبعض مرادفاته، لكان أولى، من باب التعميم.

رابعًا: لم يذكر الباحث رأي بعض العلماء الذين لا يرون هذه الفوارق، فيوجد علماء آخرون منهم أبو عبيدة وغيرهم، والباحث قد أشار إلى ذلك في الحاشية، فما دام أن بعض العلماء لا يرون هذه الفوارق، فلا ينبغي أن نسكت عن رأيهم، فقد يكون في هذا ظلم..

هذا ما تيسر لي من ملاحظات..

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد.



د. أحمد الزهراني

المداخلة الثانية

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وآله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فأشكر جهود منظمي هذا اللقاء، وبارك الله فيهم، وأرجو التواصل والاستمرار.

وأعتبر هذه من المبادرات النابعة عن التفكير وعن الهم وعن الواقع المشاهد.. كما أشكر أصحاب الورقتين، والمعلقين عليها، وبارك الله جهدهم وجزاهم الله خيرًا..

وملاحظاتي هي:

أولًا: لماذا كتب في عنوان الورقة: (التدبر عند أهل اللغة وعند المفسرين)؟

فنحن نعترض على الفصل بين أهل اللغة وبين أهل التفسير؛ لأن أهل اللغة هم أهل التفسير، والأزهري رحمة الله عليه في كتابه القيم استدلالاته اللغوية يعززها كثيرًا جدًّا بالآيات القرآنية، فلذلك ما كنت أحب أن أرى هذين العنوانين في الورقة (عند أهل اللغة وعند أهل التفسير)، فإذا مر السابقون فلا نؤكد نحن الفصل بين الاثنين؛ لأن أهل اللغة يشطحون في تفصيلاتهم ويقصرون معاني القرآن على معاني اللغة فقط، مع أن معاني القرآن تشمل أكثر من ذلك..

ثانيًا: لماذا نشترط في التدبر شروط الزمخشري، فهذه قضية خطيرة، كشروط أهل

الفقه في القاضي، والتي لا تتمثل حتى في الصحابة، فيأتي الزمخشري -عفى الله عنا وعنه- فيضع شروطًا، ثم يأتي أهل المذهب السلفي لتكريس آراء الزمخشري وغيره، فهذا لا ينبغي.

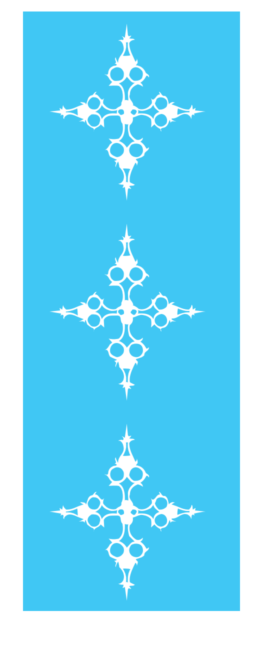
ثالثًا: هناك مصطلحات ذكرت في القرآن تركها الإخوان، وإن كنت أخص الأستاذ عويض جزاه الله خيرًا.. لعل لها مدخل في الموضوع..

فقد ذكر هو أربعة مصطلحات في ظني: (التفكر والنظر، والتأمل، والتفسير، والتأويل)؛ لكن أيضًا ورد في القرآن: (الإنصات، الاستماع، أجيبوا، تحروا)، هذه كلها تدخل في التدبر، في ظني.. لكن إذا أخذنا الكلمة لمجرد المعنى اللغوي فحسب، فسنبتعد عن هذه المصطلحات.. وفي ظني أن من ضمن أهداف هذا اللقاء أن ننقل معاني التدبر ونبينها، حتى نرجع إلى كتاب الله وله أثرٌ في قلوبنا وفي نفوسنا، وحتى تتبين لنا الأحكام.. لأن من أهداف التدبر بيان أحكام الشرع.

رابعًا: من أهداف التدبر بيان الأحكام الشرعية: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾، والآيات في القرآن على نوعين: كونية وشرعية، وهذا لا يخفى، حتى نصل إليه.

ومن المهم أن لا نحصر معاني القرآن على معنى معين، كما يفعل بعض أهل اللغة؛ لأن معاني القرآن أشمل وأكمل، ولذلك كلما نظرنا في تفسير القرآن خاصة «تفسير ابن جرير الطبري»؛ وأعظم مفسر للقرآن هو ابن جرير الطبري -رحمة الله عليه- يجد في تفسيره معاني يفوق فيها من سبقه، أو من ألف مثله، فأرجو عدم حصر معاني القرآن على معنى معين.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته،،،



د. قاسم بن أحمد القثردي

المداخلة الثالثة

التدبر أمرٌ مهمٌّ وهو الغاية من نزول القرآن، قال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص:٢٩]، والمتأمل يجد أن كلمة التدبر جاءت في طريق الاستدلال بالإيمان بالرسالة ومصدرية الوحي أنه من عند الله عز وجل، قال سبحانه: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:٨٢]، وقد جاء ذكر التدبر على تقرير البعث؛ قال سبحانه: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾ [ص:٢٨]، جاء بعدها ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ [ص:٢٩]، فمن الحقائق الاستدلال على البعث بأنه لا يمكن المساواة بين المتقين والفجار، وإلا لاختل نظام العدل، وتعالى الله عن ذلك.

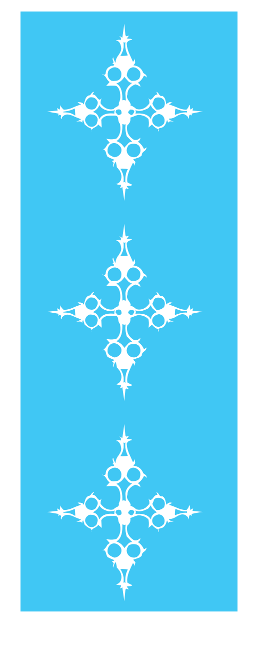
ونلاحظ كذلك أن الآية ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد:٢٤]، جاءت بعد قوله تعالى: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴾ [محمد:٢٢]، وهذا عند الحديث عن المعاصي والزجر عنها.

على كل حال أشكر الأخوين أصحاب الورقتين، وأحب أن أثني على ما ذكره سعادة الأستاذ عويض العطوي؛ من أنه لابد أن تكون المواطن التي ورد فيها ذكر

التدبر في القرآن موضع الاهتمام والدراسة، عندها سنصل بإذن الله إلى نتائج مبهرة فيما أظن.

الاستدلال الذي استدل به وهو قوله جل وعلا: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران:٧]، وددت أن أشير إلى أن أكثر أهل العلم يرون وجوب الوقوف على قوله سبحانه: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ كما أن الواو في قوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾[آل عمران:٧]، هي (واو) الاستئناف، وليست واو العطف على رأي الأكثرية، وأظن أن هذا قول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ إن لم تخني الذاكرة، وأهل اللغة يعرفون هذا جيدًا، فكوننا نستدل على أن الراسخين في العلم يعلمون المتشابه منه بهذه الآية في هذا الموطن فيه نظرٌ، نعم قد يؤتي الله الراسخين في العلم فهماً، لكن الاستدلال بهذه الآية في هذا الموطن لا أرى أنه يرد، لأن الله عز وجل سبقها بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ﴾ (قف هنا) ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران:٧].

أحببت أن أشير إلى هذا، وأشكر الجميع الداعين والمرتبين والمضيفين وأشكر الباحثين والمعقبين على ما لمسناه من هذه الفوائد.



أ.د. سعود الفنيسان

المداخلة الرابعة

مداخلتي ستكون في كلمتين: الكلمة الأولى؛ خاصة بورقة الدكتور صالح العايد، والثانية؛ خاصة بورقة الدكتور عويض العطوي.

بالنسبة لورقة الدكتور صالح العايد وفقه الله، فقد ذكر ثلاثة أصول للتدبر، وذكر منها ما يسمى بالذوق، وحاول أن يفسر لنا الذوق ويبين أنه لا يمكن أن يميزه إلا الخاصة، أشبه بخاصة الخاصة.

والحقيقة أن الذوق غير منضبط بحال من الأحوال، وهو أقرب ما يكون عند الأصوليين بما سموه (الاستحسان)؛ وهو أمرٌ ينقدح في ذهن المجتهد، ولا يستطيع التعبير عنه، فالذوق لا يجوز أن يفسر به القرآن وإن جاز في جانب الأساليب البيانية والأدبية واللغوية، فهو مدخلٌ كبيرٌ لأصحابه، وأكيد أن الدكتور صالح لا يريد ذلك مطلقًا.

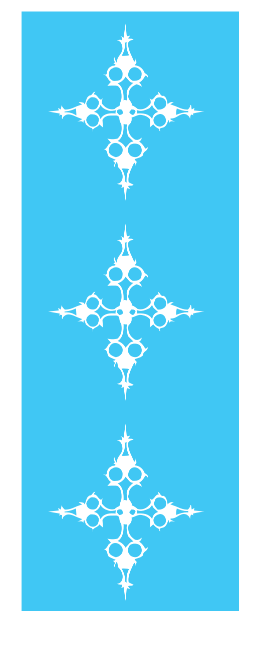
وكلمتي الثانية؛ خاصة بورقة الدكتور عويض العطوي:

وإن كنت سُبِقْتُ من قِبَلِ الإخوان الذين عقبوا على هذه النقطة فأحب التأكيد على ما قالوا، وهي قوله: (إن التدبر جاء في سياق الآيات المتلوة المسطورة)، والحقيقة

أن الآيات أعم من كونها مسطورة، فهي منظورة ومسطورة، والتدبر يكون في آيات الكون، وفي الآيات المتلوة في آن واحد، ولا يمكن أن تفسر هذه بدون تلك.

ثم أيضًا؛ فالتدبر في هذا المعنى في الآيات المسطورة على وجه الخصوص، فمادة التدبر ليست من أفعال المطاوعة بحال من الأحوال، وأشكر للجميع.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته،،،



أ. باسل الرشود

المداخلة الخامسة

الحمد لله الذي بعث في العرب الأميين رسولاً منهم، يتلو عليهم آياته ويزكيهم،

أما بعد:

فأشكر للمشايخ الباحثين والمعقبين، فبحث الدكتور عويض حفظه الله بحثٌ يفتح أبوابًا لفهم المعنى، وقد نختلف معه ونتفق، كذلك تعقيبات المعقبين الدكتور: سليمان والدكتور عبد العزيز وغيرهما، تعقيبات من خبير.

وعندي مداخلة يسيرة في التعقيب على أوراق البحث وتعقيب على التعقيب.

الأصل في اللغة اعتبار اشتقاق الأسماء بعضها من بعض على البحث المعروف في اللغة والأصول.

كما في حديث عبد الرحمن بن عوف، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «قال الله عز وجل: أنا الرحمن، وأنا خلقت الرحم، واشتققت لها من اسمي». أخرجه أحمد في «المسند».

فإذا أردنا معرفة معنى كلمة (تدبر)؛ فسبيل ذلك إما نقل أهل العربية، أو إدراك المعنى من السياق، أو تطلب المعنى من الاشتقاقات القريبة في الاشتقاق الأصغر

-على سبيل الأولوية-، أو الأوسط، أو الأكبر.

ثم يقال: التدبر مشتق من مادة (د ب ر)، ولتصاريفها عند أهل اللغة معانٍ كثيرة..، سبق الكلام عنها، ويجمعها كلام ابن فارس في قوله: «الدال والباء والراء أصل هذا الباب، وهو آخر الشيء وخلفه».

المقصود أن هذه المقدمة إذا قررناها؛ فالأنسب ألا نتجاوزها، بل لا بد من استثمارها، وذلك بأن يقال: إن معنى التدبر لا بد أن يتصل بمادة (د.ب.ر) الدالة على آخر الشيء؛ لأن (تدبر) تفعَّل من (د.ب.ر)، فهو كينونة في آخر الشيء، فلا يصح تفسيره مثلاً بأنه الوقوف عند الشيء؛ لأن الوقوف لا علاقة له بآخر الشيء، ولا بالتأمل لأنه لا علاقة له بآخر الشيء، نعم قد يكون تفسيرًا باللازم، واللوازم واسعة.

الشاهد أننا إذا أردنا معنى التدبر؛ فالأقرب أنها تتعلق بآخر الشيء، فالتدبر كينونة في آخر الشيء، فيقال: إن الأقرب أن التدبر: أن تكون في دبر الشيء حسًّا أو معنًى، ودبر الشيء إما آخره أو ما بعد آخره، وهذا الخلاف معروف أيضًا في تفسير دبر الصلاة هل هي آخر الصلاة أو ما بعد الصلاة.

فأقرب تفسير للتدبر المضاف إلى الكلام: أنه تطلُّب آخر المعنى، أو تطلب ما وراء المعنى، وبينهما تقارب.

هنا تعقيبٌ آخر على التدبر عند الصرفيين.

فالتدبر عند الصرفيين: تفعُّل من التدبر، وهذه الصيغة دالةٌ على التطلب والتكلف والتردد، وما ذكر من كونها صيغة مطاوعة تعقبها المشايخ الفضلاء، ولا شك أن هناك فروقًا بين التدبر بصيغته وبين المطاوع؛ لأن المطاوع في الحقيقة هو المفعول به الذي

صار فاعلاً كما يقول النحاة، والغالب في أفعال المطاوعة أنها أفعال لازمة لا متعدية، والتدبر فعلٌ متعدٍّ لا لازم.

والذي يظهر أن أحد أسباب الإشكال، هو أن الدكتور عويض سُبق بذلك، فإن رضيَّ الدين في شرحه لشافية ابن الحاجب جعل عامة معاني التفعل مقصودة للمطاوعة، وتكلف في تحريف وتوجيه جميع المعاني في جعلها للمطاوعة، بل خالف الماتن نفسه ابن الحاجب، وصرف عبارته عن وجهها، وهو منتقد في تفسيره للتفعل بالمطاوعة.

هناك اتجاه آخر في فهم كلمة التدبر من خلال الصيغة الصرفية، بأن لا ننظر إليها من حيث كونها صيغة مطاوعة أو غير ذلك، لأن تدبر كما سبق لم يجئ للمطاوعة، بل ننظر إلى ثلاثة أمور صرفية:

الأول: النظر إلى زيادة التضعيف في وسط الكلمة، وذلك بتضعيف العين، وهي هنا حرف الباء (تدبَّر) (تفعَّل)، زاد حرف الباء، وأصل تضعيف العين إنما هو للفعل على التكثير؛ كما يقول ابن سِيْده.

فتضعيف العين، دال على الكثرة والمبالغة، وقد قال ابن جني في «الخصائص» في بعض كلامه: باب في قوة اللفظ لقوة المعنى: هذا فصل من العربية حسن..، كقولهم: رجل جميل، ووضيء؛ فإذا أرادوا المبالغة في ذلك قالوا: رجل جُمَّال ووُضاء بضم الواو، وقال هذا أصل مطرَّد في بابه ومنقاد..

وعندي ملاحظة وهي أن بعض المشايخ لم يرتضِ التفريق بين اللغويين وبين أهل التفسير.

وفي نظري أن التدبر عند المفسرين حقيقة عرفية، والحقائق العرفية ومنها الحقائق

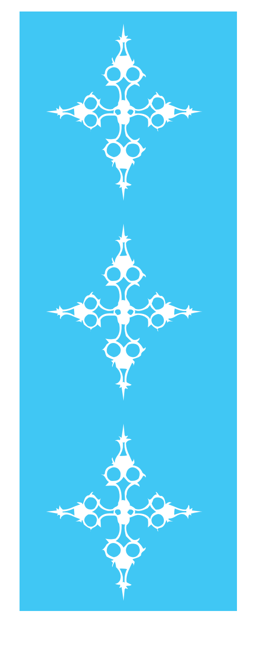
الشرعية: غالبًا أخص من الحقائق اللغوية، فالحقيقة الشرعية ليست هي الحقيقة اللغوية مطلقًا، وليست ناقلة للكلمة عن موضوعها اللغوي، فهي حقائق لغوية لكن مزيدة بقيود وشروط ومحال مخصصة، فمعنى التدبر عند المفسرين أخص منه في اللغة، وهذه الخصوصية لها جهات:

منها: أن التدبر في الحقيقة العرفية عند المفسرين المراد به تدبر القرآن، وفي الحقيقة اللغوية يعم تدبر القرآن، بل يعم تدبر الكلام وغيره.

الأمر الثاني: أن التدبر في الحقيقة الشرعية لا يكون إلا إذا قصد به الانتفاع، والتدبر في غير الحقيقة الشرعية قد يشمل ما لم يرد به ذلك، لأن الحقائق الشرعية يعني يراد بها الوجود الحكمي لا الوجود العيني أو الصوري، ولذلك تنفى الأشياء شرعًا ولو وجدت حقيقتها العينية، كقوله ﷺ: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب» عند البخاري ومسلم من حديث عبادة بن الصامت.

وعليه؛ فقصد الانتفاع شرط في التدبر، وإن لم يكن ركنًا فيه، والركن والشرط بينهما فرق كما هو معروف، وإن كان بعضهم يدخل هذا في هذا، هذا ما أردت بيانه، والله أعلم.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.



د. خالد بن عثمان السبت

المداخلة السادسة

بعد حمد الله تعالى، ثم شكر الإخوان، أذكر بعض التعقيبات والتي تتعلق ببعض الأوراق التي قدمت:

أولًا: فما يتعلق بما ذكر من أن الآيات التي جاءت في التدبر أنها جميعًا قد خوطب بها الكفار؛ فأقول: إن النظر في بعض هذه الآيات قد يدل على خلاف ذلك.

ثانيًا: وهو ما ذكره الدكتور عويض العطوي حفظه الله في الصفحة (٢) فيما يتعلق بمعاني التدبر في اللغة؛ فأقول: قد يدلنا التأمل والنظر إلى أن ذلك يرجع إلى شيءٍ واحد، ولعلي أذكر هذا إن شاء الله في الورقة التي تكون بعد العشاء.

ثالثًا: في المعاني التي ذكرها فيما يتصل بالتأويل، حيث ذكر له معنًى في الصفحة (١٢) وهو المعنى الذي عند المتأخرين من المتكلمين، وأول ما ظهر ذلك كما هو معلوم على يد المعتزلة من طوائف أهل البدع، وجميعًا نعلم ما حصل من جرَّاء ذلك، وكما قال الحافظ ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأن «المجاز حمار التأويل»؛ فالتأويل ركب هذه المطية (المجاز)، وأولت صفات، ثم جاءت طوائف الباطنية وأولوا كما هو معلوم قضايا

تتعلق باليوم الآخر وحقائق شرعية؛ فالمقصود أن مثل هذه المعاني لو أنها لم تذكر أو لو نبه عليها على الأقل لكان أحسن، فإنه لا عبرة بمثل هذه المصلحات الحادثة، حيث لم ترد لا في لغة القرآن ولا في السنة، ولا في كلام السلف الصالح رضي الله تعالى عنهم.

رابعًا: كذلك فيما ذكره الدكتور عويض حفظه الله في الصفحة (١٤): مما يتصل بالفروقات بين التفسير والتأويل، فكما هو معلوم أن الفروقات التي يذكرونها كثيرة، حتى إن بعضهم لربما ألف مصنفًا خاصًّا في هذا، لكن أظن أن المقام هو مقام الاختيار والتحرير، وأن ينتقى الراجح من هذه الفروقات، فإن المترجح والمختار منها يمكن أن يكون أحد هذه الأقوال.

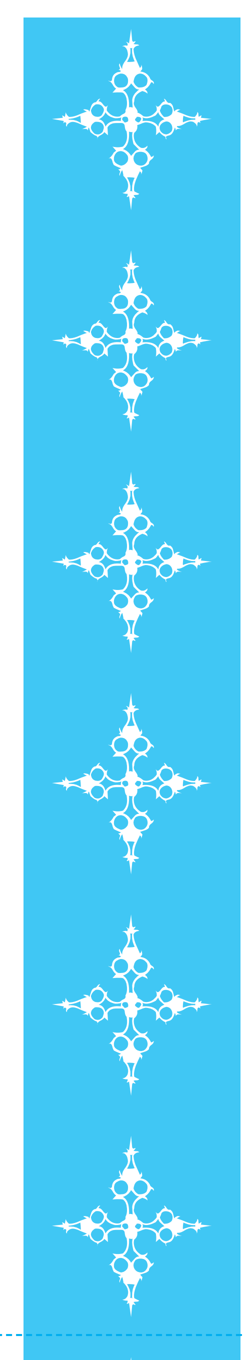
سادسًا: فيما يتعلق بأركان التدبر التي ذكرها الدكتور صالح العايد حفظه الله يمكن أن ألخص التعليق؛ بأن مسألة التدبر هي مسألة نسبية، ولهذا خاطب الله عز وجل الكفار وغيرهم بقضية التدبر وطالبهم به، بل خاطب عموم الأمة بذلك، فإن هؤلاء يتفاوتون غاية التفاوت، ولهذا فإنه يحصل لبعضهم من استخراج المعاني، كُلٌّ بحسب حاله وبحسب ما أعطاه الله عز وجل من الفهم والعلم وأدوات الاستنباط، والقدرة على الغوص في المعاني وما إلى ذلك، إذًا فهي مسألة نسبية.

سابعًا وأخيرًا: وهي التي ذكرها الدكتور أحمد الزهراني حفظه الله فيما يتعلق بمسألة لماذا التفريق بين أهل اللغة وبين أهل التفسير؟ فسواءٌ هذا أو حتى أهل التفسير بالذات أهل اللغة والبلاغة منهم حين يغوصون جدًّا في استخراج أشياء أحيانًا لربما تكون من قبيل التكلف، فهنا نقع في المحظور والقول على الله بلا علم، ولذلك فهذا الذي حمل الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى إنكار استخراج اللطائف والدقائق، والاشتغال بها،

ورأى أن ذلك يفضي بالإنسان إلى القول على الله عز وجل بلا علم من جهة، وتضييع المعنى الأصلي الذي جاءت الآيات مقررةً له من جهة أخرى، والتوسط في هذا الباب أن تستخرج المعاني التي لها وجه من غير تكلف، وإلا فنحن أحيانًا نقرأ في الكتب بالذات التي تُعنى بالجانب البلاغي بعض الجوانب والاستنباطات والاستخراجات المتكلفة، ولذلك أذكر على سبيل الطرفة أن أحد الشعراء ألقى قصيدة، فجاء أحد الأدباء يشرح هذه القصيدة ويقول: عبر بكذا، وقال كذا، وقدم كذا، وأخر كذا، وكذا وكذا؛ فابن هذا الشاعر كان حاضرًا، فذهب إلى أبيه بعد أن انبهر وسمع هذه التدقيقات التي ينكرها الشاطبي، فقال لأبيه: يا أبت كل هذه المعاني حين قلت الشعر كانت مقصودة؟ فقال: لا يا بني!

بالطبع كلام الله عز وجل كل كلمة فيه مقصودة، لكن أنا أسوق القصة وأريد فقط التنبيه على قضية التكلف، ولذلك الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: إن القرآن جاء بطريقة العرب فهم يلقون الكلام على عواهنه، وكانوا ينكرون الشعر الذي يكون قد هُيِّئَ وأُعِدَّ، ولهذا فالأصمعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يستحسن شعر طرفة لأنه يرى أنه من قبيل المصنوع، يعني أنه كان يعده ويهيأه ويصححه قبل ذلك، وإنما يعجبهم الذي يلقى في المناسبة.

وأشكركم في الأخير على هذه الفوائد التي أتحفتمونا بها.





الجلسة الثانية :

التدبُّر عند المفسرين ١

الورقة الأولى:

مفهوم تدبر القرآن

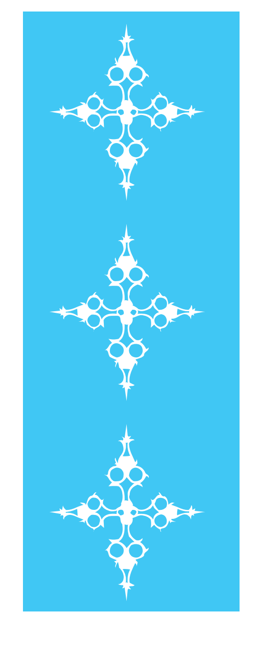
د. مساعد بن سليمان الطيار

الورقة الثانية:

تحرير معنى التدبُّر عند المفسرين

د. فهد بن مبارك الوهبي





الورقة الأولى:

د. مساعيد بن سليمان الطيار

مفهوم تدبر القرآن

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه إلى يوم الدين، أما بعد:

فإن أنفس ما تُصرف فيه الأوقات كتابُ الله تعالى، وإني -إذ أشارك في هذا الملتقى بهذه الورقة- لأرجو من الله التوفيق والسداد في القول والعمل، وأقول -مستعينًا بالله-:

* التدبر في اللغة:

تدلُّ مادة (دَبَرَ) على آخرِ الشَّيءِ.

والتَّدبُّرُ: النَّظرُ في أدبارِ الشَّيءِ، والتفكيرُ في عاقبتِهِ.

وقد استُعملَ في كلِّ تأمُّلٍ يقعُ من الإنسانِ في حقيقةِ الشَّيءِ أو أجزائه أو سوابقِهِ أو لواحقِهِ أو أعقابِهِ[1].

وجاءَ على صيغةِ التَّفعُّلِ، ليدلَّ على تكلُّفِ الفعلِ، وحصولِه بعد جُهْدٍ، والتَّدبُّرُ: حصولِ النَّظرِ في الأمرِ المُتَدَبَّرِ مرَّةً بعد مرَّةٍ.

(١) ينظر: روح المعاني (٥: ٩٢).

* آيات التدبر في القرآن:

وقد جاءَ الأمرُ بتدبُّرِ القرآنِ في أربعةِ مواضعَ من القرآنِ، والعجيبُ أنَّ آيتَين نزلَتْ في سياقِ المنافقين، وهما قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢]، وقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤].

وجاءت آيتانِ في سياقِ الكفَّارِ، وهما قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وقوله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص: ٢٩].

وتحتملُ آيةُ سورةِ (ص) أن يكون المؤمنونَ هم الموجه لهم بالخطاب بالأمر بالتَّدبُّرِ، ويشهدُ لذلك قراءةُ مَن قرأ: ﴿ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ بالتَّاء[1]، بمعنى: لتتدبَّره أنت يا محمد واتباعُك[2].

وليس نزولُ الآيةِ في سياق غيرِ المؤمنينَ يعني أنَّ المؤمنينَ لا يُطلبُ منهم التَّدبُّرُ، بل هم مأمورونَ به، وداخلونَ في الخطابِ من باب أولى؛ لأنَّهم أهلُ الانتفاع بتدبُّرِ القرآنِ، وإنَّما المرادُ هنا بيانُ مَن نزلت بشأنه الآياتُ، دون بيان صحَّةِ دخولِ المؤمنينَ في الخطابِ، والله أعلمُ.

والآياتُ الآمرةُ بالتَّدبُّرِ منها ما جاءَ على شيءٍ مخصوصٍ؛ كقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النِّساء: ٨٢].

---

(١) هي قراءة أبي جعفر المدني من العشرة، وقد نُسِبَتْ إلى عاصم، ينظر: تفسير الطبري، ط: الحلبي (٢٣: ١٥٣)، والمحرر الوجيز، ط: قطر (١٢: ٤٥٢ ٤٥٣)، والنَّشر في القراءات العشر (٢: ٣٦١).

(٢) ينظر: تفسير الطبري، ط: الحلبي (٢٣: ١٥٣).

ومنها ما جاءَ مطلَقًا بالتَّدبُّرِ العامِّ؛ كقوله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [ص: ٢٩].

وتوجيه التدبر للمنافقين والكافرين يدلُّ على أن التدبر المطلوب منهم مما يمكنهم فعله، لكنه ليس شاملاً لكل ما يدخل في مفهوم التدبر.

فقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴾ [النِّساء: ٨٢]، يدلُّ على أن المنافقين لو أعملوا ذهنهم في تدبر القرآن لوصلوا إلى نتيجة أنه من عند الله، ولزال عنهم ذلك القلق والاضطراب الناتج من النفاق.

وقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤] يدلُّ على أن سبب عدم حصول التدبر هو تلك الأقفال التي في القلب.

وأما قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ ﴾؛ فإن السياق يدل على أن الكفار لم يُعطوا أنفسهم فرصة النظر في القرآن لتبيُّن حقيقته، قال تعالى: ﴿ قَدۡ كَانَتۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ تَنكِصُونَ ٦٦ مُسۡتَكۡبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرٗا تَهۡجُرُونَ ٦٧ أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ أَمۡ جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون: ٦٦-٦٨].

وأما قوله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ [ص: ٢٩].

وفي القراءة الأخرى (لتدبروا)؛ فإن الخطاب للكافرين بدلالة أن السورة في أولها وآخرها تناقش الكفار ودعواهم في القرآن والبعث، ففي أول السورة قسم بالقرآن، قال تعالى: ﴿ صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ﴾ [ص:١]، وقال: ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۚ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴾ [ص:٨].

ثم جاءت هذه الآيات ضمن ثلاث آيات فاصلة بين خبر داود عليه السلام، وخبر

ابنه سليمان عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٧-٢٩].

ثم توالت قصص الأنبياء، ثم خبر الجنة وأهلها، وخبر النار وتخاصم أهلها، ثم عاد الحديث عن القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [ص:٦٧-٧٠]، ثم ذكر عداوة إبليس لأبينا آدم وذريته، ثم خُتمت السورة بذكر القرآن، فقال: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾ [ص:٨٦-٨٨].

وأيًّا ما كان الأمر، فإن توجيه الأمر بالتدبر لهؤلاء القوم يدل على أنهم يمكنهم التدبر، وأن هذا القرآن -من حيث الجملة- معلوم المعنى عندهم.

* مستويات التدبر المرتبطة بالمعنى:

معاني القرآن تنقسم إلى قسمين:

الأول: معاني ظاهرة يدركها كل قارئ للقرآن؛ لذا فهي لا تحتاج إلى تبيين.

الثاني: معاني غير ظاهرة لبعض القارئين، وهم يحتاجون فيها إلى تبيين.

ويمكن أن تُجعل للتدبر مستويات مرتبطة بإدراك المعنى:

المستوى الأول: أن يكونَ التَّدبُّرُ لمعرفةِ المعنى المرادِ بالآيةِ، ويقع هذا في حالين:

الأولى: حال خفاء المعنى.

الثانية: حال اختلاف المفسرين في المعنى، والرغبة في الوصول إلى الرأي الأولى

أو الرأي الصواب فيه.

وفي هذين الحالين يكون المعنى -قبل معرفته- من المتشابه النسبي[١]، الذي يقع فيه الاشتباه عند الشخص بسبب إحدى الحالتين السابقتين، فإذا عرف المعنى زال هذا التشابه النسبي، وصار من المعلوم.

وأمثلة هذا القسمِ كثيرةٌ، منها ما يقعُ من بحثِ آيةٍ مشكلةٍ، ومنها نقاشاتُ المفسِّرين التي يظهرُ فيها ترجيحُهم لوجهٍ من وجوهِ التَّفسيرِ، وغيرَها مما يحتاجُ إلى اختيارٍ من أجلِ بيانِ الراجح من الأقوال.

وإذا تأملت طريقة الوصول إلى المعنى في هذين الحالين وجدتها تحتاج إلى إعمال العقل والذهن، وهذا مما يشترك فيه التفسير والتدبر.

المستوى الثَّاني: أن تكونَ الآيةُ ظاهرةَ المعنى لا تحتاجُ إلى تفسيرٍ، أو تكونَ قد تبيَّن المعنى الصحيحُ لها للمتدبِّرِ -أي: بعد تفسيرِها- فيتدبَّرُ ما تحتويه من وجوه الاستنباطاتِ والفوائد، وهو تدبُّرٌ لاستخراجِ الحِكَمِ والأحكامِ والآدابِ وغيرِها مما يستنبطُه المستنبطُ، وهذا يعني أنَّ الاستنباطاتِ نتيجةٌ للتَّدبُّرِ.

تتمة وتنبيه ومثال:

١- إن الأصل في التدبر أن يقع في المعلوم، أما ما استأثر الله بعلمه -وهو المتشابه الكلي[٢]- فلا يقع فيه تدبر لاستنباط معنى أو فائدة علمية؛ لأن المتشابه الكلي لا يخرج عن نوعين:

---

(١) المتشابه النسبي: ما يخفى على قوم، ويعلمه آخرون، وكل ما خفي عليك فإنه بالنسبة لك متشابه نسبي، وإذا علمته كان مُحكمًا؛ أي: معلومًا.

(٢) المتشابه الكلي يقابل المتشابه النسبي، وهو: ما يخفى على كل الناس، فهم سواءٌ فيه، وهو يشتمل على أمرين: حقائق المغيبات (أي: كيفياتها)، وأوقات وقوع هذه المغيبات.

الأول: كيفيات المغيبات، وهذه لا يقع فيها تدبر إلا بأن يؤمن بها المسلم كما جاءت عن الله تعالى.

الثاني: وقت وقوع المغيبات، وهذه لا يقع فيها التدبر كذلك؛ لأن علم ذلك مختص بالله تعالى.

وهذان النوعان لا يقع فيهما التدبر إلا من جهة بيان الحكمة فيهما، أما من جهة الكيفية والوقت فلا يقع تدبر.

وليس يعني هذا أن أمور الاعتقاد لا يقع فيها تدبر، بل ما كان منها في مجال المعلوم، فإنه يقع فيها التدبر كسائر آيات القرآن، سوى ما ذكرته من كيفيات المغيبات وأوقاتها التي قد يقع التدبر فيها في النظر في بعض حِكَم الله فيها.

ومثال ذلك: قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ [النمل: ٨٢]؛ فالدابة من حيث المعنى معلومة، لكنها من حيث كيفيتها ووقت خروجها مجهولة، وما يمكن أن يقع فيه التدبر هو المعنى، والحكمة من خروج هذه الدابة، أما كيفيتها ووقت خروجها؛ فليس مناطًا للتدبر.

٢- إن إدراك معاني القرآن في مقام الممكن، وليست في مقام المحال، لذا لا يوجد في القرآن كلمة لا يُعرف لها معنى، فالتدبر -إذا لم يكن لمعرفة المعاني- يكون بعد معرفة المعاني وإدراكها، وقد نبَّه الطبري (ت: ٣١٠) على هذا المعنى؛ فقال: «وفي حَثِّ الله عز وجل عباده على الاعتبار بما في آي القرآن من المواعظ والبينات بقوله جل ذكره لنبيه ﷺ: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص:٢٩]، وقوله: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الزمر:٢٧-٢٨]، وما أشبه ذلك من آي

القرآن، التي أمر الله عبادَه وحثهم فيها على الاعتبار بأمثال آي القرآن، والاتِّعاظ بمواعظه- ما يدلُّ على أنَّ عليهم معرفةَ تأويل ما لم يُحجب عنهم تأويله من آيه؛ لأنه محالٌ أن يُقال لمن لا يفهمُ ما يُقال له ولا يعقِل تأويلَه: «اعتبرْ بما لا فَهْم لك به ولا معرفةَ من القِيل والبيان والكلام»، إلا على معنى الأمر بأن يفهمَه ويفقَهَه، ثم يتدبَّره ويعتبرَ به.

فأما قبلَ ذلك؛ فمستحيلٌ أمرُه بتدبره وهو بمعناه جاهل. كما محالٌ أن يقال لبعض أصناف الأمم الذين لا يعقلون كلامَ العرب ولا يفهمونه، لو أنشد قصيدة شعرٍ من أشعار بعض العرب ذاتَ أمثالٍ ومواعظ وحِكم: «اعتبر بما فيها من الأمثال، وادَّكر بما فيها من المواعظ»، إلا بمعنى الأمر لها بفهم كلامِ العرب ومعرفتِه، ثم الاعتبار بما نبهها عليه ما فيها من الحكم.

فأما وهي جاهلة بمعاني ما فيها من الكلام والمنطق؛ فمحالٌ أمرُها بما دلَّت عليه معاني ما حوته من الأمثال والعِبَر، بل سواء أمرها بذلك وأمر بعض البهائم به، إلا بعدَ العلم بمعاني المنطق والبيان الذي فيها.

فكذلك ما في آي كتاب الله من العبر والحِكم والأمثال والمواعظ، لا يجوز أن يقال: «اعتبرْ بها» إلا لمن كان بمعاني بيانه عالمًا، وبكلام العرب عارفًا؛ وإلا بمعنى الأمر -لمن كان بذلك منه جاهلاً- أَنْ يعلم معاني كلام العرب، ثم يتدبَّره بعدُ، ويتعظ بحِكَمِه وصُنوف عِبَرِه.

فإِذْ كان ذلك كذلك -وكان الله جل ثناؤه قد أمر عباده بتدبُّره وحثهم على الاعتبار بأمثاله-؛ كان معلومًا أنه لم يأمر بذلك مَن كان بما يدُلُّ عليه آيُه جاهلاً.

وإِذْ لم يجز أن يأمرهم بذلك إلا وهُمْ بما يدلهم عليه عالمون؛ صحَّ أنهم -تأويل ما

لم يُحجَبْ عنهم علمه من آيه الذي استأثر الله بعلمه منه دون خلقه، الذي قد قدَّمنا صفتَه آنفًا- عارفون.

وإِذْ صَحَّ ذلك؛ فَسَدَ قول مَن أنكر تفسيرَ المفسرين -من كتاب الله وتنزيلِه- ما لم يحجب عن خلقه تأويله»[1].

٣- مثال على التدبر:

ومن أمثلةِ هذا المستوى من التَّدبُّرِ، ما ذكره ابن القيِّم (ت: ٧٥١) في كتابه «زاد المهاجر» من تفسير قصَّةِ إبراهيم عليه السلام في سورة الذَّارياتِ، قال: «فصل في: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النساء: ٨٢، محمد: ٢٤].

فإن قلتَ: إنَّك قد أشَرْتَ إلى مقام عظيم، فافتحْ لي بابَه واكشفْ لي حجابَه، وكيف تَدَبُّرُ القرآنِ وتَفَهُّمُهُ والإشرافُ على عجائبه وكنوزه؟! وهذه تفاسيرُ الأئمَّةِ بأيدينا، فهل في البيانِ غيرُ ما ذكروه؟

قلتُ: سأضرب لك أمثالاً تَحْتَذي عليها، وتجعلها إمَامًا لك في هذا المقصدِ.

قال الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الذاريات: ٢٤-٣٠].

فعهدي بكَ إذا قرأتَ هذه الآية، وتطلَّعتَ إلى معناها، وتدبَّرتها، فإنَّما تَطْلُعُ منها على أنَّ الملائكةَ أَتَوا إبراهيمَ في صورةِ الأضيافِ يأكلونَ ويشربون، وبشَّرُوه بغلامٍ

(١) تفسير الطبري.

عليم، وإنَّما امرأتُه عجبت من ذلك فأخبرتها الملائكة: أن اللهَ قال ذلك، ولم يتجاوزْ تَدَبُّرُكَ غير ذلك.

فاسمعِ الآن بعضَ ما في هذه الآيات من أنواعِ الأسرارِ، وكم قد تضمَّنت من الثَّنَاءِ على إبراهيم.

وكيف جمعتِ الضِّيافةَ وحقوقَها، وما تضمَّنتْ منَ الرَّدِّ على أهلِ الباطلِ من الفلاسفةِ والمعطِّلةِ.

وكيف تضمَّنتْ علماً عظيماً من أعلام النُّبوَّةِ.

وكيف تضمَّنتْ جميعَ صفاتِ الكمالِ التي رَدَّهَا إلى العلم والحكمةِ.

وكيف أشارت إلى دليلِ إمكانِ المعادِ بألطفِ إشارة وأوضحِها، ثُمَّ أفصحتْ وقوعَه.

وكيف تضمَّنتْ الإخبار عن عدلِ الرَّبِّ وانتقامه من الأمم المكذِّبةِ، وتضمَّنتْ ذِكْرَ الإسلام والإيمانِ والفرقِ بينهما، وتضمَّنتْ بقاءَ آياتِ الرَّبِّ الدَّالَّةِ على توحيده وصدقِ رُسُلِهِ وعلى اليوم الآخرِ، وتضمَّنتْ أنَّه لا ينتفعُ بهذا كله إلاَّ من في قلبه خوفٌ من عذابِ الآخرةِ، وهم المؤمنون بها، وأمَّا من لا يخافُ الآخرةِ ولا يؤمنُ بها، فلا ينتفعُ بتلك الآياتِ؛ فاسمع الآن بعض تفاصيل هذه الجملةِ...»[1].

ثُمَّ بدأ يسردُ فوائدَ واستنباطاتٍ من هذه الآيات، ولولا طولُها، لذكرتُها.

* مفهوم التدبر:

من خلال ما سبق طرحه يمكن القول بأن التدبر هو: إعمال الذهن بالنظر في آيات القرآن؛ للوصول إلى معانيها، ثم النظر إلى ما فيها من الإحكام والمعارف

---

(١) الرسالة التبوكية، لابن القيِّم (ص: ٦٣-٦٨).

والعلوم والعمل.

فإعمال الذهن بالنظر في آيات القرآن، وهو معنى التدبر.

وهذا الإعمال لغايات لا يوصل إليها إلا بالتدبر، وهي:

١- الوصول إلى المعنى إذا كان يحتاج إلى تطلُّبٍ للوصول إليه.

٢- الوصول إلى الإحكام والإتقان الذي في القرآن من جميع جوانبه؛ الذي يدل على أنه لو كان من عند غير الله لما كان فيه هذا الإحكام، بل لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا.

٣- الوصول إلى ما فيه من المعارف والعلوم، وهي جملة المسائل والمعلومات المستنبطة من القرآن.

٤- الوصول إلى العمل، إما بتأثر القلب والجوارح، وإما بعمل الأركان بالامتثال والتطبيق.

*** علاقة التدبر ببعض الأحوال المرتبطة بالتعامل مع القرآن:**

إن المتأمل في أحوال تعامل المسلم مع القرآن يمكنه أن يقسمها إلى خمسة أقسام:

الأول: حال القراءة:

والقراءة المجردة حركة لسانية سواءً أكانت من المحفوظ أو من المكتوب، وقد تكون تذكُّرِية إذا كانت القراءة عن ظهر قلب، وقد تكون بصرية فقط إذا كانت تعتمد على النظر في المكتوب دون نطق اللسان.

والقراءة -بأنواعها هذه- هي الوسيلة الأولى للتدبر؛ لأن التدبر يكون من خلال المتلوِّ المقروء من الصدور، أو من خلال المكتوب من الآيات في السطور.

الثاني: حال إرادة فهم المعنى (التفسير):

التفسير: بيان معاني القرآن، فإذا بانت له هذه المعاني، فإنه قد أتمَّ مرحلة فهم المعنى.

وفي هذه الحال يُعمل المسلم عقله في تفهم المعاني، لذا فهي مرحلة عقلية يحتاج فيها المسلم إلى اجتهاد في بعض المواطن للوصول إلى المعنى المراد؛ إما بسبب خفاء المعنى، وإما بسبب اختلاف المفسرين، فيحتاج في كلا الحالين إلى إعمال العقل للوصول إلى المعنى.

وهذه الحال تشترك مع التدبر في كونها عملية عقلية، بل هي أحد مجالات التدبر؛ لأنه -كما سبق- لا يمكن أن يتدبر ما لا يفهم معناه، واجتهاده في تفهُّم المعنى نوع من التدبر.

أما ما يدركه -مما لا يخفى عليه-؛ فذلك مما لا يحتاج إلى إعمال العقل للوصول إلى المعنى؛ لأن المعنى قد حصل وانتهى؛ لذا لا يدخل ما كان بهذه الصورة في التدبر؛ لعدم حصول التكلف في الوصول إلى المعنى. (تربط بالسابق في الكيفيات والوقت).

الثالث: حال الاستنباط:

تدورُ مادَّةُ (نَبَطَ) على أصلٍ واحدٍ، وهو استخراجُ شيءٍ[1]، و(الألف والسين والتاء) في (استنبط) تدلُّ على تطلُّبِ الشيءِ لأجلِ حصولِه، وكأنَّ فيها معنى التَّكلُّفِ في إعمالِ العقلِ الذي يحتاجُه المستنبطُ حال الاستنباطِ، واللهُ أعلمُ.

قال الطَّبَريُّ (ت: ٣١٠): «وكلُّ مستخرجٍ شيئًا كان مستترًا عن العيون أو

(١) ينظر: مقاييس اللُّغة (٥: ٣٨١)، والعباب الزاخر واللباب الفاخر، للصغاني، تحقيق: محمد حسين آل ياسين (حرف الطاء: ٢٠٨).

عن معارف القلوبِ؛ فهو له مستنبطٌ، يقال: استنبطتُ الرَّكِيَّةَ: إذا استخرجتَ ماءها»[1].

وقال الصَّغانيُّ: «وكلُّ شيءٍ أظهرته بعد خفائه: فقد انبطتَه واستنبطتَه. وقوله تعالى: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡ﴾ [النساء: ٨٣]؛ أي: يستخرجونه.

ويقال: استنبط الفقيه: إذا استخرج الفِقهَ الباطنَ بفَهْمِه واجتهادِه»[2].

الاستنباط بالاصطلاح:

والمراد بالاستنباط في الاصطلاح: استخراج الأحكام الخفية والفوائد العلمية من النصوص الشرعية اعتمادًا على القريحة الذهنية.

والاستنباط عملية عقلية، تعتمد على قدرة المجتهد في استخراج الفوائد المترتبة على النص الشرعي.

الأصل في الاستنباط أن يكون لما خَفِيَ ودقَّ ولطُف؛ فاحتاج إخراجه وبيانه إلى جهد وتكلُّف لا يستطيعه أي واحد من الناس، وقد أشار قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [النساء: ٨٣]، ولا يكون الاستنباط إلا بتدبر المعنى المستنبَط منه، للوصول إلى جملة من الاستنباطات، لذا فإن الاستنباط لا يكون إلا بعد فهم المعنى (التفسير)، وهذا يعني أن المستنبط يمرُّ بثلاث مراحل: (فهم المعنى)، ثم (تدبر المعنى)، ثم حصول أثر من آثار هذا التدبر، وهو (الاستنباط).

---

(١) تفسير الطبري، تحقيق: شاكر (٨: ٥٧١).

(٢) العباب الزاخر واللباب الفاخر، للصغاني، تحقيق: محمد حسين آل ياسين (حرف الطاء: ٢٠٧).

وقد يكون هذا الاستنباط قريب المأخذ، وقد يكون بعيد المأخذ لا يدركه كثير من المتدبرين، وهذا الاستنباط الدقيق -الذي لا يدركه كثيرون- هو مما يتميز به العلماء الراسخون في العلم.

الرابع: حال التأثر:

إن التأثر بالقرآن حالة وجدانية تُحدث للمسلم آنذاك رقة وخشوعًا ولينًا ودموعًا، وقد أشار القرآن إليها في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴾ [الزمر: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨]، ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [المائدة: ٨٣]، وليس التأثر بالقرآن هو التدبر، بل قد يكون أثرًا من آثار التدبر، وقد يكون أثرًا لحالة وجدانية يعيشها المسلم، فتتحرك مشاعره الفيَّاضة، فينفعل مع القرآن بحواسِّه، ويتأثر بمواعظه من ترغيب وترهيب، وقد يكون لأسباب أخرى.

الخامس: حال العمل بالقرآن:

العمل بالقرآن هو تأوُّله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وهذه المرحلة هي الغاية العظمى من إنزال القرآن الكريم، وهي التي تمثَّلها الرسول ﷺ في حياته، إذ لما سئلت عائشة عن خلقه ﷺ أجابت بإجابةٍ بليغة، فقد روى الإمام أحمد بسنده عن سعد بن هشام بن عامر قال: «أتيت عائشة فقلت: يا أم المؤمنين، أخبريني بخلق رسول الله ﷺ؟

قالت: كان خلقه القرآن، أما تقرأ القرآن قول الله عز وجل: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم:٤].

قلت: فإني أريد أن أتبتل. قالت: لا تفعل، أما تقرأ: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب: ٢١]؛ فقد تزوج رسول الله ﷺ، وقد وُلِدَ له».

وذكرت عائشة من تمثُّل رسول الله ﷺ للقرآن وتأوله له ما رواه البخاري بسنده عنها، قالت: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي» يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ».

والعمل بالقرآن أداءٌ حركيٌّ، ولا يكون إلا بفهم المعنى، وقد يكون من آثار التدبر، وتخلُّفه يدلُّ على نقصٍ في الإيمان، إذ التمثُّل للقرآن وتأوُّله -كما هو حال النبي ﷺ- هو الكمال الإيماني.

* الخلاصة:

إن (التدبر) عملية عقلية، ويشترك معه -في كونه عملية عقلية- (التفسير) و(الاستنباط)، وقد ينشأ عن التدبر (التأثر)، وهو أمر وجداني، كما قد ينشأ عنه -أيضًا- العمل، وهو أمر حركي، يقوم على تنفيذ الأمر واجتناب النهي.

وإذا أمكن التمييز بين هذه المراحل التي لها علاقة بالتدبر، فإنه يمكن -كما سبق في مفهوم التدبر- القول بأن التدبر هو عموم النظر والتأمل في القرآن، سواء أنتج فائدة علمية أو لم يُنتج ذلك؛ لأن مجرد تقليب النظر في الآيات تدبر، وإن لم ينتج عنه آنذاك فائدة علمية معينة.

أما ما ينتج من التدبر؛ فإنه يقع في المجالات الآتية:

١- النظر في المعنى حال الخفاء، وهذا متعلق بالتفسير، أما إذا كان المعنى فيه ظهور؛ فإنه لا علاقة له بالتدبر، لعدم الحاجة لإعمال النظر وتقليب الفكر في الوصول إلى المعنى.

٢- الترجيح بين الأقوال المختلفة في فهم المعنى؛ لأنه يحتاج إلى إعمال النظر وتقليب الفكر للوصول إلى القول الأولى أو القول الصواب، وهذا متعلق بالتفسير أيضًا.

٣- الاستنباط، وهذا لا يكون إلا بالتدبر، والنظر في خفايا المعاني، ويمكن أن يقال: كل استنباط تدبُّرٌ، وليس كل تدبر استنباطًا.

وأنواع المستنبطات كثيرة؛ فقد تكون حكمًا فقهيًّا، وقد تكون آدابًا وسلوكًا تزكية، وقد تكون فوائد علمية من لغوية وبلاغية وأصولية وعقدية.

٤- تنزيل الآيات على الحوادث والأحوال الحياتية، وهذا ميدان واسع من ميادين إعمال التدبر، وقد يكون بإدخال الحادثة في معنى آية من الآيات، وقد يكون من باب الاستشهاد والتمثيل.

ولا يخفى -على ما سبق بيانه من نوع التدبر المطلوب من غير المؤمنين- أن التدبر الصحيح لو حصل من المنافقين ومن الكفار لوصلوا به إلى أنَّ هذا القرآن حقٌّ لا ريب فيه، وأن الله أنزله على نبيه محمد ﷺ، ومَن وصل إلى هذه النتيجة منهم؛ فحقيق عليه أن يؤمن به، ويتبع هداه.

ولذا يمكن أن نستشهد اليوم بالقرآن، ونطلب من الكفار -من باب إقامة الحجة أولاً، ثمَّ طلب الاهتداء ثانيًا- أن يتدبروا، هل أتى في القرآن ما يخالف العقل

الصحيح، والعلم الثابت الحق؟

فإن مَن لا يكابر لا يمكنه أن يصل إلا إلى نتيجة واحدة، وهي أن هذا القرآن وحي من الله، نزل بالحق، ولن يخالف في ذلك إلا مَن كانت على قلوبهم أقفالٌ لا يريدون فتحها، والاهتداء بهُدَى الله.

* فائدة في المعاني المقاربةِ للتَّدبرِ:

ويقربُ من معنى التَّدبُّرِ التَّفكُّرُ والتَّذكُّرُ والنَّظرُ والتَّأمُّلُ والاعتبارُ والاستبصارُ، قال ابن القيِّم (ت: ٧٥١): «... وهذا يسمَّى تفكُّرًا وتذكُّرًا ونظرًا وتأمُّلاً واعتبارًا وتدبُّرًا واستبصارًا، وهذه معانٍ متقاربةٌ تجتمعُ في شيءٍ وتتفرقُ في آخر.

ويسمَّى تفكُّرًا؛ لأنه استعمالُ الفكرةِ في ذلك، وإحضارُه عنده.

ويسمَّى تذكُّرًا؛ لأنَّه إحضارٌ للعلمِ الذي يجب مراعاته بعد ذهولِه وغيبتِه عنه، ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

ويسمَّى نظرًا؛ لأنَّه التفاتٌ بالقلبِ إلى المنظورِ فيه.

ويسمَّى تأمُّلاً[1]؛ لأنه مراجعةٌ للنَّظرِ كرَّةً بعد كرَّةٍ، حتى يتجلَّى له وينكشفَ لقلبِه.

ويُسَمَّى اعتبارًا، وهو افتعالٌ من العبورِ؛ لأنَّه يَعْبُرُ منه إلى غيرِه، فَيَعْبُرُ من ذلك

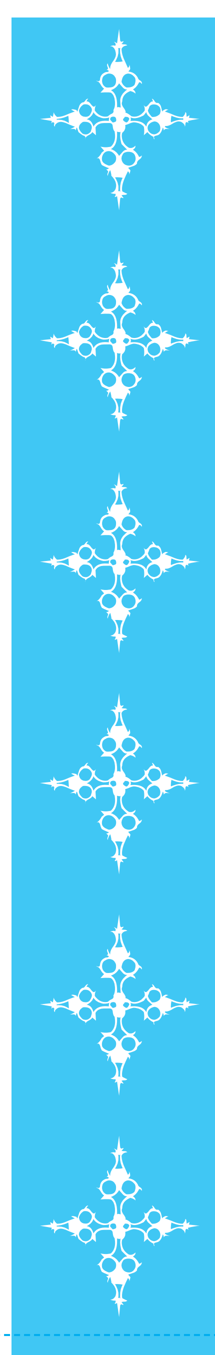
(١) يلاحظ أن التأمل لم يرد في القرآن، بخلاف الألفاظ الأخرى التي ذكرها ابن القيم، ومن باب الفائدة، فإن مادة (أمل) لم ترد في القرآن إلا في موضعين؛ في قوله تعالى: ﴿ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾ [الحجر: ٣]، وفي قوله تعالى: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ﴾ [الكهف: ٤٦].

الذي قد فَكَّرَ فيه إلى معرفة ثالثةٍ، وهي المقصود من الاعتبار، ولهذا يُسَمَّى عِبْرَةً، وهي على بناءِ الحالاتِ كالجِلْسَةِ والرِّكْبَةِ والقِتْلَةِ إيذانًا بأنَّ هذا العلمَ والمعرفةَ قد صار حالاً لصاحبِه يَعْبُرُ منه إلى المقصودِ به، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ [النازعات: ٢٦]، وقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [آل عمران: ١٣].

ويُسمَّى تدبُّرًا؛ لأنَّه نَظَرَ في أدبارِ الأمورِ، وهي أواخرُها وعواقبُها، ومنه تدبُّرُ القول...»[1].

وكتبه
د. مساعد بن سليمان الطيار
الأستاذ المشارك بكلية المعلمين بالرياض

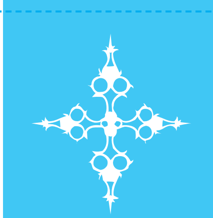
(١) مفتاح دار السعادة، لابن القيم (١: ١٨٢).





الجلسة الثانية :

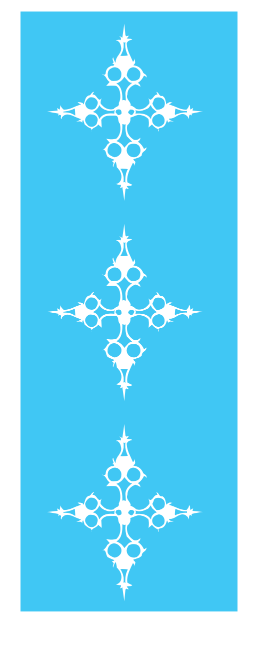
التدبُّر عند المفسرين ١



الورقة الثانية:

تحرير معنى التدبُّر عند المفسرين

د. فهد بن مبارك الوهبي



الورقة الثانية:

د. فهد بن مبارك بن عبدالله الوهيبي

تحرير معنى التدبر عند المفسرين

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن تحرير الحقائق العلمية وضبطها؛ من أهم المسائل التي عُني بها العلماء لضبط العلوم.

والحقائق العلمية منها ما يكون متفقًا على مضمونه -كالمصطلحات الشرعية في الغالب؛ من صلاة وزكاة وحج وإيمان وكفر وغيرها- ومنها ما يختلف العلماء فيه، فيقع لغير العارف بمرادهم الخلط والخطأ كما وقع ذلك في مصطلح النسخ والكراهة.

والكلمة التي ندرسها في هذه الورقة هي من الحقائق التي يتفق العلماء على مضمونها وإن اختلفت العبارات، كما سيأتي -إن شاء الله-.

وقد قسمت الحديث إلى المباحث التالية:

المبحث الأول: تعريف التدبر في اللغة.

المبحث الثاني: معنى التدبر عند المفسرين.

المبحث الثالث: معنى إضافة التدبر للقرآن.

المبحث الرابع: الفرق بين التدبر والاستنباط.

المبحث الخامس: الفرق بين التدبر والتفسير.

المبحث السادس: نتائج البحث.

*** تمهيد:**

التدبر من الكلمات الواردة في القرآن على أصل معناها اللغوي ولم تنتقل إلى اصطلاح شرعي جديد، وهذا حال أغلب كلمات القرآن.

لذا لا يصح -في نظري والعلم عند الله- أن نفرد له تعريفًا شرعيًّا كما في مصطلح الصلاة والزكاة وغيرهما من الكلمات المنقولة عن معناها اللغوي إلى اصطلاح شرعي معروف، بل يبقى التعريف على الاستعمال اللغوي وبه تُفَسَّرُ الآيات التي وردت فيها هذه الكلمة، وهذا هو عمل المفسرين رحمهم الله تعالى، فإنهم عرَّفوا التدبر بمعناه اللغوي، وذكروا في كل آية ما يناسب السياق.

يوضح هذا أن الحقيقة الشرعية: «هي اللفظ المستعمل فيما وضع له أولاً في الشرع كالصلاة للعبادة المخصوصة المفتتحة بالتكبير المختتمة بالتسليم، وكالإيمان للاعتقاد والقول والعمل»[1].

(١) مذكرة أصول الفقه: (١٢).

ومثال الحقيقة الشرعية: تخصيص الهدي المذكور في قوله تعالى: (هديًا بالغ الكعبة): بالنَّعم مع كونه أخص من المعنى اللغوي الشامل لكل ما يُهدى للكعبة، وتخصيص الإيمان والكفر بالمعنى المعروف شرعًا.

قال الآمدي (ت: ٦٣١هـ): «وأما الحقيقة الشرعية؛ فهي استعمال الاسم الشرعي فيما كان موضوعًا له أولاً في الشرع.

وسواء كان الاسم الشرعي ومسماه لا يعرفهما أهل اللغة، أو هما معروفان لهم؛ غير أنهم لم يضعوا ذلك الاسم لذلك المعنى.

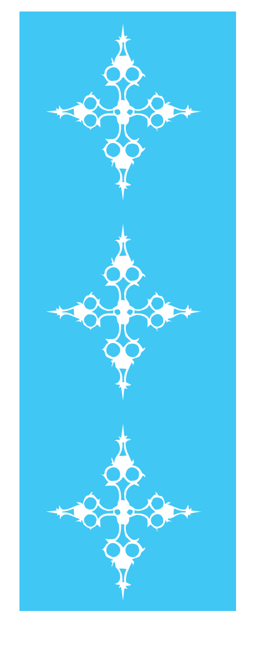
أو عَرَفُوا المعنى ولم يَعْرِفُوا الاسم، أو عرفوا الاسم ولم يعرفوا ذلك المعنى؛ كاسم الصلاة، والحج، والزكاة ونحوه، وكذلك اسم الإيمان والكفر»[1].

بناء على ذلك نقول: إن التدبر حقيقةٌ لغويةٌ متفقٌ على معناها، ولم ينتقل إلى حقيقة شرعية، وإنما يفسر عند الإضافة بما يناسب المضاف إليه، كما سيأتي عند الحديث عن المعنى الإضافي في (تدبر القرآن).

ثم إن التدبر قد أصبح حقيقة عرفية عند المفسرين والمراد بها تدبر القرآن، فإذا أطلق التدبر عندهم فالمراد به أخص من المدلول العام للتدبر.

---

(١) الإحكام: (١ / ٢٧).



المبحث الأول:

تعريف (التدبُّر) في اللغة

قبل الحديث عن معنى التدبر عند المفسرين ينبغي أن نعرج بلمحة سريعة على معنى التدبر في اللغة حتى يتبين ما قدمناه في التمهيد من كون التدبر حقيقة لغوية لم تنتقل إلى اصطلاح شرعي.

* التدبر في اللغة:

تدور مادة الكلمة حول أواخر الأمور وعواقبها وأدبارها، فالتدبُّر هو: النظر في عواقب الأمور وما تؤول إليه.

قال الزجاج (ت: ٣١١ هـ): «التدبر: النظر في عاقبة الشيء»[(١)].

وقال ابن فارس (ت: ٣٩٥ هـ): «دبر: الدال والباء والراء أصل هذا الباب أنَّ جُلَّه في قياسٍ واحد، وهو آخِر الشَّيء»[(٢)].

وقال الجرجاني (ت: ٨١٦ هـ) في تعريف التدبر: «عبارة عن النظر في عواقب الأمور، وهو قريب من التفكر، إلا أن التفكرَ تصرفُ القلب بالنظر في الدليل، والتدبر

(١) زاد المسير: (٢ / ٧٢).

(٢) معجم مقاييس اللغة: (٢ / ٢٦٦)، وانظر: العين: (٢ / ١١٧).

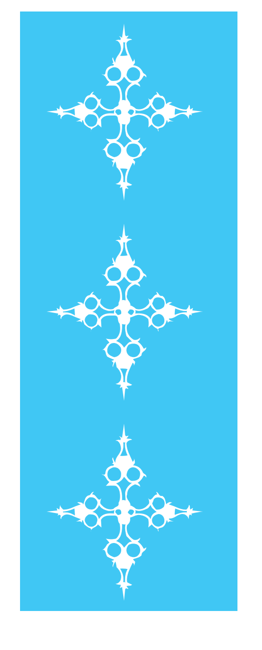
تصرفه بالنظر في العواقب»[1].

والتدبير والتدبر: نظرٌ في عواقب الأمور[2]؛ فتنظر إلى ما يؤول إليه عاقبتُه[3].

(١) التعريفات: (١٧).

(٢) العين للخليل: (٢ / ١١٧)، والقاموس المحيط: (١ / ٤٠٣).

(٣) انظر: الصحاح في اللغة: (١ / ١٩٧).



المبحث الثاني:

تحرير معنى (التدبُّر) عند المفسرين

لم يختلف استعمال المفسرين للتدبر عن معناه اللغوي، بل جاء على الاستعمال السابق.

ويمكن تحرير ذلك بأمرين:

الأول: النظر في تعاريفهم لكلمة التدبر[١]:

قال ابن عطية (ت: ٥٤٢ هـ): «التدبر: النظر في أعقاب الأمور وتأويلات الأشياء»[٢].

وقال البغوي (ت: ٥١٦ هـ): «التدبر: هو النظر في آخر الأمر، ودُبر كل شيء آخره»[٣].

وقال الزمخشري (ت: ٥٣٨ هـ): «تدبُّر الأمر: تأمُّله والنظر في إدباره وما يؤول

(١) جمعت في ذلك ما وجدتُ من كلام المفسرين حتى يكون بين يدينا -مع كثرة النقل- بقصد الخروج بالنتيجة المذكورة في البحث.

(٢) المحرر الوجيز: (٢/ ١٦١).

(٣) تفسير البغوي: (٢/ ٢٥٤).

إليه في عاقبته ومنتهاه، ثم استعمل في كل تأمل؛ فمعنى تدبر القرآن: تأمل معانيه وتبصر ما فيه»(١).

وقال الرازي (ت: ٦٠٦ هـ): «التدبير والتدبر: عبارة عن النظر في عواقب الأمور وأدبارها»(٢).

وقال ابن عادل (ت: ٨٨٠ هـ): «والتَّدْبير والتَّدَبُّر: عبارة عن النَّظَر في عَوَاقِب الأُمور وأَدْبَارِهَا»(٣).

وقال الشوكاني (ت: ١٢٥٠ هـ): «يقال تدبرت الشيء: تفكرت في عاقبته وتأملته، ثم استعمل في كل تأمل، والتدبير: أن يدبر الإنسان أمره كأنه ينظر إلى ما تصير إليه عاقبته»(٤).

وقال الآلوسي (ت: ١٢٧٠ هـ): «وأصل التدبر التأمل في أدبار الأمور وعواقبها ثم استعمل في كل تأمل سواء كان نظرًا في حقيقة الشيء وأجزائه، أو سوابقه وأسبابه، أو لواحقه وأعقابه»(٥).

وقال ابن عاشور (ت: ١٣٩٣ هـ): «والتدبُّر مشتقٌّ من الدُّبر، أي الظَّهر، اشتقُّوا من الدُّبر فعلاً، فقالوا: تدبَّر إذا نظر في دبر الأمر، أي في غائبه أو في عاقبته، فهو من الأفعال التي اشتقت من الأسماء الجامدة. والتدبُّر يتعدَّى إلى المتأمَّل فيه بنفسه، يقال: تدبَّر الأمرَ؛ فمعنى: ﴿يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾: يتأمَّلون دلالته، وذلك يحتمل معنيين:

(١) الكشاف: (١ / ٤٣٨).

(٢) تفسير الرازي: (٥ / ٣٠٠).

(٣) تفسير اللباب: (٥ / ٢٦٩).

(٤) فتح القدير: (٢ / ١٨٠).

(٥) روح المعاني: (٤ / ١٥٠).

أحدهما: أن يتأمَّلوا دلالة تفاصيل آياته على مقاصده التي أرشد إليها المسلمين، أي تدبَّر تفاصيله.

وثانيهما: أن يتأمَّلوا دلالة جملة القرآن ببلاغته على أنَّه من عند الله، وأنَّ الذي جاء به صادق»[1].

وقال أيضًا: «والتدبر: إعمال النظر العقلي في دلالات الدلائل على ما نصبت له، وأصله أنه من النظر في دُبُر الأمر، أي فيما لا يظهر منه للمتأمل بادئ ذي بدء»[2].

الثاني: النظر في تفاسيرهم للآيات التي وردت فيها هذه الكلمة:

قال البيضاوي (ت: ٦٨٥ هـ): «﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ يتأملون في معانيه ويتبصرون ما فيه، وأصل التدبر النظر في أدبار الشيء»[3].

وقال أيضًا: «﴿ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ ليتفكروا فيها فيعرفوا ما يدبر ظاهرها من التأويلات الصحيحة والمعاني المستنبطة»[4].

وقال البقاعي (ت: ٨٨٥ هـ): «﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ أي يتأملون، يقال: تدبرت الشيء إذا تفكرت في عاقبته وآخر أمره»[5].

وقال الشنقيطي (ت: ١٣٩٣ هـ) في قوله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص:٢٩]: «وقد ذكر جل وعلا، في هذه الآية الكريمة، أنه أنزل هذا الكتاب، معظمًا نفسه جل وعلا، بصيغة الجمع، وأنه كتاب

(١) التحرير والتنوير: (٣/ ٤٨٣).

(٢) السابق: (٩/ ٣٨٥).

(٣) تفسير البيضاوي: (١/ ٤٧٨).

(٤) أنوار التنزيل: (٥/ ٩٣).

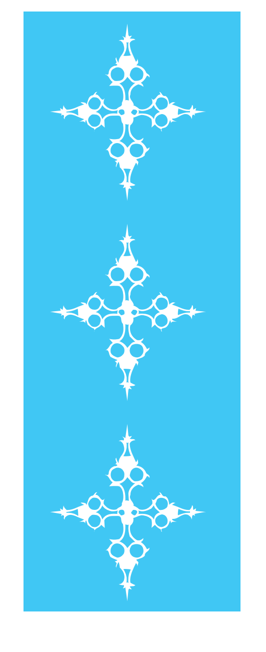
(٥) نظم الدرر: (٢/ ٢٣٨).

مبارك وأن من حِكَمِ إنزاله أن يتدبر الناس آياته، أي يتفهموها ويتعقلوها ويمعنوا النظر فيها، حتى يفهموا ما فيها من أنواع الهدى، وأن يتذكر أولوا الألباب، أي يتعظ أصحاب العقول السليمة، من شوائب الاختلال»[١].

وقال في آية سورة محمد: «ومعلوم أن كل مَن لم يشتغل بتدبر آيات هذا القرآن العظيم أي: تصفحها وتفهمها، وإدراك معانيها والعمل بها، فإنه معرض عنها، غير متدبر لها، فيستحق الإنكار والتوبيخ المذكور في الآيات إن كان الله أعطاه فهماً يقدر به على التدبر، وقد شكا النبي ﷺ إلى ربه من هجر قومه هذا القرآن، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان:٣٠]»[٢].

(١) أضواء البيان: (٧/ ٩).

(٢) أضواء البيان: (٧/ ٣٥٨).



المبحث الثالث :

معنى إضافة (التدبُّر) للقرآن

يمكن الخروج بتعريف لكلمة التدبر بمعناها الاصطلاحي عند المفسرين بأن التدبر هو: (تأمل القرآن بقصد الاتعاظ والاعتبار).

❋ فكلمة (تأمل) قد اتفق عليها أغلب المعرفين للتدبر.

❋ وكلمة (القرآن) هي الواردة في نص الآية الكريمة: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [النساء: ٨٢، محمد: ٢٤]، وهو المقصود في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ ﴾ [المؤمنون:٦٨]، وفي قوله: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص: ٢٩].

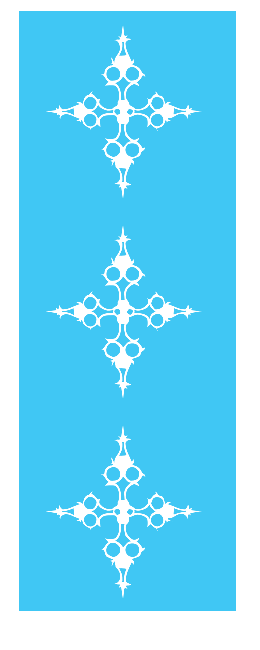
❋ وجملة (بقصد الاتعاظ والاعتبار): هي نتيجة التدبر وثمرته، كما قال تعالى: ﴿ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص:٢٩]، ومما يدل على كون هذا هو المراد بالتدبر: توجيه الخطاب في الآيات الآمرة به للكفار والمنافقين، والمقصود من ذلك اتعاظهم بما ورد في القرآن، واعتبارهم الهادي إلى الإيمان واتباع الشرع.

وهكذا يكون المقصود عند تعميم الأمر ليشمل المسلمين؛ فالتدبر متوجه إلى اتعاظ القلب واعتباره مما يُثمر بعد ذلك آثارًا دالة على الخشوع؛ كوجل القلب،

والبكاء، والخشية، وزيادة الإيمان، وغير ذلك مما ذكره الله تعالى في كتابه نتيجة التأثر بالقرآن كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة:٨٣]، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر:٢٣]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال:٢].

قال الزمخشري (ت: ٥٣٨ هـ): «وتدبر الآيات: التفكر فيها، والتأمل الذي يؤدي إلى معرفة ما يدبر ظاهرها من التأويلات الصحيحة والمعاني الحسنة؛ لأن من اقتنع بظاهر المتلو، لم يحل منه بكثير طائل، وكان مثله كمثل مَن له لقحة درور لا يحلبها، ومهرة نثور لا يستولدها. وعن الحسن: قد قرأ هذا القرآن عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله: حفظوا حروفه وضيعوا حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: والله لقد قرأت القرآن فما أسقطت منه حرفًا، وقد والله أسقطه كله! ما يرى للقرآن عليه أثر في خلق ولا عمل، والله ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، والله ما هؤلاء بالحكماء ولا الوزعة، لا كثر الله في الناس مثل هؤلاء. اللهم اجعلنا من العلماء المتدبرين، وأعذنا من القراء المتكبرين»[1].

(١) الكشاف: (٦ / ١٧).



المبحث الرابع:

العلاقة بين (التدبُّر) والاستنباط

الاستنباط في اللغة: هو الاستخراج[1]، استفعال من أَنْبَطْتُ كذا[2] ومنه قوله تعالى: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡ﴾[النساء: ٨٣] أي: يستخرجونه[3].

وإِنْبَاطُ الماء، واسْتِنْبَاطُه: إِخْرَاجُه، واسْتِخْرَاجُه[4].

ويَظْهَرُ من استعمالات العلماء لمادة نبط؛ أن لفظ الاستنباط في اللغة يُستخدم

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس: (٩٧٢)، الصحاح للجوهري: (٣ / ١١٦٢)، تهذيب الصحاح للزنجاني: (٢ / ٤٦٥)، الفريد في إعراب القرآن المجيد للهمداني: (١ / ٧٦٨)، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم للحميري: (١٠ / ٦٤٧٥)، النهاية في غريب الحديث لابن الأثير: (٥ / ٧).

(٢) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني: (٧٨٨).

(٣) مجاز القرآن لأبي عبيدة: (١ / ١٣٤)، غريب القرآن وتفسيره للزيدي: (١٢٢)، تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: (١٣٢)، معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (٢ / ٨٣)، معاني القرآن للنحاس: (٢ / ١٤١)، المفردات في غريب القرآن للأصفهاني: (٧٨٨)، معالم التنزيل للبغوي: (١ / ٤٥٦)، عمدة الحفاظ للسمين الحلبي: (٤ / ١٣٨)، تفسير القرآن للعز ابن عبد السلام: (١١١).

(٤) الفريد في إعراب القرآن المجيد للهمداني: (١ / ٧٦٩).

لكل ما أُخْرِجَ أو أُظْهِرَ بعد خفاءٍ. ويدل على ذلك صراحةً الأقوالُ التالية:

قال ابن جرير الطبري (ت: ٣١٠هـ): «وكل مستخرج شيئًا، كان مستترًا عن أبصار العيون، أو عن معارف القلوب؛ فهو له مستنبط»[١].

وقال ابن دريد (ت: ٣٢١هـ): «وكل شيء أظهرته بعد خفائه، فقد أنبطته واستنبطته...، واستنبطتُ هذا الأمرَ، إذا فَكَّرت فيه فظهر»[٢].

وقال المنتجب الهمداني (ت: ٦٤٣هـ): «يقال لكل ما استخرج حتى تقع عليه رؤيةُ العيونِ، أو معرفةُ القلوبِ: قد اسْتُنْبِط»[٣].

وقال الزبيدي (ت: ١٢٠٥هـ): «وكل ما أُظهر بعد خفاءٍ فقد أُنْبِطَ واسْتُنْبِطَ، وفي البصائر: وكل شيء أظهرته بعد خفائه، فقد أنبطته واستنبطته»[٤].

ومما سبق يتبين أن معنى الاستنباط في اللغة هو: الاستخراج أو الإظهار بعد الخفاء.

وأما الاستنباط في الاصطلاح:

فقد عرَّفه غيرُ واحد من العلماء، ومن تلك التعاريف:

١ - قال ابن جرير الطبري (ت: ٣١٠هـ):

«وكل مستخرج شيئًا كان مستترًا عن أبصار العيون، أو عن معارف القلوب؛ فهو له مستنبط»[٥].

---

(١) جامع البيان: (٤ / ١٨٤).

(٢) جمهرة اللغة لابن دريد: (١/ ٣١٠)، وانظر المعجم الوسيط: (٢ / ٨٩٧). ونقله الصغاني في العباب الزاخر: حرف الطاء: (٢٠٧).

(٣) الفريد في إعراب القرآن المجيد للهمداني: (١ / ٧٦٨).

(٤) تاج العروس للزبيدي: (٢٠ / ١٢٩).

(٥) جامع البيان: (٤ / ١٨٤).

٢- قال الجصاص (ت: ٣٧٠هـ):

«اسم لكل ما استخرج حتى تقع عليه رؤية العيون، أو معرفة القلوب، والاستنباط في الشرع: نظير الاستدلال، والاستعلام»[١].

٣- قال الماوردي (ت: ٤٥٠هـ):

«والاستنباط: مختصٌّ باستخراج المعاني من النصوص»[٢].

٤- قال الزمخشري (ت: ٥٣٨هـ):

«ما يستخرجه الرجلُ، بفضلِ ذهنِه، من المعاني والتدابيرِ[٣]، فيما يَعْضُلُ ويهم»[٤].

٥- قال النووي (ت: ٦٧٦هـ):

«قال العلماء: الاستنباط استخراج ما خفي المرادُ به من اللفظ»[٥].

---

(١) أحكام القرآن: (٢ / ٢١٥).

(٢) أدب القاضي: (١ / ٥٣٥)، ويقصد بالمعاني العلل كما ذكر ما يدل عليه في: (١ / ٥٣٦) منه.

(٣) قال الجرجاني: «التدبير: استعمال الرأي بفعل شاق، وقيل: النظر في العواقب بمعرفة الخير، وقيل: التدبير إجراء الأمور على علم العواقب، وهي لله تعالى حقيقةً وللعبد مجازًا». التعريفات: (٥٤).

(٤) الكشاف: (٢ / ١١٧)، وهذا التعريف ذكره غير واحد من العلماء منهم: النسفيُّ في: مدارك التنزيل: (١ / ٣٥٠)، والخازنُ في: لباب التأويل: (٢ / ١١٩)، وعلاءُ الدين البخاري في: كشف الأسرار: (١ / ٦٥).

(٥) تهذيب الأسماء واللغات: (ق ٢ /١/ ١٥٨)، ويلاحظ أن هذا التعريف يكتسب قوة حيث نسبه النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى العلماء؛ فكأنه تعريف لمجموعة من العلماء وليس تعريفًا خاصًّا بالنووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٦- قال ابن القيم (ت: ٧٥٢هـ):

«استخراج الأمر الذي من شأنه أن يخفى على غيرِ المُسْتَنْبِط»[١].

ويظهر لي -والعلم عند الله- أنه يمكن الخروج بتعريف يجمع ما اتفقت عليه التعاريف السابقة، وهو أن نقول:

(الاستنباط هو: استخراج ما خفي من النص بطريق صحيح)[٢].

وبعد معرفة معنى الاستنباط يمكن بيان العلاقة بين الاستنباط والتدبر بما يلي:

١- إن التدبر أصل الاستنباط، فلا يمكن الاستنباط من النص قبل تدبره والتأمل في معانيه.

قال الإمام ابن القيم (ت: ٧٥٢ هـ):

«والمقصود تفاوت الناس في مراتب الفهم في النصوص، وأن منهم مَن يفهم من الآية حُكْمًا أو حُكْمَيْن، ومنهم مَن يفهم منها عشرةَ أحكام، وأكثر من ذلك، ومنهم مَن يقتصر في الفهم على مجرد اللفظ، دون سياقه، ودون إيمائه، وإشارته، وتنبيهه، واعتباره»[٣].

وقال ابن عاشور (ت: ١٣٩٣هـ): «وإنك لتمرُّ بالآية الواحدة، فتتأملها، وتتدبرها؛ فتنهال عليك معانٍ كثيرة، يسمح بها التركيب، على اختلافِ الاعتبارات في أساليب الاستعمال العربي، وقد تتكاثرُ عليك، فلا تك -مِنْ كثرتها- في حصر، ولا تجعل الحملَ على بعضها، منافيًا للحمل على البعض الآخر، إِنْ كان التركيبُ سمحًا

(١) إعلام الموقعين: (١ / ١٧٢).

(٢) انظر: منهج الاستنباط من القرآن الكريم: (٤٥).

(٣) إعلام الموقعين: (١ / ٢٦٧).

بذلك»[١].

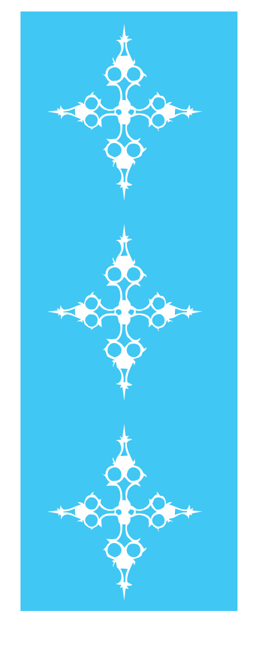
٢- إن التدبر يعم العلماء وغيرهم، والاستنباط خاصٌّ بأولي العلم:

ومن لطيف التناسب بين الآيات الدال على هذا الأمر أن آية الاستنباط جاءت عقب آية التدبر كما في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء:٨٢-٨٣]؛ فوجه الأمر بالتدبر للعموم، وخص الاستنباط بأولي العلم.

٣- يظهر لي -والعلم عند الله- أن التدبر المأمور به في القرآن؛ متوجه للمقاصد الأصلية من آيات القرآن الكريم، التي تدعو بتأملها إلى الاهتداء بهدي الإسلام والإيمان بالله تعالى، والإقرار بصدق الرسالة، لذا فإن التدبر متوجهٌ إلى الكفار ليُسلموا، ونتيجة التدبر المذكورة في الآيات تؤيد ذلك؛ فقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢]، فالتدبر يدل على كون هذا القرآن من عند الله تعالى لصحة أخباره وما تضمنه من الهدايات، وأما الاستنباط فهو لدقائق الأمور، لذا خُصَّ بالعلماء دون غيرهم.

---

(١) التحرير والتنوير: (١ / ٩٧).



المبحث الخامس :

العلاقة بين (التدبُّر) والتفسير

يمكن بيان العلاقة بين التدبر والتفسير وذلك بمعرفة مصطلح التفسير، ثم المقارنة بينه وبين التدبر.

أولًا: التفسير في اللغة:

التفسير: تفعيل من الفَسْر، وهو: البيانُ[(١)]، أو الإبانةُ وكشفُ المُغَطَّى[(٢)].

فالفاء والسين والراء كلمة واحدة تدل على بيانِ شيءٍ وإيضاحِه[(٣)]. يقال: فَسَرْتُ الشيءَ أَفْسِرُه -بالكسر- فَسْرًا، ويقال: فَسَر الشيءَ يفْسِرُه ويَفْسُرُه وفسَّره[(٤)]، والتشديدُ

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس: (٨١٨)، شمس العلوم للحميري: (٨ / ٥١٨٩)، لسان العرب لابن منظور: (٥ / ٥٥)، الصحاح للجوهري: (٢ / ٧٨١). وانظر: جمهرة اللغة لابن دريد: (٢ / ٣٣٤)، تاج العروس للزبيدي: (١٣ / ٣٢٣)، القاموس المحيط للفيروز آبادي: (٢ / ١١٤).

(٢) تهذيب اللغة للأزهري: (١٢ / ٤٠٦)، القاموس المحيط للفيروز آبادي: (٢ / ١١٤).

(٣) معجم مقاييس اللغة لابن فارس: (٤ / ٥٠٤).

(٤) معجم مقاييس اللغة لابن فارس: (٤ / ٥٠٤)، الصحاح للجوهري: (٢ / ٧٨١)، تاج العروس للزبيدي: (١٣ / ٣٢٣)، لسان العرب لابن منظور: (٥ / ٥٥).

أعمُّ في الاستعمال[1]، وبه جاء القرآنُ، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ [الفرقان:٣٣]؛ أي: بيانًا وتفصيلاً[2].

ويقال: استفسرته كذا، أي سألته أن يُفَسِّره لي[3].

قال ابن الأعرابي (ت: ٢٣١هـ): «الفَسْر: كشف ما غُطِّي، وقال الليث: الفَسْر: التفسيرُ وهو بيانٌ وتفصيلُ الكتاب»[4].

وقيل: مأخوذ من قولهم: فَسَرْتُ الحديث، أفسِرُهُ، إذا بيَّنْتُه، وفسَّرته تفسيرًا كذلك[5].

ومنه الفَسْر والتَّفْسِرة وهي: نَظَرُ الطبيبِ إلى الماء وحُكْمُه فيه[6].

وكلُّ شيء يُعرف به تفسيرُ الشيء ومعناه فهو تَفْسِرته[7].

ومما يلاحظ أن اشتقاق كلمة (فَسَرَ) تدل على البيان، والإيضاح، والإظهار، والكشف؛ فتفسير الكلام: بيانه، وإيضاحه، وإظهاره، والكشف عن المراد منه[8].

---

(١) تاج العروس للزبيدي: (١٣ / ٣٢٣)، ونقل هذا التعميم عن ابن القطاع.

(٢) انظر: جامع البيان لابن جرير: (١٧/ ٤٤٨)، وانظر:تفسير القرآن العظيم لابن كثير: (٩٨٠)، ومعالم التنزيل للبغوي: (٦ / ٨٣).

(٣) الصحاح للجوهري: (٢ / ٧٨١)، وانظر: تاج العروس للزبيدي: (١٣ / ٣٢٤).

(٤) تهذيب اللغة للأزهري: (١٢ / ٤٠٦-٤٠٧). وانظر كتاب العين للخليل: (٧/ ٢٤٧).

(٥) جمهرة اللغة لابن دريد: (٢/ ٣٣٤).

(٦) معجم مقاييس اللغة لابن فارس: (٤ / ٥٠٤)، الصحاح للجوهري: (٢ / ٧٨١). وقال الجوهري عن التفسرة: «وأظنه مولَّدًا».

(٧) كتاب العين للخليل: (٧/ ٢٤٨)، تهذيب اللغة للأزهري: (١٢ / ٤٠٧)، تاج العروس للزبيدي: (١٣ / ٣٢٤)، وانظر أساس البلاغة للزمخشري: (٢ / ٢٢).

(٨) تفسير القرآن الكريم أصوله وضوابطه للعبيد: (١٦).

ثانيًا: التفسير في الاصطلاح:

اشتهر تعريف التفسير في الاصطلاح عند العلماء واختلفت عباراتهم في الدلالة على هذا العلم، ومن أشهر التعاريف ما يلي[١]:

١- قال ابن جزي الكلبي (ت: ٧٤١هـ):

«معنى التفسير: شرح القرآن، وبيان معناه، والإفصاح بما يقتضيه بنصِّه أو إشارته أو نجواه[٢]»[٣].

٢- وقال أبو حيان (ت: ٧٤٥هـ):

«التفسير: علم يُبْحَثُ فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن، ومدلولاتها، وأحكامها الإفرادية والتركيبية، ومعانيها التي تُحْمَل عليها حال التركيب وتتمات ذلك»[٤].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرح هذا التعريف:

«فقولنا (علم): هو جنس يشمل سائر العلوم.

وقولنا: (يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن): هذا علم القراءات.

وقولنا: (ومدلولاتها): أي مدلولات تلك الألفاظ، وهذا علم اللغة الذي يُحتاج إليه في هذا العلم.

وقولنا: (وأحكامها الإفرادية والتركيبية): هذا يشمل علم التصريف، وعلم الإعراب، وعلم البيان، وعلم البديع.

---

(١) استفدت في جمع هذه التعريفات من كتاب التفسير اللغوي: (٢١ ٢٥).

(٢) هكذا وجدته ولعله أو فحواه.

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل: (٨٧٥).

(٤) البحر المحيط: (١/ ١٢١).

(ومعانيها التي تحمل عليها حال التركيب): شمل بقوله: (التي تحمل عليها): ما لا دلالة عليه بالحقيقة، وما دلالته عليه بالمجاز، فإنَّ التركيب قد يقتضي بظاهره شيئًا، ويصدُّ عن الحمل على الظاهر صادٌّ، فيحتاج لأجل ذلك أن يُحمل على غير الظاهر، وهو المجاز.

وقولنا: (وتتمات ذلك): هو معرفة النسخ، وسبب النزول، وقصةٌ توضح ما انبهم في القرآن، ونحوُ ذلك»[1].

٣- قال الزركشي (ت: ٧٩٤ هـ):

«علم يعرف به فَهْمُ كتاب الله المنزَّل على نبيه محمد ﷺ، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحِكَمِه»[2].

وقال في موضع آخر:

«هو عِلْم نزول الآية وسورتها وأقاصيصها والإشارات النازلة فيها، ثم ترتيب مكِّيِّها ومدنيِّها، ومحكمها ومتشابهها، وناسخها ومنسوخها، وخاصها وعامها، ومطلقها ومقيدها ومجملها ومفسرها»، قال: «وزاد فيه قوم: علم حلالها وحرامها، ووعدها ووعيدها، وأمرها ونهيها، وعِبَرِها وأمثالها»[3].

٤- وقال ابن عرفة المالكي (ت: ٨٠٣ هـ):

«هو العلم بمدلول القرآن وخاصيِّة كيفية دلالته، وأسباب النزول، والناسخ والمنسوخ»[4].

(١) البحر المحيط: (١ / ١٢١).

(٢) البرهان في علوم القرآن: (١ / ١٣).

(٣) البرهان: (٢ / ١٤٨).

(٤) تفسير ابن عرفة: (١ / ٥٩).

قال في شرح هذا التعريف: «فقولنا: (خاصية كيفية دلالته): هي إعجازه، ومعانيه البيانيّة، وما فيه من علم البديع الذي يذكره الزمخشري (ت: ٥٣٨هـ)، ومَن نحا نحوه»[١].

٥- وقال الكافيجي (ت: ٨٧٩هـ):

«وأما التفسير في العرف[٢] فهو: كشف معاني القرآن، وبيان المراد»[٣].

٦- وقال الزُّرْقاني (ت: ١٣٦٧هـ):

«علم يُبْحَثُ فيه عن القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله بقدر الطاقة البشرية»[٤].

٧- وقال محمد الطاهر بن عاشور (ت: ١٣٩٣هـ):

«اسم للعِلْم الباحث عن بيان معاني ألفاظ القرآن، وما يستفاد منها، باختصار أو توسُّع»[٥].

٨- وقال الشيخ مناع القطان (ت: ١٤٢٠هـ):

«بيان كلام الله المنزل على محمد ﷺ»[٦].

---

(١) انظر: تفسير ابن عرفة: (١ / ٥٩).

(٢) يظهر أن الكافيجي يُعَبِّرُ بقوله: (العرف) ويريد (الاصطلاح)، وقد تكرر استخدامه هذا في تعريفات: التأويل، والقرآن، وغيرهما، انظر كتابه: التيسير في قواعد التفسير: (١٢٥، ١٦١، ١٦٧).

(٣) التيسير في قواعد التفسير: (١٢٤).

(٤) مناهل العرفان: (٢ / ٧).

(٥) التحرير والتنوير: (١ / ١١).

(٦) نقلته عن التفسير اللغوي: (٢٤)، ونقله عن مذكرة علوم القرآن كتبها الشيخ لطلاب الدراسات العليا بقسم القرآن وعلومه في كلية أصول الدين بالرياض عام ١٤١٩-١٤١٠هـ.

٩- وقال الشيخ محمد بن عثيمين (ت: ١٤٢١هـ):

«**بيان معاني القرآن الكريم**»[١].

١٠- وقال الدكتور مساعد الطيار:

«التفسير: بيان القرآن الكريم»[٢].

وقال في شرح هذا التعريف: «فخرج بـ(البيان): ما كان خارجًا عن حدِّ البيان؛ ككثير من المسائل الفقهية، والمسائل النحوية، ومبهمات القرآن، وغيرِها مما يُذكر في كتب التفسير، مما لا أثر له في التفسير.

ويخرج بـ(القرآن): غيرُ كلام الله سبحانه، وكلامُه لملائكته، وكلامُه لرسلِه السابقين، والحديثُ القدسيُّ، والله أعلم»[٣].

وبعد الاطلاع على ما سبق من التعاريف، ومعرفة ما يُعترض به عليها، يمكن القول: بأن تعريف مصطلح التفسير يختلف باختلاف مقصود المعرِّف، فإن كان المراد تحديد مصطلح التفسير عند العلماء السابقين، فيمكن تعميمه ليشمل جوانب أخرى غير التي اقتصر عليها المتأخرون، ولذا يكون مصطلحُ التفسيرِ عندهم أعمَّ وأشملَ ممن جاء بعدهم، وهذا صريح كلامهم، ومنطوق تعاريفهم، ولا يمكن محاكمة كتبهم على اصطلاح حادث بعدهم، وإن كان المقصودُ تحديد ما هو الألصق بلفظ التفسير اللغوي من تلك التعاريف، فلا شك أن الاقتصار على ذكر البيان في التعاريف هو الأولى.

---

(١) أصول في التفسير: (٢٨).

(٢) التفسير اللغوي: (٣٢).

(٣) التفسير اللغوي: (٣٢).

فنحن إذن أمام مصطلح تغير مفهومه من جيل إلى جيل، فنجد المفهوم لدى المتقدمين -أو أغلبهم- أعم وأوسع، وهو الشأن في جميع العلوم حتى تستقر وتتحرر، وهذا منهج التعميم للمصطلح.

ثم جاء منهج تحريره وتمحيصه وبيان علاقته بغيره مما أدخل فيه، وهذا أدق.

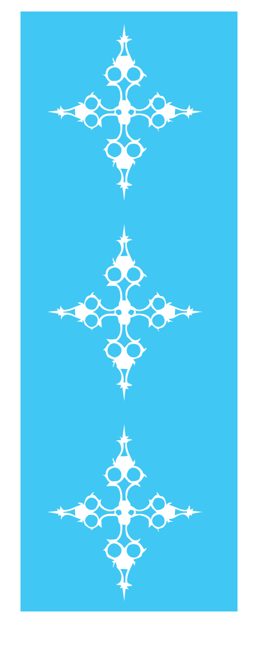
ويمكن بيان العلاقة بين التدبر والتفسير بما يلي:

١- إن التدبر لا يكون إلا بعد معرفة التفسير الصحيح للآية كما سيأتي في النتائج.

٢- إن التفسير في عمل المفسرين يشمل التدبر، فكتب التفسير مشتملة على الكثير من تدبر القرآن والحث عليه وذكر ثمرات لتدبر آيات من القرآن الكريم.

٣- إن التدبر من أكبر مقاصد التفسير، وذلك لأن كثيرًا من آيات القرآن الكريم هي آيات عظة وعبرة، وبيان تلك العبر والعظات هي من التفسير قطعًا، لكونها بيان المراد من هذه الآيات.

٤- إن المقصود الأصلي للتفسير هو بيان معاني كلام الله تعالى، ومقصود التدبر هو الاتعاظ والاعتبار.



المبحث السادس:

أهم النتائج من البحث

وبعد النظر في كلام المفسرين وفي الآيات الواردة في التدبر يمكن لنا أن نخلص إلى النتائج التالية:

١ - إن التدبر لا يكون إلا بالتأمل:

يقول الزمخشري (ت: ٥٣٨ هـ): «تدبُّر الأمر: تأمُّله والنظر في أدباره وما يؤول إليه في عاقبته ومنتهاه، ثم استعمل في كل تأمل؛ فمعنى تدبر القرآن: تأمل معانيه وتبصر ما فيه»[١].

وقال البيضاوي(ت: ٦٨٥ هـ): «﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ يتأملون في معانيه»[٢].

وقال البقاعي (ت: ٨٨٥ هـ): «﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ﴾ أي يتأملون»[٣].

وقال الشوكاني (ت: ١٢٥٠هـ): «يقال تدبرت الشيء: تفكرت في عاقبته

(١) الكشاف: (١ / ٤٣٨).

(٢) تفسير البيضاوي: (١ / ٤٧٨).

(٣) نظم الدرر: (٢ / ٢٣٨).

وتأملته، ثم استعمل في كل تأمل»[1].

ويقول الآلوسي (ت: ١٢٧٠ هـ): «وأصل التدبر: التأمل في أدبار الأمور وعواقبها، ثم استعمل في كل تأمل، سواء كان نظرًا في حقيقة الشيء وأجزائه، أو سوابقه وأسبابه، أو لواحقه وأعقابه»[2].

٢- إن محل التأمل هو مدلولات الآيات:

قال البغوي (ت: ٥١٦ هـ): «﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا﴾ أي: يتدبروا، ﴿الْقَوْلَ﴾ يعني: ما جاءهم من القول وهو القرآن، فيعرفوا ما فيه من الدلالات على صدق محمد ﷺ»[3].

وقال ابن عاشور (ت: ١٣٩٣ هـ): «فمعنى: ﴿يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ يتأملون دلالته»[4].

٣- إن غاية التدبر هي الهداية والاعتبار:

قال ابن عطية (ت: ٥٤٢ هـ): «وتدبر القرآن: زعيم بالتبيين والهدى»[5].

وهي هدايتان:

هداية عامة: وهي الإيمان بكون هذا القرآن حق من عند الله تعالى، وأن مَن جاء به رسول صدق، وهي الواردة في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

---

(١) فتح القدير: (٢/ ١٨٠).

(٢) روح المعاني: (٤/ ١٥٠).

(٣) معالم التنزيل: (٥/ ٤٢٣).

(٤) التحرير والتنوير: (٣/ ٤٨١).

(٥) المحرر الوجيز: (٦/ ١٣٩).

وهداية خاصة: وهي الوصول إلى مقاصده التفصيلية التي تدل عليها آياته الكريمة.

قال ابن عاشور (ت: ١٣٩٣ هـ): «وذلك يحتمل معنيين: أحدهما: أَنْ يتأملوا دلالة تفاصيل آياته على مقاصده التي أرشد إليها المسلمين، أي تدبر تفاصيله؛ وثانيهما: أَنْ يتأملوا دلالة جملة القرآن ببلاغته على أنَّه من عند الله، وأنَّ الذي جاء به صادق»[1].

وقال السعدي (ت: ١٣٧٦ هـ): «أي: فهلا يتدبر هؤلاء المعرضون لكتاب الله، ويتأملونه حق التأمل، فإنهم لو تدبروه، لدلهم على كل خير، ولحذرهم من كل شر، ولملأ قلوبهم من الإيمان، وأفئدتهم من الإيقان، ولأوصلهم إلى المطالب العالية، والمواهب الغالية، ولبين لهم الطريق الموصلة إلى الله، وإلى جنته ومكملاتها ومفسداتها، والطريق الموصلة إلى العذاب، وبأي شيء تحذر، ولعرفهم بربهم، وأسمائه وصفاته وإحسانه، ولشوقهم إلى الثواب الجزيل، ورهبهم من العقاب الوبيل»[2].

٤ - إن التدبر مبني على معرفة التفسير وفهم المعاني:

يتضح ذلك من قول الزمخشري (ت: ٥٣٨ هـ): «فمعنى تدبر القرآن: تأمل معانيه وتبصر ما فيه»[3].

فالمعاني إذًا معلومة للمتدبر، لذا فإنه ينتقل إلى التأمل والتبصر لأجل الوصول إلى التدبر، ومثله قول البيضاوي (ت: ٦٨٥ هـ): «﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ يتأملون في معانيه ويتبصرون ما فيه»[4].

(١) التحرير والتنوير: (٣ / ٤٨٣).

(٢) تيسير الكريم الرحمن: (١ / ٧٨٨).

(٣) الكشاف: (١ / ٤٣٨).

(٤) أنوار التنزيل: (١ / ٤٧٨).

٥- إن صحة التدبر مرهونة بسلامة القلب:

لذا يقول جل وعلا: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤]؛ فالمشركون الذين أصابهم الرين لم ينتفعوا بهذا القرآن، بل وصل بهم تدبرهم إلى القول بأنه شعر أو سحر.

٦- إن اتباع المتشابه صاد عن التدبر:

قال قتادة (ت: ١١٨ هـ): «إذًا والله يجدون في القرآن زاجرًا عن معصية الله لو تدبره القوم فعقلوه، ولكنهم أخذوا بالمتشابه فهلكوا عن ذلك»(١).

٧- إن ثمرة التدبر تحصل بالدوام والاستمرار عليه:

قال البقاعي (ت: ٨٨٥ هـ): «ولما كان الاستفهام إنكاريًا؛ فكان معناه نفيًا، فهو لكونه داخلاً على النفي، نفي له؛ فصار إثباتًا، فكان كأنه قيل: هل يجددون التدبر تجديدًا مستمرًّا لترق قلوبهم به وتنير بصائرهم له، فيكفوا عن الإفساد والتقطيع»(٢).

٨- إن التدبر دافع لموهم التعارض بين الآيات القرآنية:

بدليل قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:٨٢]، قال الزمخشري (ت: ٥٣٨ هـ): «فإن قلت: أليس نحو قوله: ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ [الأعراف:١٠٧]، ﴿ كَأَنَّهَا جَآنٌّ ﴾ [النمل:١٠]، ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجر:٩٢]، ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾ [الرحمن:٣٩] من الاختلاف؟

قلت: ليس باختلاف عند المتدبرين»(٣).

(١) جامع البيان: (٢٢ / ١٧٩)، والدر المنثور: (٩ / ٢٠٣).

(٢) نظم الدرر: (٨ / ٩٨).

(٣) الكشاف: (١ / ٤٣٨).

وقال ابن كثير (ت: ٧٧٤ هـ) في هذا المعنى: «﴿ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ أي: اضطرابًا وتضادًّا كثيرًا؛ أي: وهذا سالم من الاختلاف، فهو من عند الله؛ كما قال تعالى مخبرًا عن الراسخين في العلم حيث قالوا: ﴿ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ [آل عمران: ٧] أي: محكمه ومتشابهه حق؛ فلهذا ردوا المتشابه إلى المحكم فاهتدوا، والذين في قلوبهم زيغ ردوا المحكم إلى المتشابه فغووا؛ ولهذا مدح تعالى الراسخين، وذم الزائغين»(١).

وقال الآلوسي (ت: ١٢٧٠ هـ): «وما يظن من الاختلاف كما في كثير من الآيات، ومنه ما سبق آنفًا ليس من الاختلاف عند المتدبرين»(٢).

٩- إن الأمر بالتدبر يدل على أن القرآن معلوم المعنى:

قال الرازي (ت: ٦٠٦ هـ): «دلت الآية على أن القرآن معلوم المعنى خلاف ما يقوله مَن يذهب إلى أنه لا يعلم معناه إلا النبي والإمام المعصوم، لأنه لو كان كذلك لما تهيأ للمنافقين معرفة ذلك بالتدبر، ولما جاز أن يأمرهم الله تعالى به، وأن يجعل القرآن حجة في صحة نبوته، ولا أن يجعل عجزهم عن مثله حجة عليهم، كما لا يجوز أن يحتج على كفار الزنج بمثل ذلك»(٣).

١٠- إن الأمر بالتدبر غير مقتصر على المسلمين، بل يشمل الكفار، وقد قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون:٦٨].

قال الطبري (ت: ٣١٠ هـ): «يقول تعالى ذكره: أفلم يتدبر هؤلاء المشركون

---

(١) تفسير القرآن العظيم: (٢/ ٣٦٤).

(٢) روح المعاني: (٤/ ١٥٠).

(٣) مفاتيح الغيب: (٥/ ٣٠١).

تنزيل الله وكلامه، فيعلموا ما فيه من العبر، ويعرفوا حجج الله التي احتج بها عليه فيه؟»[1].

وقال الشوكاني (ت: ١٢٥٠ هـ): «قوله: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨] بيَّن سبحانه أن سبب إقدامهم على الكفر هو أحد هذه الأمور الأربعة: الأول: عدم التدبر في القرآن؛ فإنهم لو تدبروا معانيه لظهر لهم صدقه وآمنوا به وبما فيه»[2].

وقال السعدي (ت: ١٣٧٦ هـ): «﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨] أي أفلا يتفكرن في القرآن ويتأملونه ويتدبرونه؛ أي فإنهم لو تدبروه لأوجب لهم الإيمان، ولمنعهم من الكفر، ولكن المصيبة التي أصابتهم بسبب إعراضهم عنه، ودل هذا على أن تدبر القرآن يدعو إلى كل خير، ويعصم من كل شر»[3].

قال الشوكاني (ت: ١٢٥٠ هـ): «وفي الآية دليل على أن الله سبحانه إنما أنزل القرآن للتدبر، والتفكر في معانيه، لا لمجرد التلاوة بدون تدبر»[4].

والله أعلم،،، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

وكتبه

د. فهد بن مبارك الوهبي

المحاضر في قسم الدراسات القرآنية

جامعة طيبة

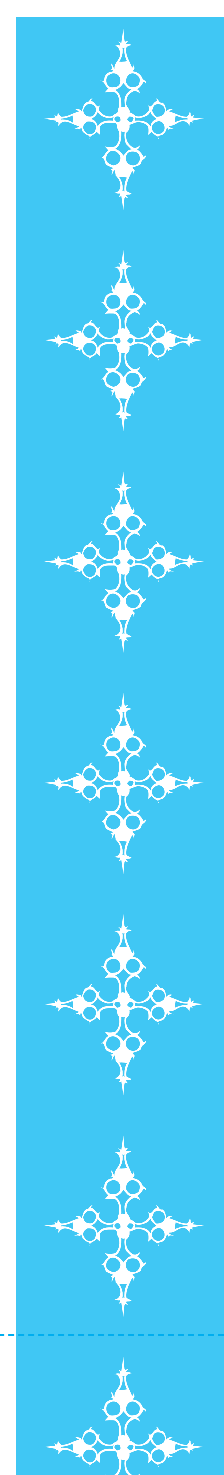
---

(١) جامع البيان: (١٩ / ٥٦).

(٢) فتح القدير: (٥ / ١٦٨).

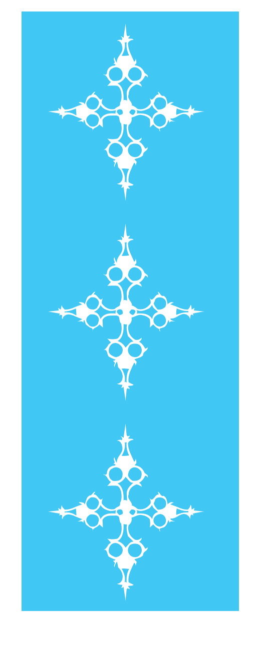
(٣) تيسير الكريم الرحمن: (١ / ٥٥٤).

(٤) فتح القدير: (٦ / ٢٤٢).



تعقيبات الجلسة الثانية





د. سعود الفنيسان

التعقيب الأول

الحمد لله، والصلاة على رسول الله نبينا محمد، وعلى آله وصحابته أجمعين...

وبعد:

*** الوقفة الأولى:**

عند النظر في اسم السورة والتأمل فيها إذا كانت تسميتها نبوية من النبي ﷺ نجد أن الباحث ألحق بالنبي الصحابة إذا فسروا ذلك هذا في أثناء عرضه، بينما أنه لم يذكر هذا المعنى في الورقة، ومع ذلك أقول: إن محاولة الاستفادة من تسمية السورة في التدبر فيه تزيدٌ وتكلفٌ، أما إذا كانت التسمية من الصحابة وأكثر السور هي من تسمية الصحابة، فلا أظن أن هناك ربطًا وتأملاً في ذات الاسم بل فيه نوع من التزيد والتكلف المنهي عنه فيما يبدو لي.

*** الوقفة الثانية:**

بالنسبة لاستخراج موضوعات السورة ومقصدها، هذا عامٌّ في كل السور وليس خاصًّا بما سماه الرسول، فهناك سور سماها الرسول أو غيره، وأيضًا تناسب الآيات والمقاطع والنظر في مطلع السورة وخاتمتها ليس مطردًا في كل سور القرآن، فالسور

القصار ليس لها مقاطع ولا وحدات موضوعية ولا يمكن أن يعاد الصدر إلى العجز بحال، فلو خصص ذلك وقيل: معظم سور القرآن لكان هذا أدق وأولى.

❊ الوقفة الثالثة:

نقلَ الباحثُ عن ابن القيم نقلاً مطولاً وذكره من كتاب سماه: (زاد المهاجر)، وبالمناسبة أنا تتبعت في ترجمة ابن القيم الذين ترجموا له فلم أجد اسماً لهذا الكتاب بهذا العنوان (زاد المهاجر)، ووجدت ما نقله حرفيًّا هو من «الرسالة التبوكية» من صفحات معلومة من ٧٣ إلى ٧٧.

❊ الوقفة الرابعة:

بالنسبة لنقله لكلام ابن القيم عن التدبر أنه ثلاثة أقسام، وذكر القسم الثالث بأنه لا يدخل في التدبر، وهو الأمور الغيبية، فهذا الترتيب من ابن القيم -على كل حال- سبق قلم أو نحو ذلك لمّا يقال: إنه قسم من الأقسام، والمراد بالذي لا يدخله هو معلومٌ أنه الغيبيات وحقائق يوم القيامة وكيفيات أسماء الله وصفاته، فهذه لا تدخل بحال من الأحوال في مفهوم التدبر، وليست موضوعًا للتدبر.

الحقيقة أن التدبر بصفة عامة مفتاح العلم والعمل، لكن هل الأمة الآن تعاني من أزمة علم في فهم القرآن، أو من أزمة نتيجة التدبر الذي هو العمل؛ فالتنظير كثير، وإذا نظرنا لقضية ما كتب ويكتب وما يقال ويخطب فيه فلم يحرك ساكنًا في كثيرٍ من الناس في هذا المعنى، ولذلك أقول: إن الأمة لا تعاني من أزمة منهج، فالمنهج مرسوم في كتاب الله سبحانه وتعالى وفي سنة رسوله، وقد اجتمع هذا المنهج في هذه الشرعة التي ذكرها الله سبحانه وتعالى في هذا الكتاب حيث قال سبحانه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ

﴿إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص:٢٩].

وقوله: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗا﴾ [المائدة: ٤٨].

وأرى أن التدبر هو أن يكون فهم القرآن كخاطرة القلب التي تأتيه، ومن ثم ينفعل بها، أما أن يكون التدبر هو فهم المعنى ووضعه جانب ثم مراحله ثم أركانه وسننه وواجباته لا تعدو أن تكون هذه تكلفات وتزيدات هي التي أبعدت الناس عن فهم القرآن حقيقةً وعن معنى التدبر وعن ثمرة التدبر الذي هو العمل.

هناك أمورٌ كانت في القرون المفضلة الثلاثة الأولى نحن خالفنا كثيرًا منها، وأصابنا بالبعد عنها شيءٌ كثيرٌ من الضعف والتخلف، ومن هذه الأسباب:

أولًا: انشغال بعض العلماء في التعليم بالتركيز على الحفظ وعنو بالقرآن وبزيادة الأجر وحفظ آياته كما جاء في الحديث الذي أخرجه الترمذي عن ابن مسعود: «مَن قرأ حرفًا من كتاب الله فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها لا أقول: (الم) حرف، ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف» لطلب الأجر، وتقوم مدارس التحفيظ على هذا الأساس، نعم التحفيظ له أجره، وله ثمرته وله خيرٌ كثيرٌ، لكن التركيز على التدبر للطفل الصغير وللعامي وللعالم هو أهم من تلاوة القرآن، وأهم من حفظه، لأن التدبر هو الثمرة العملية للقرآن، ونحن إذا كنا نتحدث عن التدبر يجب أن نتحدث عن هذا المعنى الحقيقي الذي يجب أن يكون فيه.

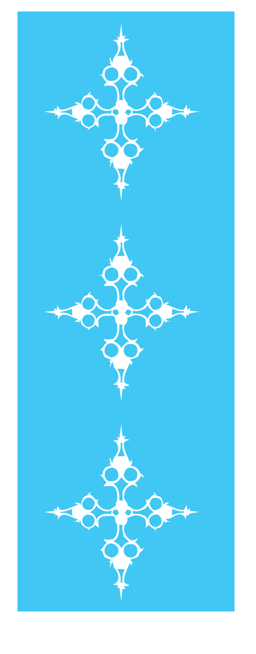
ثانيًا: ضعف النظر والاستنباط وهذا هو الذي بحثناه ونبحثه في هذا الملتقى، وهو البعد عن اللغة وعدم فهم دلالاتها.

ثالثًا: عدم ترتيب الأولويات وتقديم الأهم على المهم في قضية الأحكام التي دل عليها القرآن، فنحن أحيانًا نأخذ بالتحسينيات على حساب الحاجيات، وأحيانًا نأخذ

بالحاجيات على حساب الضروريات، في حين أن القرآن دعا إلى مراعاة الأولويات.

فالعقيدة وما يتعلق بها مقدمة على كل حكم من الأحكام، ثم تليها بعد ذلك الأحكام، وتتفاوت درجات الأحكام، ثم تأتي بعد ذلك الآداب والأخلاق والسلوك، أما أن يؤخذ ظاهر اللفظ في دلالة الأمر، الأمر يدل على الوجوب، والنهي يدل على الكراهة في مجمع الأمور كلها دون تفصيل؛ فأعتقد أن هذه الاصطلاحات التي أخذناها ولا زلنا نقررها كثيرًا في أصول الفقه ونحو ذلك وفي التعليم مما أبعدنا عن تدبر القرآن وعن فهم القرآن.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



د. محمد بن عبدالرحمن الشايع

التعقيب الثاني

الحمد لله رب العالمين، والصلاة على خاتم المرسلين، وآله وأصحابه والتابعين، وبعـد:

فقد أحسن الباحث الفاضل فيما قدمه بين يدي المنتديين في هذا اللقاء في ورقته حول تحرير معنى التدبر عند المفسرين، والتي تناولت خمسة مباحث:

أولها: في التعريف اللغوي للتدبر.

وثانيها: في معنى التدبر عند المفسرين.

وثالث هذه المباحث: عن إضافة التدبر للقرآن الكريم واختصاصه به وتحوله إلى حقيقة عرفية.

والمبحث الرابع: خصه عن الفرق بين التدبر والاستنباط.

وآخر المباحث وهو خامسها: عن نتائج البحث؛ فهو في حكم خاتمة البحث.

ولاحاجة لإعادة ماسبق ذكره وعرضه ؛ فقد أجاد وأفاد.

وظاهرٌ أن البحث محصور الموضوع والمضمون من خلال تحديد العنوان وأنه تحرير لمعنى التدبر، ومن هنا قد لا يحق لنا أن نطالب الباحث -وفقه الله- بما هو

خارج عن عنوان بحثه؛ فهو بحث لغوي دلالي.

والتدبر أو تدبر القرآن الكريم ليس مصطلحًا مشكلاً يحتاج إلى تحريرٍ فهو لفظٌ واضح المعنى، ظاهر الدلالة، حاجته إلى الامتثال والتطبيق أكثر من حاجته إلى تحرير الاصطلاح، فدلالته اللغوية هي دلالته التفسيرية مع مراعاة السياق والسباق واللحاق للنص القرآني الكريم.

وقد اقتصر البحث في بيان المعنى التفسيري على متأخري المفسرين، وكان حري به استدعاء أقوال الصحابة والتابعين ومتقدمي المفسرين.

كما أن الكاتب الكريم أفرد الفرق بين التدبر والاستنباط بمبحث خاص أبان فيه -وأحسن- الفروق بينهما والتي تمثلت في ثلاثة أمور:

١- أن التدبر أصلٌ للاستنباط وسبب له.

٢- وأن التدبر عامٌّ، والاستنباط خاصٌّ بخواص العلماء.

٣- وأن التدبر للمعاني الكبيرة والمقاصد العظيمة، والاستنباط لدقائق المسائل وفروعها، وكان يحسن بالباحث أن تتسع نظرته؛ فتشمل الفروق بين التدبر والمصطلحات والعبارات المقاربة كالتفكر، والتذكر، والتعقل، والتعلم، والتفسير، بتحديد وتحرير معانيها وذكر الفروق الدقيقة بينها حيث الدراسة لغوية دلالية.

وما ذكره الباحث الفاضل واختاره من تعريف تدبر القرآن بأنه: (تأمل القرآن بقصد الاتعاظ والاعتبار)، يحتاج مزيد تأملٍ، فإن الاتعاظ والاعتبار إنما هو نتيجة من نتائج التدبر، وثمرة من ثمراته، لا تنحصر به، ولا تقتصر عليه، وقد تكون خاصة بالمؤمن به، وثمرات التدبر أكثر من ذلك.

فقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا

كَثِيرًا ﴾ [النساء:٨٢] هي دعوة لمعرفة مصدرية القرآن الكريم، وأنه ليس بشري المصدر، وإنما هو إلهي التنزيل فهي دعوة للإيمان، ثم يأتي بعد ذلك الاتعاظ والاعتبار، فجعلها ضمن التعريف فيه نظرٌ حيث هي خارجة عنه وزائدة عليه، ولو قيل عن تدبر القرآن: إنه تأمل القرآن، والنظر في معانيه، والتبصر بدلالاته ومآلاته وما فيه؛ أو نحو ذلك لكان حسنًا.

كما أن نتائج البحث التي أفردها الكاتب الكريم بمبحث خاص، تضمنت ما لم يتضمنه البحث، من ذكر بعض فوائد التدبر وثمراته وهي فوائد عظيمة حقها البسط في القول والاستقلال في المبحث.

كما أن عوائق التدبر، وأقفال القلوب من شهوات النفس، وشبهات العقل، وتوهين الشيطان وتوهيمه تحتاج دراسة بل دراسات.

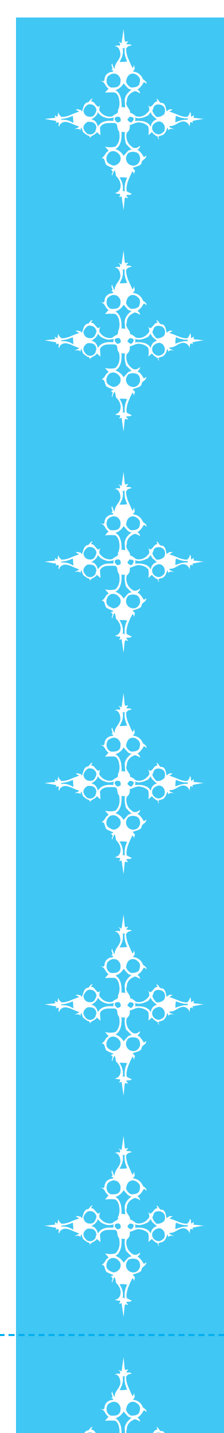
ولا بد من القول بأن ترك التدبر من هجر القرآن والتفريط والتقصير في حقه الذي شكا منه ﷺ: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾ [الفرقان:٣٠].

وفي الأخير لا بد من تكرار شكر الباحث على جهده، وجودة بحثه، وما ذكر ليس أكثر من وجهة نظر.

نسأل الله جلت قدرته أن يجعلنا من أهل القرآن، وأن يرزقنا تلاوته وحفظه، وتدبره، والدعوة إليه، والعمل به على الوجه الذي يرضيه عنا ويرضاه.

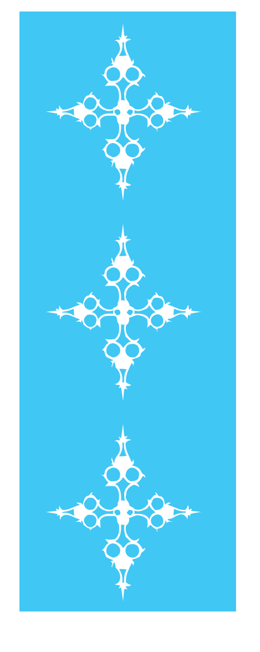
وكتبه

أ.د. محمد بن عبدالرحمن الشايع
أستاذ الدراسات القرآنية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض



مداخلات الجلسة الثانية





د. محمد بن سعد الأيوبي

المداخلة الأولى

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على مَن لا نبي بعده.. محمد وآله وصحبه.. وبعد:

فأشكر الله عز وجل على ما منَّ به من هذا اللقاء، وأشكر الإخوة القائمين على هذا اللقاء، وأسأل الله عز وجل أن يجعل ذلك في موازين حسناتهم.

ما لدي هنا في هذا المقام يركز على أمور عدة:

الأمر الأول: إن كثيرًا من الإخوة توقفوا كثيرًا عند الآيات التي وردت في التدبر فيما وردت هذه الآيات، وأنها وردت في الكافرين، وفي نظري أنه لا ينبغي أن نتوقف كثيرًا عند قضية فيمن نزلت فيه هذه الآيات؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فهذا يكفينا: إن الله عز وجل أمر بالتدبر، وأنكر على الذين لا يتدبرون القرآن، وهذا يكفي.

الأمر الثاني: إن هناك خلطًا بين معنى التدبر، هل هو مفردة لغوية، أم لفظة قرآنية، وبين تطبيقها ومعرفة مؤيداتها ومجالات التدبر، فإننا كثيرًا ما نطلب ممن يفسرها من الناحية اللغوية أن يأتي بأشياء تتعلق بالتطبيق، وهذا خلط بين المفهوم اللغوي لكلمة

التدبر، وبين ما يتعلق بتطبيقاتها.

أيضًا؛ ذكر عدد من الأمور، وفرق بينها وبين التدبر، أو جعلت مراحل من مراحل التدبر، كالتأثر ونحوها، وفي نظري أن هذه الأمور إنما هي نتائج للتدبر؛ فالتأثر نتيجة من نتائج التدبر، والاستنباط نتيجة من نتائج التدبر..

ثالثًا: إن التدبر عند المفسرين ينبغي أن يذكر في ضمنه الأمور المعينة على التدبر، إذا أردنا أن نبحثه بصفة عامة، أن نذكر مؤيداته، وأن نذكر عوائقه، وهذا أمر مهم.

بقي الفرق بين التدبر والاستنباط، وقد أجاد الشيخ فهد حفظه الله تعالى في بيان هذا الفرق، غير أني ربما أضيف بعض الأشياء، فالذي يبدو من حيث الدلالة اللفظية بين التدبر وبين الاستنباط:

أولًا: التدبر يعنى في الغالب بالأمور الظاهرة، ولهذا دُعي إليه جميع الناس؛ لأنه أمر واضح، وكان عامًّا، بينما الاستنباط هو استخراج المعاني الخفية؛ فهذا تفريق من حيث المعنى اللغوي..

ثانيًا: من حيث المخاطب به؛ فالتدبر خوطب به جميع الناس، بينما الاستنباط إنما هو لأهل العلم.

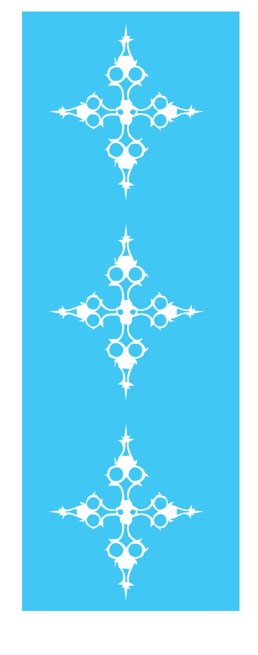
وثالثًا: من حيث الشروط والضوابط؛ فالتدبر لم يشترط فيه شروط للتدبر، بينما الاستنباط يحتاج إلى شروط وإلى ضوابط معينة يذكرها العلماء في كتبهم.

رابعًا: من حيث الشمول؛ لو أردنا أن نؤصل ذلك نقول: إن النسبة بين التدبر والاستنباط هي العموم والخصوص المطلق، وهذا أشار إليه الأخ فهد في ورقته.

خامسًا: من حيث الغاية من كل منهما؛ فالغاية من التدبر هي الاتعاظ والاعتبار، والغاية من الاستنباط هي بيان الأحكام وما أشبهه من الفوائد.

بقي نقطة أشار إليها الأستاذ الدكتور الشايع ، وهي مسألة: حكم التدبر، وقد أشار الطبري والقرطبي إلى وجوب التدبر، وهذا قد ذكره الدكتور.

وأيضًا بقية نقطة؛ وهي ما أثاره الدكتور عويض في أنه لماذا لم يبحث التدبر عند العلماء السابقين؟ والدكتور الشايع أتى على شيء من ذلك، وأرى أن هناك سببًا آخر غير ما ذُكر، وهو أن التدبر يختص بالإنسان في خاصة نفسه، حيث يتدبر فيزداد إيمانه، ويحصل له الإيمان وما أشبه ذلك، ولهذا لم يعنى به العلماء كثيرًا لأنه ليس متعديًّا في نفسه، وإنما هو وسيلة إلى أمور ربما يكون متعديًّا إليها، فيحصل للإنسان التدبر والتأثر، ويحصل له العلم والمعرفة، ونحو ذلك، بينما عني العلماء بما كان له تعدٍّ كالاجتهاد، والاستنباط، وغيره، لأنه يؤدي إلى استخراج الأحكام، هذا والله تعالى أعلم، وجزاكم الله خيرًا..



د. محمد بن حسين الجيزاني

المداخلة الثانية

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله..

في البداية أتقدم بالشكر الجزيل للقائمين على هذا الملتقى، وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل ذلك في موازين حسناتهم..

في البداية أؤيد ما ذكره الشيخ فهد أن التدبر باقٍ على معناه اللغوي، فلا حاجة إلى البحث والتنقيب عن معنى شرعي جديدٍ له؛ لذلك ينبغي أن يقتصر في معنى التدبر على المعنى اللغوي، وما ذكره المفسرون هو المعنى اللغوي نفسه.

أقول: إن هذا الملتقى ملتقى مبارك، وإننا إذا خرجنا بنتيجة عريضة، وعنوان كبير لهذا الملتقى؛ فهو من أجل أن نصل إلى نتيجة كبرى وهي: (إن تدبر القرآن الكريم مقصد من مقاصد إنزال القرآن)، فإذا ثبت أنه مقصد؛ فينبغي أن يتوصل إليه ويتوسل إليه بوسائل شتى.

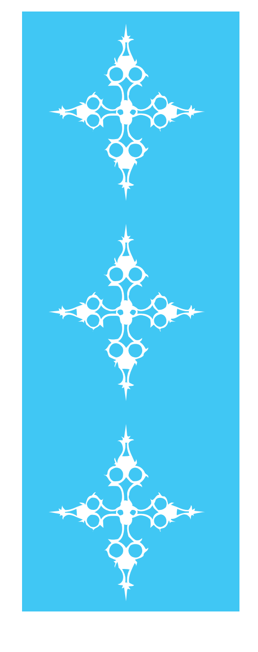
إن تدبر القرآن طريقة راقية للوعظ والتذكير، والنصيحة والتوجيه، فبدلاً من أن توجه بعض الناس وتعظه وتذكره، فلو أنك فتحت له باب تدبر القرآن لتغيرت أحواله، به يزداد إيمان المؤمن، وبه يحصل على درجة عالية من التقوى واليقين، وبه

يتوب العاصي، وبه يؤوب الكافر ويسلم.

وهذا المقصد له وسائل، ولذلك أنا أقترح أن يكون الملتقى القادم في الوسائل بطريقة احترافية، وأن ننتقل بعد تحرير المصطلحات المتعلقة بالتدبر، الذي كان هو موضوع هذا الملتقى للبحث بطريقة معاصرة في الوسائل الممكنة المجدية النافعة لنشر شعيرة التدبر لدى أكبر شريحة من المسلمين، كما هو هدف هذا المركز..

أريد أن أختم بأن مقاصد الشريعة الإسلامية إذا عُرِّفَتْ وأُظْهِرَتْ فإنها تعين على التدبر كثيرًا؛ (حفظ: الدين، والعقل، والنفس، والنسل، والمال)، ونحن إذا تأملنا القرآن؛ فإن آياته كلها تدور حول هذه الكليات الخمس بالحفظ والعناية وجودًا وعدمًا..

هذا ما تيسر، وجزاكم الله خيرًا..



د. عمر بن عبدالله المقبل

المداخلة الثالثة

فيما يتعلق بتساؤل الدكتور عويض..

ربما يكون عدم التصنيف في التدبر استقلالًا هو كغيره من الفنون التي لم تصنف إلا في القرون المتأخرة، فكما لم يحتاج الناس إلى التصنيف مثلاً في كتب السنة والرواية في القرن الثاني، فكذلك لم يحتاجوا إلى التصنيف استقلالاً إلا إذا وجدت حاجة، مع أن كلامهم مبثوث، ومَن قرأ مقدمة الطبري، ومقدمة القرطبي، وكلام أهل العلم كابن القيم وابن تيمية وغيرهم من العلماء وجد أن كلامهم في العناية بالتدبر والتأكيد عليه مبثوث في كتبهم..

هذه لعلها يمكن أن تضاف لما تقدم به أصحاب الفضيلة..

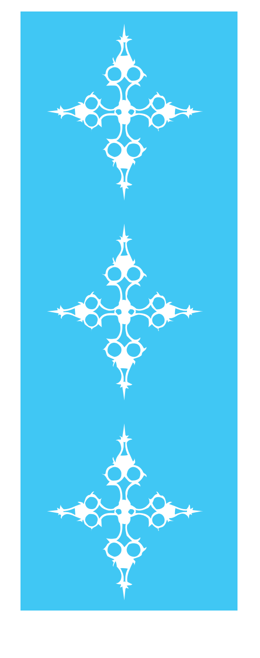
تعليق آخر على ما يتعلق بتسمية السورة.. سأطرح أسئلة ويمكن أن يتكرم الشيخ مساعد بالإجابة عنها:

ألا يمكن أن يفرق بين السورة التي لم يرد لها إلا اسم واحد، وبين السورة التي ورد لها أكثر من اسم؟

سؤال آخر: ماذا يعني مثلاً أن يسمي النبي ﷺ سورة البقرة انطلاقًا من قصة

البقرة وتشتهر بهذا الاسم، مع أن في سورة البقرة قَطْعًا آيات أعظم من هذه القصة، كآية الكرسي وغيرها؛ فلماذا؟

هذه أسئلة لعلها تفتح النقاش في هذه القضية..



د. هاشم الأهدل

المداخلة الرابعة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين..

مداخلتي على أستاذ التفسير الدكتور مساعد، لكن للتنبيه، ولست من أهل التفسير، ولكني أتشبه بهم:

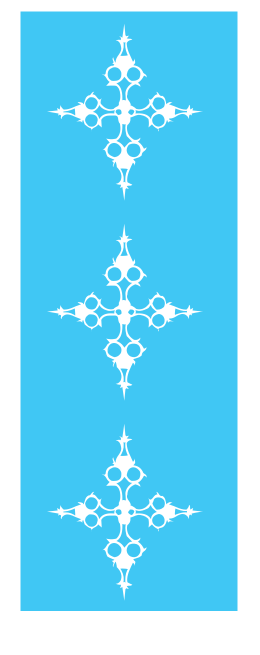
فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالكرام فلاح

ذكر الشيخ في ورقته أن التعامل مع القرآن خمسة مراتب: القراءة أو التلاوة، التفسير (فهم المعنى المراد)، التدبر (بمعنى التفكر)، التأثر (بمعنى الاعتبار والاتعاظ)، ثم العمل به (كالتحاكم إليه أو الاستشفاء به.. وغير ذلك).

أقول: أيها الإخوة.. أيها الفضلاء.. إن الواقع العملي والسلوكي يؤكد هذا التقسيم؛ فنحن ولله الحمد في جمعيات تحفيظ القرآن الكريم، طلابنا وأبناءنا يحفظون كتاب الله عز وجل وبهذا يكون قد حققوا المرحلة الأولى والمستوى الأول وهو القراءة أو التلاوة، وقد نجحت ولله الحمد هذه الجمعيات نجاحًا كبيرًا في تحقيق هذا المطلب، وإن كنا نأمل المزيد؛ لكن المستوى الثاني وهو التفسير (فهم المعنى المراد)،

برأيي وحسب تجربتي القاصرة لم يصل إليه كثير من الطلاب المتخرجين الحفاظ لكتاب الله عز وجل، فلو أجرى أحدكم تجربة شخصية، وسأل بعض الحفاظ عن آية (غاسق إذا وقب)، أو (لابثين فيها أحقابًا)، أو غير ذلك لربما لم يجد الحافظ جوابًا، ولم يستطع أن يجيب إجابة صحيحة، فلذلك نحن نؤكد مرة أخرى على أهمية أن نصل بالطلاب إلى المرحلة الثانية وهي التعلم للمعاني من أجل أن يصلوا إلى المطلوب.

ولعله يمكن البحث في هذه المستويات، وتزود بدلائل وشواهد من أحوال السلف، ففي أحوال السلف وقصصهم وسيرهم ما يؤكد طريقة تدبرهم للقرآن، ولذلك أقترح أن يكون هناك توصيات، وأن تكون هناك بحوث في دلائل وشواهد من تعامل السلف مع هذه المستويات الخمسة وإن كانت مبثوثة، وربما بعضها جمع؛ لكن لعل التركيز عليها يكون أحسن، أتمنى أن أكون وفقت في توضيح الفكرة، ولم تقصر بي العبارة، أو أتأثر باسم هذه القاعة فتكون عباراتي مقصورة.



د. عبدالله عبدالغني سرحان

المداخلة الخامسة

بسم الله الرحمن الرحيم

أشكر الأخوين الكريمين الدكتور/ مساعد بن سليمان الطيار، والدكتور/ فهد بن مبارك الوهبي، على ورقتي العمل اللتين قدماها، ولقد أفدت كثيرًا مما استمعت إليه، ولكن لي مداخلتان سريعتان، فأرجو أن تسمح لي المنصة الكريمة ببعض الوقت..

المداخلة الأولى: ذكر الدكتور مساعد أن آيات التدبر وردت في سياق الحديث عن الكفار، ثم قال: ولا بأس بتنزيلها على حال المؤمنين..

أقول: هذا حق؛ ولكن أيضًا فآيات التدبر لم تنزل بالكفار بوجه عام، بل وردت آيتان في الحديث عن المنافقين الذين توعدهم الله عز وجل بالدرك الأسفل من النار، في سورة النساء وسورة محمد، ففيهما خطاب للمنافقين في المدينة؛ لأن السورتين مدنيتان، وآية واحدة وردت عن كفار قريش في سورة المؤمنون، وفرق واضح جدًّا بين المنافقين والكفار كما هو معلوم، والآية الأخيرة محتملة والتي وردت في سورة (ص)، ولذلك سألقي الضوء سريعًا على هذه الآيات الأربع؛ فأقول: لم يرد مصطلح

التدبر ذاته مطلقًا في القرآن الكريم بهذه الصفة، بل وردت صيغ أخرى من مادة (د ب ر) في الذكر الحكيم ومما نحن فيه، ورد الفعل المضارع المتصل به واو الجماعة (يتدبرون) من الفعل الماضي الخماسي (تدبر) مرتين، في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:٨٢]، وقال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد:٢٤]، والخطاب في آية النساء موجه للمنافقين الذين يتحدث السياق القرآني عنهم، قبل هذه الآية، والاستفهام في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ﴾ استفهام إنكاري، ينكر عليهم عزوفهم عن القرآن وعن قراءته بتدبر وأناة، والخطاب في آية سورة محمد، موجه للمنافقين الذين يتحدث السياق القرآني عنهم قبل هذه الآية أيضًا، والمراد بالقرآن في سورة النساء وسورة محمد القرآن كله، حيث جاء معرفًا بـ(أل) التي تفيد (الاستغراق)، نصل من ذلك إلى أن الذي لا يتدبر القرآن كله هو المنافق؛ لأن الآيتين وردتا في المنافقين، وأن المتدبر له كله هو المؤمن، هذا بمفهوم المخالفة، وأن المتدبر هو القرآن كله، مسموعًا أو مقروءًا، فمعنا إذًا مصطلحان قرآنيان مستنبطان من هاتين الآيتين: المُتدبِّر؛ وهو(المؤمن)، والمتدَبَّر؛ (وهو القرآن).

ونستنتج من ذلك أيضًا أن مَن تدبر القرآن يصل إلى نتيجة فحواها أن القرآن كله كلام الله ليس فيه اختلاف البتة؛ لأنه لو كان من عند غير الله لوجد المتدبر فيه اختلافًا، فلما لم يجد المتدبر فيه اختلافًا ثبت أن القرآن من عند الله، فمن أراد من المنافقين والكفار أن يقف على تلك الحقيقة عليهم أن يقرؤوا القرآن كله بتدبر، أما القراءة السريعة والهذ والهذرمة التي لا تأمل فيها فلم توصل إلى تلك النتيجة.

كما يلاحظ أن سورة محمد قد أشارت إلى أن آلة التدبر هي القلوب المفتوحة، أم

القلوب المغلقة القاسية التي كأنها مكبلة بالأغلال والأقفال الحديدية لا ينفذ إليها نور الإيمان ونور القرآن.

أما الآية الثالثة؛ فوردت كذلك بالفعل المضارع (يدبروا)، من الماضي الخماسي (تدبروا)، على اختلاف في القراءات، قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون:٦٨]، والخطاب فيها كما هو واضح في الآية السابقة في قوله تعالى: ﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴾ [المؤمنون:٦٧]، حيث كان كفار مكة يسمرون ويسمون القرآن بالهجر، ويقولون: إنه سحر وشعر وكهانة، فالخطاب لكفار مكة، والاستفهام في قوله: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ ﴾ استفهام توبيخي إنكاري، ينعى عليهم أنه لو تدبروه لصدَّقوا بما فيه، وعلموا أنه كلام رب العالمين، وعبر هنا عن القرآن بالقول؛ لأنهم يسمعونه مقولاً، ولا يقرؤونه قراءةً، وهو تعبير دقيق في هذا السياق.

نستنتج من هذا أن كفار قريش لم يكونوا من المتدبرين في القرآن، وبمفهوم المخالفة -كما يقول الأصوليون- يكون المؤمنون هم المتدبرون، والمتدبَّر هو القول المراد به هنا القرآن الكريم أيضًا.

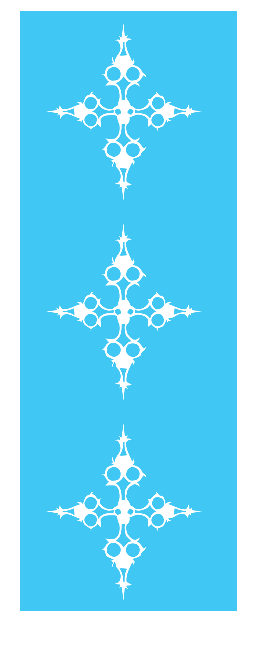
أما الآية: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص:٢٩]، فالواو ليدبروا وهو واو الجماعة، فقد تعود إلى المؤمنين، وأنا أرى هذا كما هو بين من السياق السابق، والمفعول الواقع عليه التدبر هو آيات الكتاب، وهذه ملاحظة كانت في الجلسة الأولى، حيث ذكر بعض الإخوة أن الآيات للمنظور والمسطور، ولكن الضمير في آياته يعود على الكتاب، وهذا نص واضح وصريح أن التدبر في آيات الكتاب، وهذه لفتة رائعة ومفارقة دقيقة: (المؤمنون يتدبرون في المكتوب نصًّا ويتدبرون في المقروء والمسموع بالفحوى)، لأن مَن يتأمل يجد أن التدبر

في المكتوب جاء في آية واحدة في سورة (ص)، والتدبر في القرآن جاء في آيتين (النساء، ومحمد)، والتدبر في القول ورد في آية (المؤمنون)، وكأن الذكر الحكيم جعل التدبر في المقروء المسموع أكثر، هذا شيء بدهي وطبيعي؛ لأن مَن يحسن سماعًا يحسن فهمًا، وتعقلاً واستجابةً، أما المقيد المكتوب، فإن المرء لو لم يتدبره من المرة الأولى فسيعود إليه مرة بعد أخرى، ولن يتفلت منه، لأنه مقيد مكتوب..

وهكذا يلوح لنا أن الذكر الحكيم يقصر التدبر على شيئين: (القرآن مقروءًا ومقولاً، والقرآن مكتوبًا)، وما دام أن القرآن هو منطلقنا في تحرير وتأصيل المصطلحات فالذي يتناهى مع ذلك أن يكون التدبر مقصورًا على القرآن مكتوبًا ومسموعًا، ومتابعة للذكر الحكيم لا يصح أن يطلق مصطلح التدبر على التفكر في الكون والنفس الإنسانية؛ لأن القرآن لم يطلق عليه ذلك، بل أطلق عليه عبارات أخرى مثل: التفكر، والتذكر، والنظر، والاعتبار، كما سيأتي.

وما جاء على أئمتنا في كتب التراث إنما هو من قبيل التسامح في العبارة فحسب، وليس هذا من مصطلحات القرآن الكريم.

وأخيرًا؛ مما ينبغي الإشارة إليه، فكما أن التدبر يكون في القرآن الكريم رسمًا وخطًّا وكتابةً وقراءةً وسماعًا، يكون التدبر كذلك في الحديث الشريف كتابة وقراءةً وسماعًا، كذلك الحال في علوم المسلمين المستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة، وكلام العرب كله شعره ونثره، وهكذا نتوسع بالتدبر إلى جميع آفاقه ومجالاته الرحبة، وليس هذا منا ابتعادًا عمَّا أصَّلناه من قبل؛ ولكنه قياس عليه، وهو قياس صحيح إن شاء الله.



د. شايع الأسمري

المداخلة السادسة

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين.

أبدأ ببحث الدكتور مساعد، فقد ذكر مقاصد السور، وكأني فهمت من كلامه أن المتأخرين أجادوا في ذكر مقاصد السور، وأقول: إن المتقدمين نسبيًّا اجتهدوا في هذا الأمر، منهم (الفيروزآبادي) عليه رحمة الله في «بصائر ذوي التمييز»؛ فإنه قد أجاد إجادة طيبة، ولا أظن سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ وابن عاشور إلا أنهما قد اطلعا على هذا الكتاب الجيد، وكذلك البقاعي في «نظم الدرر»، هو يذكر شيئًا من هذا، فنعيد المسألة، بين أصحابها في الأصل، وإن كان المتأخرون قد أفادوا في هذا الموضوع.

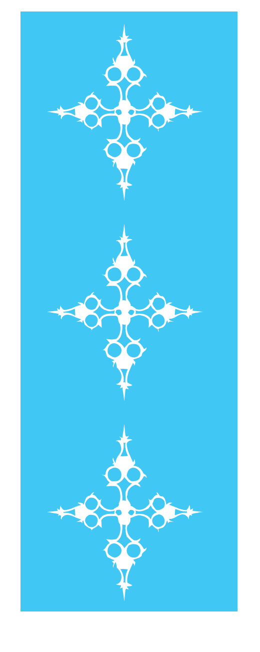
أما ما يتعلق ببحث الدكتور فهد جزاه الله خيرًا؛ فهناك مسألة أؤكد عليها - وقد سبقني إليها الدكتور الفاضل الشايع-، وهي مسألة أن يذكر الزمخشري عشرين مرة في بحثه، وهو عشرين صفحة، ولا يذكر ابن عباس، ولا عبد الله بن عمر ولا العبادلة ولا الصحابة ولا التابعين، هذه مسألة فيها نظر يا أحباب، وقد علمنا شيخنا الدكتور/ حكمة بشير أنه لا يكفي أن أقول: (قال الحسن)، (قال ابن عباس)، بل نرجع إلى السنة، والمفسر يعرف الحديث، ويعرف الفقه وأصوله، وأما الانفصالية

بين التفسير وبقية العلوم لا نؤيدها، ولا أحد يؤيدها، ولا يمكن أن يقول أحد: أنا لا أعرف في هذا العلم، إنما أنا مفسر ولست محدثًا.

نرجع أيضًا إلى كتب أهل الحديث، وما من أثر إلا وتقريبًا قد حكم عليه العلماء، جزاهم الله خيرًا؛ فأنا أرجوا في الأبحاث المستقبلة أن نرجع إلى منابع التفسير الأصلية.

أخيرًا؛ في تفسير سورة محمد: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد:٢٤]، ذكرت الآية وكأنها فقط في المشركين، نعم الآية لا شك أنها تشمل المشركين؛ لكن سياق الآية ما قبلها وما بعدها يدل أنها في المنافقين، فاذكر المنافقين، ثم اذكر مَن شئت.

المسألة الأخرى وأختم بها: مسألة وفيات العلماء؛ فابن عطية مثلاً توفي سنة ٤٨١ هـ، وكذلك الشيخ عبد الرحمن السعدي عليه رحمة الله مات سنة ١٣٦٧هـ، أيضًا الجرجاني سنة ٨١٦هـ، فلا نتساهل في عدم ذكرها، بارك الله في الجميع، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.



د. عويض العطوي

المداخلة السابعة

عندي قضية منهجية بحتة، فالموضوع عندنا هو: (مفهوم التدبر تحرير وتأصيل)، طبعًا أنا عتبي على شيخنا الكريم د. مساعد الطيار، فالموضوع الذي طرح ليس في (مفهوم التدبر تحرير وتأصيل)، وإن كان الذي طرح موضوع رائع جدًّا، لكن ممكن أن نقول: إن موقعه غير اليوم، ولذلك كنت أتمنى من القضايا ومن المداخلات أن تنصب في قضية واحدة نحن جئنا لأجلها.. **هذا الأمر الأول.**

الأمر الثاني: أنا أيضًا عندي سؤال له أهمية كبير جدًّا في قضية التدبر: ما هو الدليل على أن التدبر في آيات من القرآن دون غيرها؟ مَن الذي يخرج أي آيات حتى آيات العقائد من قضية التدبر؟ نحن لا نتكلم عن التأويل، نحن نتكلم عن التدبر، وأنا متأكد أننا لو حررنا سنجد آيات تحدث عنها ابن القيم وابن تيمية فيها قضايا تخص الآخرة والغيبيات.

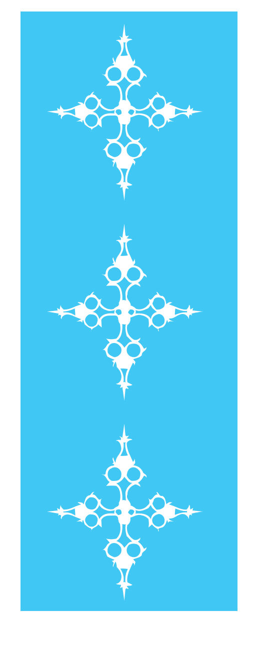
القضية: نحن نحتاج إلى دليل إخراج جزء من القرآن لا يدخل فيه التدبر، أنا في نظري أن هذا الأمر يحتاج إلى نظر معين.

أقول: ملحوظة الأستاذ د. فهد، حَرِيَّة بأن يهتم بها، وهي قضية ورود آية

الاستنباط بعد آية التدبر، أنا أقول: إنه يحتاج إلى اهتمام في هذه القضية.

أخيرًا: فإني لاحظت ملحوظة لعلها من التدبر، لاحظت أن كليات المعلمين استحوذت على اللقاءات الثلاثة الأولى، ولاحظت أن تبوك ذكرت مرتين، وفي الكتاب الذي ذكره الدكتور «الرسالة التبوكية» وهي (زاد المهاجر) أيضًا ثلاث مرات، لعل هذا من الموافقات الطيبة.

هذا؛ وصلى الله وسلم على نبينا محمد.



د. محمد عبدالله جابر

المداخلة الثامنة

نتجاوز الثناء اختصارًا..

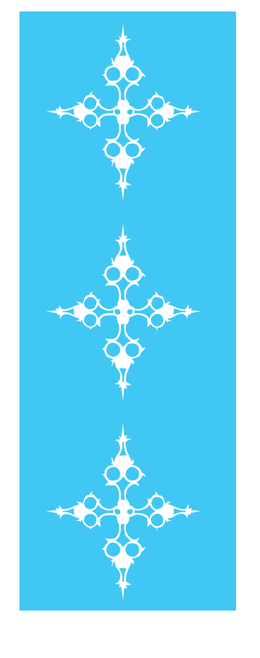
قضية أن التدبر يتعلق بالأصول العظيمة والمسائل الكبيرة، مما تكرر ذكرها، ولعلها تكون من أهم الأمور التي -من وجهة نظري- تحتاج إلى اهتمام، خاصة في (جوال تدبر)؛ لأني أتصور أن أكثر الرسائل التي ترسل في هذا الموضوع دقائق ولطائف، فيحتاج الأمر إلى إعادة نظر في هذا الباب.

الأمر الآخر: لعله قد يفهم ولا أظنه مرادًا لبعض المشايخ أن العمل هو الذي ينبغي أن نهتم به، وأما التنظير فهو سبب الانصراف... قد يفهم من هذا أن مثل هذا الاجتماع يدخل في ما حذروا منه، وأنا أؤكد أن هذا التحرير والتنظير من العمل، بل إن ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ أكد على أن معرفة حدود ما أنزل الله من أهم الأشياء التي تجب على المسلم، فتحديد معنى التدبر هو منطلق للعمل بعد ذلك، فلعل هذه القضية تكون في الحسبان.

نسأل الله أن يوفق الجميع لما يحب ويرضى..

في قضية التدبر أوقفتني قضية وهي: لماذا لم يذكر تدبر القرآن في السنة؟ حاولت

أن أتذكر كثيرًا وأتأمل حسب ما أعرف لم أذكر حديثًا فيه لفظ تدبر القرآن، فهذه المسألة تحتاج إلى نظر حتى يحرر هذا المصطلح والله أعلم..



د. إبراهيم الحميضي

المداخلة التاسعة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أشكر الإخوة المنظمين والداعمين، وأعضاء الملتقى، والمشاركين.

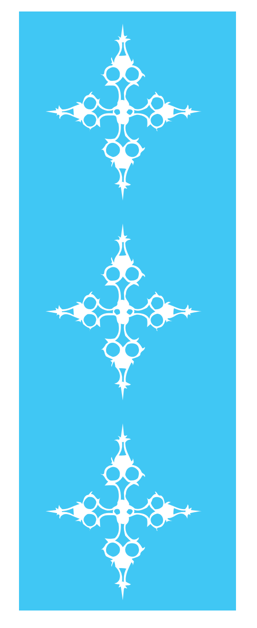
أنا في الحقيقة في رأيي القاصر أنه ليست مشكلة الناس اليوم تحرير معنى التدبر والفرق بينه وبين الاستنباط، ولَمْ لَمْ يؤلف فيه المتقدمون، فنحن فيما تبقَّى بحاجة أكثر إلى أساليب عملية للتدبر، سواءً من خلال (جوال تدبر)، أو من خلال الملتقى القادم..

وحتى لا نطيل في هذه المسألة، فقد أشار شيخنا الدكتور سعود إلى قضية الحفظ، وأنه ليس المراد تحفيظ الطلاب فقط، وأن المشاهد فعلاً أن جماعات التحفيظ المنتشرة، وحلق التحفيظ، لم تؤثر كثيرًا في أخلاق الطلاب وآدابهم، ولذلك هناك دعوات إلى أن تقتصر هذه الحلق على التلاوة فقط.

فأقول: ليست المشكلة في الحفظ، وأنهم لم يُدرسوا معاني القرآن، بل المشكلة في المحفظ أو المدرس، وإلا في رأيي لو اقتصر على التحفيظ؛ لكن من مدرس قد

وفق وأخلص وعمل وفهم فإنه سيؤثر تأثيرًا كبيرًا؛ لكن المشكلة إذا كان المعلم أصلاً غير متربي وغير متأدب! ومن هنا أُتينا، وأذكر بالمناسبة أننا قرأنا على الدكتور/ سيد الشنقيطي -حفظه الله- فترة بسيطة، ولكن كان لها أثر كبير علينا، وهو أكثر مَن أثر فينا، وذلك لما نحسبه فيه من الإخلاص والتقوى، بالإضافة إلى الكلمات التي يلقيها على الطالب كلما قرأ عليه، فإذا مر بآية فيها ذكر المتقين، قال: جعلنا الله وإياكم من المتقين، وإذا جاء ذكر المحسنين؛ قال: جعلنا الله وإياكم من المحسنين، وإذا جاء ذكر النار؛ قال: أجارنا الله وإياكم من النار، وإذا جاء ذكر الجنة؛ قال: أسأل الله أن يجعلنا وإياكم من أهلها..

فكانت مثل هذه الكلمات إلى ما يتصف به من الحزم لها أثر كبير، فأنا أقول: بقاء الحفظ في الحلقات والتركيز عليه في السنين المبكرة وتأخير الاستنباط والتفسير إلى السن المتأخرة، ليس هو المشكلة بل العناية بالمدرس الكفؤ، فهذه القضية التي نحتاجها، ولكم جزيل الشكر..

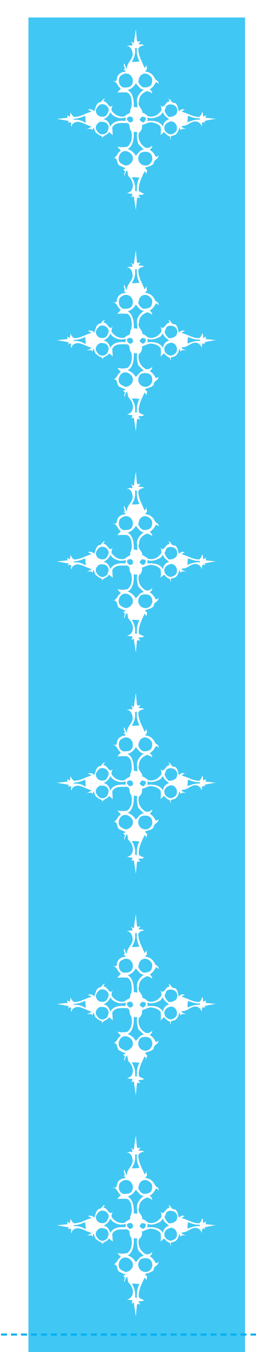


الشيخ/ نايف بن سعيد الزهراني

المداخلة العاشرة

أنا أقترح أن نجعل التدبر وسطًا بين الورقتين؛ لأن في ورقة الشيخ مساعد فيه توسيع لمعنى التدبر، حتى أدخل فيه التفسير، ونحن قد استقر عندنا في المعنى اللغوي ما قرره الشيخ فهد في المعنى الاصطلاحي من أن التدبر يحتاج إلى نوع تعقل وتفكر، وليست كل معاني الآيات تحتاج إلى ذلك، كـ ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص:١] وغيرها من الآيات.. فهذا فيه توسيع لمعنى التدبر، في المقابل يوجد قيود كثيرة ذكرها الشيخ فهد: التدبر مبني على معرفة التفسير، كذلك مرهونة بسلامة القلب، وما إلى ذلك.. فنحو هذه القيود تقيد الإطلاق العام الذي ذكره الله عز وجل في قوله: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [النساء:٨٢]، بحيث أننا نجد في بعض المواقف تدبرًا لا تنطبق عليه هذه الشروط، ومع ذلك فهو صحيح مقبول، وصاحبه امتثل أمر الله عز وجل في هذه الآية.

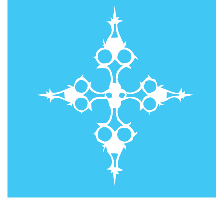
واقتراح أخير.. ولعل المشايخ أصحاب الورقتين يتفضلون ببيانه، لماذا لا يكون التدبر على مستويات أو مراتب، بحيث أن هناك نوع من التدبر حق مباح لكل من سمع آية أو قرأها، ونوع من التدبر آخر لا يحل إلا لمن قام بشرطه، وقد يكون هذا ما عبر عنه الشيخ بالاستنباط.. وصلى الله وسلم على نبينا محمد.





الجلسة الثالثة :

التدبُّر عند المفسرين ٢

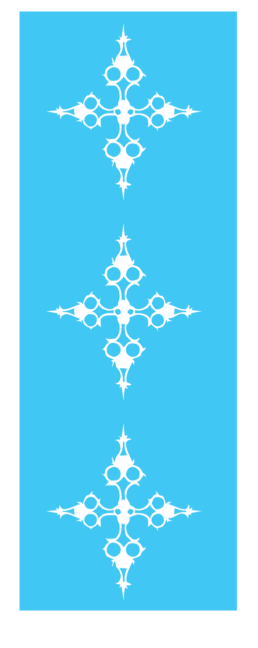


الورقة الأولى:

مفهوم التدبُّر
(تحرير وتأصيل)
د. خالد بن عثمان السبت

الورقة الثانية:

مفهوم التدبُّر في ضوء
القرآن والسنة والآثار
د. محمد بن عبدالله الربيعة



الورقة الأولى:

د. خالد بن عثمان السبت

مفهوم التدبُّر (تحرير وتأصيل

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن هذه الورقة ستتناول أربعة محاور:

الأول: تحرير مصطلح التدبر؛ وذلك من أربعة جوانب:

١- في بيان أصل معنى العام التدبر في كلام العرب.

٢- في بيان المعنى العام للتدبر (المعنى الاصطلاحي، العرفي).

٣- في معنى تدبر القرآن خاصة.

٤- في ذكر بعض عبارات المفسرين في معنى التدبر.

الثاني: علاقة التدبر في بعض المصطلحات القرآنية الأُخرى.

الثالث: أركان التدبر.

الرابع: أنواع التدبر.

والله أسأل التسديد والتوفيق.

* المحور الأول: تحرير مصطلح التدبر:

١ - أصل معنى التدبر في كلام العرب:

التَّدَبُّر: مصدر (تَدَبَّر)، وأصل هذه المادة (د ب ر) يدل على آخر الشيء وخَلْفِه[١].

يقال: دبر السهم الهدف: سقط خلفه، ودبر فلان القوم: صار خلفهم[٢].

وقد اشتقوا من (الدُّبُر) فعلاً، فقالوا: تدبر: إذا نظر في دُبُر الأمر، أي: في غائبه أو عاقبته[٣].

فهو من الأفعال التي اشتُقت من الأسماء الجامدة[٤].

ودُبُر كل شيء: عَقِبُه ومُؤَخَّرُه.

ومنه (الدُّبُر) خلاف القُبُل.

وفي الحديث: «لا تدابروا»، وذلك أن يترك كل واحد منهما الإقبال على صاحبه بوجهه[٥].

أي: لا يولي بعضكم بعضًا دبره[٦].

قال أبو عبيد: التدابر: المصارمة والهجران، مأخوذ من أن يولي الرجل صاحبه دُبُره وقفاه، ويعرض عنه بوجهه ويهجره[٧].

---

(١) المقاييس (٢/ ٣٢٤) (كتاب الدال، باب الدال والباء وما يثلثهما) (مادة: دبر).

(٢) المفردات (ص ٣٠٧) (مادة: دبر).

(٣) معاني القرآن للزجاج (٢ / ٨٢)، البغوي (٢/ ٢٥٤)، الكشاف (١/ ٢٨٤).

(٤) ابن عاشور (٣/ ٤٨٣).

(٥) المقاييس (٢/ ٣٢٤) (كتاب الدال، باب الدال والباء وما يثلثهما) (مادة: دبر).

(٦) الزجاج (٢/ ٨٢)، القرطبي (٥/ ٢٩٠).

(٧) تاج العروس (١/ ٢٨١٣) (فصل: الدال من باب الراء) (مادة: دبر).

ويقال: أدبر القوم: مضى أمرهم إلى آخره[1].

ودبر القوم يدبرون دبارًا إذا هلكوا[2].

ودَبِرَ البعير دَبَرًا، فهو أدبر: صار بِقَرْحِه دَبِرًا، أي: متأخرًا[3].

ومنه: دُبُر الشهر: آخره.

ودابر الشيء: آخره.

ودُبُر الأمر: آخره.

و الدَّبَار: الهلاك الذي يقطع دابرتهم[4].

يقال: فلان ما يدري قِبَالَ الأمر من دِبَارِه. أي: أوَّلَه من آخره.

ومن ذلك: {وَأَدْبَارَ السُّجُودِ} (٤٠) سورة ق؛ أي: أواخر الصلوات[5].

ومنه قيل للنحل: (الدَّبْر)؛ لأنه يُعْقِب ما يُنتفع به[6]، أو لأن سلاحها في أدبارها[7].

وهكذا قيل للمال الكثير:(الدِّبْر) لأنه يبقى للأعقاب[8].

ويقال: دَبَّر الأمر وتَدَبَّره: أي: نظر وتفكر في عاقبته[9].

(١) القرطبي (٥/ ٩٥٠).

(٢) الزجاج (٢/ ٨٢).

(٣) المفردات (٣٠٨) (مادة: دبر).

(٤) السابق (٣٠٧) (مادة: دبر).

(٥) السابق (ص ٣٠٧) (مادة: دبر).

(٦) الزجاج (٢/ ٨٢).

(٧) المفردات (٣٠٨) (مادة: دبر).

(٨) الزجاج (٢/ ٨٢).

(٩) الكشاف (١/ ٢٨٤)، القرطبي (٥/ ٢٩٠)، الخازن (٢/ ١٣٧)، نظم الدرر (٢/ ٢٣٨).

ويقال: اسْتَدْبَرَه: أي: رأى في عاقبته ما لم يره في صدره[١].

ويقال: عرف الأمر تَدَبُّرًا: أي بأَخَرَة.

ومنه قول جرير:

ولا تتقون الشر حتى يصيبكم ... ولا تعرفون الأمر إلا تَدَبُّرا

وقال أكثم بن صيفي لبنيه: يا بَنِيَّ لا تَتَدَبَّروا أعجاز أمور قد ولَّت صُدُورُها[٢].

والتدبير في الأمر: أن تنظر إلى ما تؤول إليه عاقبته[٣].

فهو بمعنى التفكير في دُبُر الأمور[٤].

وذلك بأن يُدَبِّر الإنسان أمره كأنه ينظر إلى ما تصير إليه عاقبته[٥].

ولذا قيل: هو النظر في العواقب بمعرفة الخير، أو: إجراء الأمور على علم العواقب[٦].

والتدبير: عتق العبد عن دُبُر، وهو أن يقول له: أنت حر بعد موتي[٧].

ويقال له: مُدَبَّر.

(١) تاج العروس (١/ ٢٨١٣) (فصل: الدال من باب الراء) (مادة: دبر).

(٢) تفسير الرازي (٥/ ٣٠٠)، تفسير النيسابوري (٣/ ٣٦)، اللسان (٤/ ٢٧٣)، تاج العروس (١/ ٢٨١٣).

(٣) اللسان (٤/ ٢٧٣) (مادة: دبر)، تاج العروس (١/ ٢٨١٣) (فصل: الدال من باب الراء) (مادة: دبر)، مختار الصحاح (باب الراء، فصل الدال) (مادة: دبر) (ص ١٥٣).

(٤) المفردات (٣٠٧).

(٥) فتح القدير (٢/ ١٨٠).

(٦) التعريفات (١/ ١٧).

(٧) المفردات (٣٠٧) (مادة: دبر)، التعريفات (١/ ١٧)، تاج العروس (١/ ٢٨١٣) (فصل الدال من باب الراء) (مادة: دبر).

ويقال: إن فلانًا لو استقبل في أمره ما استدبره لهُدي لِوِجْهَةِ أمرِه؛ أي: لو علم في بَدْءِ أمرِه ما عَلِمَه في آخره لاسترشد لأمره[1].

ومما تقدم يعلم أن أصل التدبر: التأمل والتفكر في أدبار الأمور وعواقبها؛ أي: فيما لا يظهر منها للمتأمل بادئ ذي بدء[2].

ثم استُعمل في كل تأمل[3]، سواءً كان نظرًا في حقيقة الشيء وأجزائه، أو سوابقه وأسبابه، أو لواحقه وأعقابه[4].

٢- بيان المعنى العام للتدبر:

التدبر في الأمر: التفكير فيه[5]، أي: تحصيل المعرفتين لتحصيل معرفة ثالثة[6].

وهو بمعنى قول بعضهم: إعمال النظر العقلي في دلالات الدلائل على ما نُصبت له[7].

أي: تصرف القلب بالنظر في الدلائل[8].

وهذا تفسير له بالتفكر.

وبعضهم يفرق بينهما باعتبار أن التدبر: تصرف القلب بالنظر في العواقب، وأما

(١) اللسان (٤/ ٢٧٣)، تاج العروس (١/ ٢٨١٣).

(٢) الرازي (٥/ ٣٠٠)، الخازن (٢/ ١٣٧) (٥/ ٤٢٧)، تفسير النيسابوري (٣/ ٣٦)، الألوسي (٤/ ١٥٠)، ابن عاشور (٩/ ٣٨٥) (١٣/ ٤٢٣).

(٣) الكشاف (١/ ٢٨٤)، الخازن (٢/ ١٣٧)، فتح القدير (٢/ ١٨٠)، الألوسي (٤/ ١٥٠).

(٤) الألوسي (٤/ ١٥٠).

(٥) اللسان (٤/ ٢٧٣)، مختار الصحاح.

(٦) تاج العروس (١/ ٢٨١٣).

(٧) ابن عاشور (٩/ ٣٨٥).

(٨) الكليات (٢٨٧).

التفكر: فتصرفه بالنظر في الدليل[١].

و عبَّر عنه بعضهم بأنه التفكر في عاقبة الشيء وما يؤول إليه أمره[٢].

وهو بمعنى قول مَن فسره بالنظر في أعقاب الأمور وتأويلات الأشياء[٣].

وهما تعريفان مقاربان، والله أعلم.

٣- معنى تدبر القرآن خاصة (المعنى الشرعي):

هناك تعريفات متعددة للتدبر وبينها تقارب، فمن ذلك:

- قال مقاتل بن سليمان: هو التأمل في معانيه، وتحديق الفكر فيه، وفي مبادئه وعواقبه، ولوازم ذلك[٤].

- وقال الزمخشري: هو تأمل معانيه وتبصر ما فيه[٥].

وقال: وتدبر الآيات: التفكر فيها، والتأمل الذي يؤدي إلى معرفة ما يَدْبُر ظاهرها من التأويلات الصحيحة والمعاني الحسنة؛ لأن من اقتنع بظاهر المتلو لم يحل منه بكثير طائل، وكان مثله كمثل مَن له لقحه دَرُور لا يحلبها، ومهرة نَثُور لا يستولدها[٦].

- وقال القرطبي: هو التفكر فيه وفي معانيه[٧].

- وقال الخازن: هو تأمل معانيه، وتفكر في حكمه، وتبصر ما فيه من

(١) التعريفات (١/ ١٧).

(٢) الخازن (٥/ ٤٢٧).

(٣) المحرر الوجيز (٢/ ١٦١)، التعريفات (١/ ١٧).

(٤) تفسير مقاتل (١/ ٣٣٥)، وهو الذي قاله السعدي بحروفه (١/ ١٨٩).

(٥) الكشاف (١/ ٢٨٤).

(٦) السابق (٣/ ٣٢٧).

(٧) تفسير القرطبي (٥/ ٢٩٠).



الآيات[1].

- وقال أبو حيان: هو التفكر في الآيات، والتأمل الذي يفضي بصاحبه إلى النظر في عواقب الأشياء[2].

- وقال ابن القيم: هو تحديق ناظر القلب إلى معانيه، وجمع الفكر على تدبره وتعقله[3].

- وقال السيوطي: وصفة ذلك: أن يشغل قلبه بالتفكر في معنى ما يلفظ به، فيعرف معنى كل آية، ويتأمل الأوامر والنواهي، ويعتقد قبول ذلك؛ فإن كان مما قصَّر عنه فيما مضى اعتذر واستغفر، وإذا مر بآية رحمة استبشر وسأل، أو عذاب أشفق وتعوذ، أو تنزيه نزه وعظم، أو دعاء تضرع وطلب[4].

- وقال ابن عاشور: هو تعقب ظواهر الألفاظ ليعلم ما يَدْبُرُ ظواهرها من المعاني المكنونة والتأويلات اللائقة[5].

- وقال الميداني: هو التفكر الشامل الواصل إلى أواخر دلالات الكلم ومراميه البعيدة.

- وقيل: هو التفكر والتأمل لآيات القرآن من أجل فهمه، وإدراك معانيه، وحِكَمه، والمراد منه.

- وقيل: هو تفهم معاني ألفاظه، والتفكر فيما تدل عليه آياته مطابقة، وما دخل

(١) تفسير الخازن (٢/ ١٣٧).

(٢) البحر المحيط (٩/ ٣٣٨).

(٣) المدارج (١/ ٤٥١).

(٤) الإتقان (١/ ٣٠٠).

(٥) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٢١).

في ضمنها، وما لا تتم تلك المعاني إلا به مما لم يُعَرِّج اللفظ على ذكره من الإشارات والتنبيهات، وانتفاع القلب بذلك بخشوعه عند مواعظه، وخضوعه لأوامره، وأخذ العبرة منه.

ويجمع ذلك: النظر إلى ما وراء الألفاظ من المعاني والعبر والمقاصد، الأمر الذي يثمر العلوم النافعة والأعمال الزاكية.

وإنما ذكرت هذه الجملة الأخيرة لأنه قد ورد عن جماعة من السلف تفسير التدبر بالعمل والامتثال وما إلى ذلك مما يقع في القلب ويظهر على الجوارح.

ولا ريب أن هذا يكون أعلى مراتب التدبر، وإلا فقد يحصل ببعض ذلك كما لا يخفى.

٤- ذكر بعض عبارات المفسرين في معنى التدبر:

من عبارات المفسرين في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ (٨٢) سورة النساء، (٢٤) سورة محمد.

وقوله: ﴿ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ (٢٩) سورة ص.

- ابن جرير: أفلا يتدبر هؤلاء المنافقون مواعظ الله التي يعظهم بها في آي القرآن الذي أنزله على نبيه عليه الصلاة والسلام، ويتفكرون في حججه التي بينها لهم في تنزيله..

- البغوي: أفلا يتفكرون في القرآن[١].

- ابن الجوزي: ليتفكروا فيها[٢].

(١) تفسير البغوي (٢/ ٢٥٤).

(٢) زاد المسير (٥/ ٢٣٨).

- القرطبي: أي: يتفهمونه[١].

- الخازن: يتفكرون فيه وفي مواعظه وزواجره[٢].

- أبو حيان: أي: فلا يتأملون ما نزل عليك من الوحي ولا يعرفون عنه؛ فإنه في تدبره يظهر برهانه ويسطع نوره، ولا يظهر ذلك لمن أعرض عنه ولم يتأمله[٣].

- البقاعي: أي: يتأملون[٤].

- الشوكاني: أفلا يتفهمونه.

- ابن عاشور: يتأملون دلالته[٥].

وبهذا نعلم أن كلامهم يدور على إعمال الفكر والنظر بالتأمل والتفهم في آي القرآن الكريم للتوصل إلى معانيه ومقاصده، والله أعلم.

*** المحور الثاني: علاقة التدبر بالمصطلحات القرآنية الأخرى:**

(التفسير، التأويل، البيان، الاستنباط، الفهم)

أولاً: علاقته بالتفسير:

إن أصل مادة (التفسير) تدور على الكشف والبيان، يقال: فسَّر الكلام، أي: أبان معناه وأظهره، فهو إخراج الشيء من مقام الخفاء إلى مقام التجلي[٦].

---

(١) تفسر القرطبي (١٦/ ٢٤٦).

(٢) تفسير الخازن (٥/ ٤٢٧).

(٣) البحر المحيط (٤/ ٢٠٧).

(٤) نظم الدرر (٢/ ٢٣٨).

(٥) ابن عاشور (٣/ ٤٨٣).

(٦) المقاييس (كتاب الفاء، باب الفاء والسين وما يثلثهما) (٢/ ٣٢٤)، الصحاح (مادة: فسر) (٢/ ٧٨١)، المصباح المنير (مادة: فسر) (ص١٨٠)، اللسان (مادة: فسر) (٢/ ١٠٩٥)، المفردات (مادة: فسر) (ص ٦٣٦).

وأما في الاصطلاح: فهو علم يُبحث فيه عن أحوال القرآن العزيز من حيث دلالته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية[1].

وبناء على ذلك؛ يقال في العلاقة بين التفسير والتدبر: بأن بينهما ملازمة؛ وذلك أن التوصل إلى مراد الله تعالى من كلامه يحتاج إلى تدبر ونظر وتأمل، كما أن التدبر يتوقف على معرفة المعنى، والله أعلم.

ثانيًا: علاقته بالتأويل:

التأويل يأتي لمعنيين:

الأول: بمعنى التفسير، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [الكهف:٧٨]، وقوله: ﴿ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [الكهف:٨٢]، وقوله: ﴿ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ﴾ [آل عمران: ٧] على أحد الأوجه في التفسير؛ فتأويل القرآن بمعنى تفسيره، وهو المراد بقوله ﷺ في دعائه لابن عباس رضي الله عنهما: «وعلمه التأويل».

وهكذا تأويل الرؤيا يأتي بمعنى تفسيرها كما في قوله تعالى: ﴿ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ﴾ [يوسف: ٣٦]، وقوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ [يوسف: ٦]، وقوله: ﴿ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ [يوسف: ٢١]، وقوله: ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴾ [يوسف:٤٤]، وقوله: ﴿ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ [يوسف: ١٠١]، وقوله: ﴿ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ ﴾ [يوسف: ٤٥]؛ فهذا كله بمعنى تفسير الرؤيا.

الثاني: بمعنى ما يصير إليه الشيء في ثاني حال، فتأويل الخبر بوقوع المَخْبَر، ومن

(١) قواعد التفسير (١/ ٢٩).

ذلك قوله تعالى: ﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ ﴾ [الأعراف: ٥٣]، وقوله: ﴿ بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ ﴾ [يونس: ٣٩].

وهكذا يعبر بـ(التأويل) في الرؤيا بمعنى تحقق الوقوع ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ ﴾ [يوسف: ١٠٠]، كما ورد بمعنى العاقبة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩، الإسراء: ٣٥]؛ في موضعين من القرآن.

وهكذا يُعبر بـ(التأويل) عن امتثال المأمور، ومن ذلك حديث عائشة رضي الله عنها: كان النبي ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم أغفر لي» يتأول القرآن.

بعد ذلك أقول بأن التأويل له تعلق بالتدبر باعتبار الإطلاقين السابقين، وبيان ذلك: أن تعلقه به من جهة إطلاقه مرادًا به التفسير لا يخفى؛ إذ القول فيه كالقول في التفسير.

وأما وجه تعلقه بالتأويل إذا أُريد به المعنى الآخر: فإن ذلك يكون بالامتثال والعمل والتطبيق، وذلك من المعاني الداخلة تحت التدبر، إضافة إلى التفكر في ما يؤول إليه الإنسان، وما يقع في الدنيا والآخرة مما وعد الله به أهل طاعته وأهل معصيته، والله أعلم.

ثالثًا: علاقة التدبر بالبيان:

البيان: من بان الشيء: إذا اتضح وانكشف.

هذا من حيث الجملة؛ ويتقيد معناه بحسب متعلقه.

والمقصود هنا: ما يتعلق بالتدبر؛ وذلك بإطلاق البيان على ما يشرح به المجمل

والمبهم، ويكشف به عن المعنى، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة:١٩]، قوله: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[1] [النحل:٤٤].

والقول فيه بهذا الاعتبار كالقول في التفسير من جهة الملازمة بينه وبين التدبر.

رابعًا: علاقة التدبر بالاستنباط:

ترجع مادة (الاستنباط) إلى الاستخراج[2].

قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وكل مستخرج شيئًا كان مستترًا عن العيون أو عن معارف القلوب؛ فهو له مستنبط»[3] ا.هـ.

وبناء على ذلك؛ فإن الاستنباط من القرآن يكون بمعنى استخراج المعاني والأحكام وألوان الهدايات في العقائد والسلوك وغير ذلك، وهذا يكون نتيجة للتدبر كما لا يخفى، والله أعلم.

خامسًا: علاقة التدبر بالفهم:

الفهم: قيل: تصور المعنى من اللفظ، وقيل: هيئة للنفس يتحقق بها ما يحسن[4].

وبناء على ذلك؛ فإن الفهم يكون نتيجة للتدبر، كما أنه يكون وسيلة لما وراء ذلك من المعاني الداخلة تحت التدبر، فإن من التدبر ما لا يتم إلا بعد الفهم، والله أعلم.

وبهذا نعلم أن بين التدبر والفهم ملازمة ولا يخفى أن الناس يتفاوتون في الفهم تفاوتًا كبيرًا، لكن كلٌّ يحصل له من التدبر بحسبه.

---

(١) المقاييس: (كتاب الباء، باب الياء وما يثلثهما) (ص ١٦٤)، المفردات (مادة: بان) (ص ١٥٧).

(٢) السابق (كتاب النون، باب النون والباء وما يثلثهما) (ص ١٠٠٧).

(٣) جامع البيان (٨/ ٥٧١).

(٤) القاموس (باب الميم، فصل الفاء) (ص ١٤٧٩)، المعجم الوسيط (مادة: فهمه) (٢/ ٧٠٤).

* المحور الثالث: أركان التدبر.

يقوم التدبر على أركان ثلاثة:

الأول: المُتَدَبِّر.

وهذا لابد فيه من تحقق شروط وانتفاء موانع، كما يلاحظ فيه توفر جملة من الآداب المكملة المعينة على التدبر ليكون المحل قابلاً.

الثاني: وهو الكلام المُتَدَبَّر:

ولا يخفى أن القرآن الكريم بالغ التأثير في النفوس، كما أنه ميسر للفهم، ولكن إذا وجد المحل القابل، لكن لا ننكر أن القرآن يشتمل على العقائد والأحكام والقصص والأمثال والكلام على الدنيا والآخرة، وأهوال القيامة، فقد تكون بعض هذه القضايا أكثر تأثير في بعض الناس، كما يكون غيرها أعمق تأثير لدى آخرين بحسب مقاصدهم وعمق أفهامهم ولطافة نظرهم.

الثالث: وهي عملية التدبر نفسها، وذلك يطلب فيه جملة أمور تتعلق بالقدر المتلو، وطريقة التلاوة، ووقتها وما إلى ذلك؛ ولذا قال النبي ﷺ: «لم يفقه مَن قرأ القرآن في أقل من ثلاث». رواه أبو داود والترمذي.

* المحور الرابع: أنواع تدبر القرآن:

النوع الأول: تدبره لمعرفة صدق من جاء به، وأنه حق من عند الله تعالى.

وذلك أن الله تعالى نعى على المنافقين إعراضهم عن طاعة الرسول ﷺ فقال:
﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ

﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء:٨١-٨٢].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن شهادته أيضًا ما أودعه في قلوب عباده من التصديق الجازم واليقين الثابت والطمأنينة بكلامه ووحيه فإن العادة تحيل حصول ذلك بما هو من أعظم الكذب والافتراء على رب العالمين والإخبار عنه بخلاف ما هو عليه من أسمائه وصفاته بل ذلك يوقع أعظم الريب والشك، وتدفعه الفطر والعقول السليمة كما تدفع الفطر التي فطر عليها الحيوان الأغذية الخبيثة الضارة التي لا تغذى كالأبوال والأنتان؛ فإن الله سبحانه فطر القلوب على قبول الحق والانقياد له والطمأنينة به والسكون إليه ومحبته، وفطرها على بغض الكذب والباطل والنفور عنه والريبة به وعدم السكون إليه، ولو بقيت الفطر على حالها لما آثرت على الحق سواه ولما سكنت إلا إليه ولا اطمأنت إلا به ولا أحبت غيره.

ولهذا ندب الله عز وجل عباده إلى تدبر القرآن؛ فإن كل مَن تدبره أوجب له تدبره علمًا ضروريًّا ويقينًا جازمًا أنه حق وصدق بل أحق كل حق وأصدق كل صدق، وأن الذي جاء به أصدق خلق الله وأبرهم وأكملهم علمًا وعملاً ومعرفةً كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾[النساء:٨٢]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ [محمد:٢٤]، فلو رُفعت الأقفال عن القلوب لباشرتها حقائق القرآن، واستنارت فيها مصابيح الإيمان وعلمت علمًا ضروريًّا يكون عندها كسائر الأمور الوجدانية من الفرح والألم والحب والخوف أنه من عند الله تكلم به حقًّا وبلغه رسوله جبريل عنه إلى رسوله محمد، فهذا الشاهد في القلب من أعظم الشواهد وبه احتج هرقل على أبي سفيان حيث قال له: فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فقال: لا!! فقال له: وكذلك الإيمان إذا

خالطت حلاوته بشاشة القلوب لا يسخطه أحد.

وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى في قوله: ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت:٤٩]، وقوله: ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ ﴾ [الحج: ٥٤]، وقوله: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [سبأ:٦]، وقوله: ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الرعد:١٩]، وقوله: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ [الرعد:٢٧]، يعني أن الآية التي يقترحونها لا توجب هداية بل الله هو الذي يهدي ويُضِل، ثم نبههم على أعظم آية وأجلها وهي طمأنينة في قلوب المؤمنين بذكره الذي أنزله فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ ﴾ [الرعد:٢٨]، أي بكتابه وكلامه: ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد:٢٨]، فطمأنينة القلوب الصحيحة والفطر السليمة به وسكونها إليه من أعظم الآيات، إذ يستحيل في العادة أن تطمئن القلوب وتسكن إلى الكذب والافتراء والباطل»[1].

وذلك يحصل لهم بتدبره من وجوه متعددة؛ منها:

١- اتساق معانيه[2].

٢- ائتلاف أحكامه[3].

٣- «تأييد بعضه بعضًا بالتصديق وشهادة بعضه لبعض بالتحقيق فإن ذلك لو كان

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ٤٧١).

(٢) ابن جرير (٨/ ٥٦٧).

(٣) ابن جرير (٨/ ٥٦٧).

من عند غير الله لاختلفت أحكامه، وتناقضت معانيه، وأبان بعضه عن فساد بعض»[1].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «أفلا يتدبرون القرآن فيتفكرون فيه، فيرون تصديق بعضه لبعض، وما فيه من المواعظ والذكر والأمر والنهي، وأن أحدًا من الخلائق لا يقدر عليه»[2].

٤- صدق ما تضمنه من الإخبار عن الغيوب الماضية والمستقبلة.

ومن ذلك: كشف خبايا وخفايا المنافقين وإظهار ذلك، وهم يعلمون صدق ما أخبر به عنهم[3].

٥- ما حواه من ألوان الأدلة والبراهين التي يخضع لها كل منصف مريد للحق متجرد من الهوى[4].

٦- فصاحته وإعجازه للإنس والجن، عربهم وعجمهم، وهذه سمه لا تفارقه من أوله إلى آخره، فهو على كثرة سوره وآياته، وطول المدة التي نزل فيها لا تجد فيه تفاوتًا ولا خللاً في موضع واحد، وهذا لا يتأتى للبشر مهما بلغت فصاحتهم[5].

---

(١) ما بين الأقواس من كلام ابن جرير (٨/ ٥٦٧)، وانظر أيضًا: البغوي (٢/ ٢٥٤)، ابن عطية (٢/ ١٦١)، الرازي (١٠/ ١٩٦)، الخازن (٢/ ١٣٧)، النيسابوري (٣/ ٣٦)، البقاعي (٢/ ٢٣٨)، الألوسي (٤/ ١٥٠)، ابن عاشور (١/ ٦٧) (٣/ ٤٨٣).

(٢) معاني القرآن للزجاج (٢/ ٨٢)، زاد المسير (٢/ ٧٢)، الخازن (٢/ ١٣٧).

(٣) البغوي ٢/ ٢٥٤، الرازي ١٠/ ١٩٦، الخازن ٢/ ١٣٧، النيسابوري٣/ ٣٦، البقاعي ٢/ ٢٣٨، الألوسي ٤/ ١٥٠.

(٤) المحرر الوجيز ٢/ ١٦١.

(٥) الرازي ١٠/ ١٩٦، الخازن ٢/ ١٣٧، النيسابوري ٣/ ٣٦، البقاعي ٢/ ٢٣٨، الألوسي ٤/ ١٥٠، ابن عاشور (٣/ ٤٨٣)(٩/ ٣٨٥).

٧- ما اشتمل عليه من أنواع الهدايات التي تشهد لصحتها العقول -فيما للعقل مجال لإدراكه- وتوافق الفطر السليمة، فهو يدعو إلى كل معروف وخير، وينهى عن كل منكر وشر، فلا تجد فيه ما يجافي الحقيقة والفضيلة، أو يأمر بارتكاب الشر والفساد، أو يصرف عن الأخلاق الفاضلة[١].

النوع الثاني: تدبره للوقوف على عظاته، والاعتبار بما فيه من القصص والأخبار، وتعقل أمثاله المضروبة، وما اشتمل عليه من الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب؛ من أجل أن يرعوي العبد فيستدرك ما وقع له من تقصير، ويزداد من الإقبال والتشمير في طاعة الله تعالى[٢].

النوع الثالث: تدبره لاستخراج الأحكام منه، سواء كان ذلك مما يتصل بالعقائد، أو الأعمال المتعلقة بالجوارح، أو السلوك؛ إذ الأحكام تشمل ذلك كله بمفهومها الأوسع.

النوع الرابع: تدبره للوقوف على ما حواه من العلوم والأخبار والقصص، وما ورد فيه من أوصاف هذه الدار، وما بعدها من الجنة أو النار، وما وصف الله تعالى فيه من أهوال القيامة ونهاية الحياة الدنيا، وأوصاف المؤمنين والكافرين بطوائفهم، وصفات أهل النفاق، بالإضافة إلى الأوصاف المحبوبة لله تعالى، والأوصاف التي يكرهها... إلى غير ذلك مما يلتحق بهذا المعنى.

---

(١) ابن عاشور ١/ ٦٧.

(٢) ابن جرير ٢٢/ ١٧٩، الواحدي ١/ ٩١٢، القرطبي ١٦/ ٢٤٦، الألوسي ١٩/ ١٥٤، ابن عاشور ٣/ ٤٨٣.

النوع الخامس: تدبره للوقوف على وجوه فصاحته وبلاغته وإعجازه، وصروف خطابه، واستخراج اللطائف اللغوية التي تستنبط من مضامين النص القرآني.

النوع السادس: تدبره للتعرف على ضروب المحاجة والجدال للمخالفين، وأساليب الدعوة للناس على اختلاف أحوالهم، وطرق التأثير على المخاطبين، وسُبل الإقناع التي تضمنها القرآن الكريم.

النوع السابع: تدبره من أجل الاستغناء به عن غيره سوى السنة فإنها شارحة له.

نقل ابن القيم عن الإمام البخاري قوله: «كان الصحابة إذا جلسوا يتذاكرون كتاب ربهم وسنة نبيهم، ولم يكن بينهم رأي ولا قياس، ولم يكن الأمر بينهم كما هو في المتأخرين: قوم يقرؤون القرآن ولا يفهمونه، وآخرون يتفقهون في كلام غيرهم ويدرسونه، وآخرون يشتغلون في علوم أخرى وصنعة اصطلاحية، بل كان القرآن عندهم هو العلم الذي به يعتنون حفظًا وفهمًا وتفقهًا».

وقال ابن تيمية: وأما في باب فهم القرآن فهو -أي: قارئ القرآن- دائم التفكر والتدبر لألفاظه، واستغنائه بمعاني القرآن وحِكَمِه عن غيره من كلام الناس، وإذا سمع شيئًا من كلام الناس وعلومهم عرضه على القرآن؛ فإن شهد له بالتزكية قبله وإلا رده»[1] ا.هـ.

الثامن: تدبره من أجل تليين القلب به وترقيقه، وتحصيل الخشوع.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن

(١) التفسير الكبير ٦/ ٧١.

﴿يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر:٢٣].

وقال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر:٢١].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد:١٦].

وقال تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء:١٠٧-١٠٩].

وأخبار النبي ﷺ في ذلك، وأخبار أصحابه مشهورة لا تخفى.

التاسع: تدبره من أجل الامتثال والعمل بما فيه من الأوامر، واجتناب النواهي.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه في بيان المراد بقوله تعالى: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة:١٢١]، قال: «والذين نفسي بيده، إن حق تلاوته أن يحل حلاله، ويحرم حرامه، ويقرأه كما أنزله الله»[(١)].

وعن عكرمة: يتبعونه حق اتباعه باتباع الأمر والنهي، فيحلون حلاله ويحرمون حرامه ويعملون بما تضمنه[(٢)].

وقال الحسن: إن هذا القرآن قد قرأه عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله، وما تَدبُر آياته إلا باتباعه، وما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: لقد

---

(١) ابن كثير ١/ ٤٠٣.

(٢) القرطبي ١/ ٩٢.

قرأت القرآن فما أسقطت منه حرفًا، وقد -والله- أسقطه كله، ما يُرى القرآن له في خُلق ولا عمل، حتى إن أحدهم ليقول: إني لأقرأ السورة في نَفَسٍ!! والله ما هؤلاء بالقراء ولا العلماء ولا الحكماء ولا الوَرَعَة متى كانت القراء مثل هذا؟ لا كثر الله في الناس أمثالهم»[1].

وبهذا نعلم أن تدبر القرآن يتنوع بحسب تنوع مطالب المتدبرين، وقد قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومعلوم أن كل مَن لم يشتغل بتدبر آيات هذا القرآن العظيم أي: تصفحها وتفهمها وأدرك معانيها والعمل بها فإنه معرض عنها، غير متدبر لها، فيستحق الإنكار والتوبيخ المذكور في الآيات إن كان الله أعطاه فهمًا يقدر به على التدبر، وقد شكا النبي ﷺ إلى ربه من هجر قومه هذا القرآن، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ﴾ [الفرقان: ٣٠]» ا.هـ، وبذلك تعلم -أيضًا- ما يقع للناس من التفاوت العظيم في باب التدبر، فمن مقل ومكثر

ولكن تأخذه الأذهان منه على قدر القرائح والفهوم

وفي هذا المعنى يقول الحافظ ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«والمقصود تفاوت الناس في مراتب الفهم في النصوص، وأن منهم مَن يفهم من الآية حكمًا أو حكمين، ومنهم مَن يفهم منها عشرة أحكام أو أكثر من ذلك، ومنهم مَن يقتصر في الفهم على مجرد اللفظ دون سياقه ودون إيمائه وإشارته وتنبيهه واعتباره، وأخص من هذا وألطف ضمه إلى نص آخر متعلق به فيفهم من اقترانه به قدرًا زائدًا على ذلك اللفظ بمفرده، وهذا باب عجيب من فهم القرآن لا يتنبه له إلا النادر من أهل العلم، فإن الذهن قد لا يشعر بارتباط هذا بهذا وتعلقه به، وهذا كما

---

(١) الزهد ٢٧٦- تفسير ابن كثير ٤/ ٣٦.

فهم ابن عباس من قوله: ﴿ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾ [الأحقاف:١٥] مع قوله: ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ [البقرة: ٢٣٣]؛ أن المرأة قد تلد لستة أشهر»[1] ا.هـ. والله أعلم.

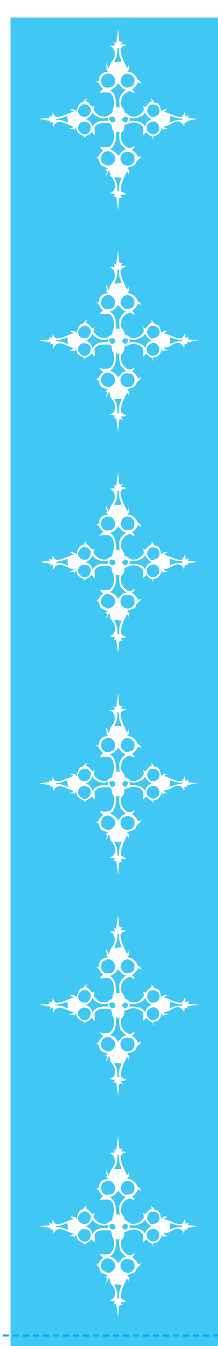
وكتبه

د. خالد بن عثمان السبت

تخصص دراسات قرآنية

جامعة الملك فيصل

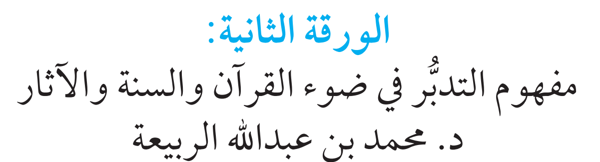
(١) إعلام الموقعين ١/ ٤٨٤.





الجلسة الثالثة :

التدبُّر عند المفسرين ٢

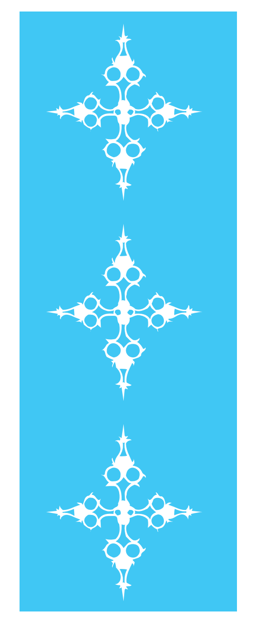




الورقة الثانية:

مفهوم التدبُّر في ضوء القرآن والسنة والآثار

د. محمد بن عبدالله الربيعة



الورقة الثانية:

د. محمد بن عبدالله الربيعة

مفهوم التدبر في ضوء القرآن والسنة والآثار

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴾ [الكهف:١]، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد:

فإن التدبر لكتاب الله تعالى من أولى الغايات التي أنزل من أجلها قال تعالى: ﴿ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [ص:٢٩]، وحين نبتغي الوصول إلى مفهوم التدبر وحقيقته فلا بد من الوقوف في الأدلة من القرآن والسنة والنظر في أقوال السلف وأحوالهم في تعاملهم مع القرآن وتلقيهم له، ذلك أن أعظم منهج لتدبر كتاب الله تعالى هو منهجهم القويم، وقد كان من توفيق الله تعالى أن قمت بإعداد بحث حول (منهج السلف في التلاوة والتدبر) فرأيت أن أستخلص منه ورقة عمل للملتقى الأول للتدبر حول مفهوم التدبر في ضوء القرآن والسنة وأقوال السلف وأحوالهم.

والهدف منها تحرير مفهوم التدبر وتحقيقه لكونه من لوازم قارئ القرآن وواجباته، وليتميز عن المصطلحات القرآنية الأخرى، وليكون منطلقًا للمشروع المبارك الذي

يهدف إلى إحياء التدبر في الأمة لربطها بكتاب الله تعالى ليكون منهج حياة وسبيل نجاة بإذن الله تعالى، وهو المأمول سبحانه في تحقيق ذلك.

وقد قسمت هذه الدراسة إلى قسمين:

القسم الأول: الدراسة النظرية: التأصيل والتحرير.

القسم الثاني: الدراسة التطبيقية: التحليل والاستدلال.

أسأل الله تعالى أن يجعل هذه الدراسة خالصة لوجهه، وأن يحقق فيها الحق والصواب، وينفعني بها ومن بلغ إنه سميع قريب مجيب.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

❑ القسم الأول: الدراسة النظرية: التأصيل والتحرير:

* المحور الأول: معنى التدبر لغة، ومفهوم تدبر القرآن:

أصل التدبر لغة:

بالنظر والاطلاع في أقوال أهل اللغة نجد أنها تتلخص في أن أصل معنى التدبر مأخوذ من النظر في أدبار الشيء وعواقبه ونهاياته[1].

ففي معجم مقاييس اللغة: «أصل التدبر من: دَبَرَ -بفتح الدال والباء-، وجُلُّه في قياس واحد، وهو: آخر الشيء، وخلفه؛ خلاف قُبُله»[2].

وفي لسان العرب: «دبّر الأمر وتدبّره أي نظر في عاقبته وعرف الأمر تدبرًا أي بآخره؛ فتدبر الكلام أي النظر في أوله وآخره ثم إعادة النظر مرة بعد مرة.. والتدبر

---

(١) انظر لسان العرب ٤/ ٢٧٣، التعريفات للجرجاني ص ١٦٧، المعجم الوسيط ١/ ٢٦٩، مختار الصحاح ص٩٦.

(٢) معجم مقاييس اللغة ٢/ ٢٦٦.

في الأمر: التفكر فيه»[1].

وفي التعريفات للجرجاني: «التدبر: عبارة عن النظر في عواقب الأمور، وهو قريب من التفكر، إلا أن التفكر تصرف القلب بالنظر في الدليل، والتدبر تصرفه بالنظر في العواقب»[2].

وفي المعجم الوسيط: «تدبر الأمر: ساسه ونظر في عاقبته»[3].

المراد بتدبر القرآن:

بالنظر في مدلول كلمة التدبر في اللغة فإننا سنحدد مفهوم تدبر القرآن في النظر فيما وراء الآيات من المعاني والدلالات والغايات.

ولكننا حيث نضع هذه الكلمة في إطار النصوص والآثار مع اعتبار المعنى اللغوي فإننا نجد أنها تمتد إلى ثلاثة أمور:

أولًا: اعتبار مقدمات التدبر، وهي تهيئ وتفاعل القلب واللسان والجوارح، ويؤكده قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق:٣٧].

وقوله: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد:٢٤] فنص على القلوب حضورًا وإيمانًا.

ثانيًا: اعتبار عملية التدبر، ويؤكده قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:٨٢]، وقوله: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ

---

(١) لسان العرب ٤/ ٢٦٨.

(٢) التعريفات للجرجاني ص ١٦٧.

(٣) المعجم الوسيط ص ١/ ٢٦٩.

جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون:٦٨]، فعقب ذلك التدبر بما يدعو للتأمل والنظر في صدق ما دلت عليه.

ثالثًا: اعتبار الثمار والنتائج، وهي العلم والإيمان والعمل، ويؤكده قوله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [ص:٢٩]، وقال تعالى: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٥]، فصرح على التذكر والاتباع، وهذا المعنى -أعني: اعتبار الثمار والنتائج- متعلق بالمعنى اللغوي من حيث أنه داخل في معنى العواقب والنهايات، ولذا فلا بد من اعتباره في مفهوم تدبر القرآن، وهو الجانب الذي ظهر في أقوال السلف وأحوالهم.

وقد أكد شيخ الإسلام لزوم التدبر لهذا الجانب فقال: «والإنسان يقرأ السورة مرات حتى سورة الفاتحة ويظهر له في أثناء الحال من معانيها ما لم يكن خطر له قبل ذلك حتى كأنها تلك الساعة نزلت فيؤمن بتلك المعانى ويزداد علمه وعمله، وهذا موجود في كل من قرأ القرآن بتدبر بخلاف من قرأه مع الغفلة عنه»[(١)].

والآثار الواردة عن السلف مستفيضة في الدلالة على الأمور الثلاثة كما سأفصله في هذا البحث بإذن الله.

وعليه فيمكن أن نبين التدبر بمفهومه العام بأنه:

(الوقوف عند الآيات، والتأمل فيها؛ للانتفاع بها إيمانًا وعلمًا وعملًا):

ولنا مع هذا التعريف وقفتان:

الوقفة الأولى: بيان ما يشمله التعريف:

---

(١) مجموع الفتاوى ٢/ ١٦.

الوقوف عند الآيات يشمل ثلاثة أمور:

أولًا: الإقبال والتفاعل، وهو يمثل مقدمة التدبر، ويتحقق بثلاثة أمور:

١- بالقلب، وذلك بإحضار القلب إيمانًا وتعظيمًا وخضوعًا للقرآن وللمتكلم به وهو الله تعالى، واستحضارًا لمقاصد القرآن العامة، واستشعارًا بأنه هو المخاطب بهذه الآيات.

٢- باللسان، وذلك بتلاوة الآيات بترتيل وترسل، وتحزن وتباكي، وترديد للآية، وتفاعل معها بالسؤال والتعوذ والاستغفار عند المرور بما يناسب ذلك.

٣- بالسمع، وذلك بإلقاء السمع وإرعائه عند سماع القرآن.

وقد أشار لهذا المعنى واعتبره من التدبر عددٌ من العلماء:

فقال ابن القيم: «إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألق سمعك، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه إليه، فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله ﷺ»[١].

وقال السيوطي: «وتسن القراءة بالتدبر والتفهم... وصفة ذلك أن يشغل قلبه بالتفكر في معنى ما يلفظ به، فيعرف معنى كل آية ويتأمل الأوامر والنواهي ويعتقد قبول ذلك، فإن كان مما قصر عنه فيما مضى اعتذر واستغفر، وإذا مرَّ بآية رحمة استبشر وسأل، أو عذاب أشفق وتعوذَّ أو تنزيه نزَّه وعظَّم، أو دعاء تضرع وطلب»[٢].

ثانيًا: النظر والتأمل، وهو يمثل عملية التدبر، ولذلك نصصت عليه في التعريف، ويتحقق بإمعان النظر وإعمال العقل في عدة أمور:

---

(١) الفوائد ص٣.

(٢) الإتقان في علوم القرآن ١/ ١٢٧.

١- إدراك مغزى الآيات ومقاصدها.

٢- تفهُّم معانيها.

٣- استخراج دلالاتها.

٤- تبين ما فيها من الآيات والعبر، والأوامر والنواهي، والوعد والوعيد.

وقد أشار لهذا المعنى واعتبره من التدبر عددٌ من العلماء:

١- قال الخازن: «ومعنى تدبُّر القرآنِ تأَمُّلُ معانيه، والتفكر في حِكَمِهِ، وتبصُّرُ ما فيه من الآيات»[١].

٢- قال ابن القيم: «وتدبر الكلام أن ينظر في أوله وآخره ثم يعيد نظره مرة بعد مرة، ولهذا جاء على بناء التفعل كالتجرع والتفهم والتبين»[٢].

٣- قال الشوكاني: «إِنَّ التدبر هو التأمُّل؛ لفهم المعنى، يقال: تدبرتُ الشيءَ: تفكرتُ في عاقبته، وتأملته، ثم استعمل في كل تأمُّل»[٣].

٤- قال ابن عاشور: «فمعنى: ﴿يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النساء: ٨٢] يتأمَّلون دلالته، وذلك يحتمل معنيين: أحدهما أن يتأمَّلوا دلالة تفاصيل آياته على مقاصده التي أرشد إليها المسلمين، أي تدبر تفاصيله؛ وثانيهما أن يتأمَّلوا دلالة جملة القرآن ببلاغته على أنَّه من عند الله، وأنَّ الذي جاء به صادق»[٤].

ثالثًا: التذكر والاتباع، وهو يمثل: ثمرة التدبر، ويتحقق بأمرين:

---

(١) لباب التأويل في معاني التنزيل ١/ ٤٠٢.

(٢) مفتاح دار السعادة ١/ ١٨٣.

(٣) فتح القدير ١/ ٤٩١.

(٤) التحرير والتنوير ١/ ٩٩٤.

١- التذكر علمًا وإيمانًا[١].

٢- الاتباع عملاً وسلوكًا.

وتضمن التعريف له مع دخوله في الوقوف عند الآيات لأمور:

١- أنه الغاية المقصودة من التدبر.

٢- ليتميز به التدبر عن التفسير والاستنباط والفهم وغيرها من المصطلحات القرآنية الأخرى.

٣- أن يكون قصد القارئ والمتأمل في الآيات التذكر والاتباع ابتداءً وانتهاءً.

وقد أشار لهذا المعنى واعتبره من التدبر عددٌ من العلماء:

فقال السعدي: «يأمر -تعالى- بتدبر كتابه، وهو التأمُّل في معانيه، وتحديق الفكر فيه، وفي مبادئه وعواقبه، ولوازم ذلك»[٢].

وقال الشنقيطي: «تدبر آيات هذا القرآن العظيم أي: تصفحها، وتفهمها، وإدراك معانيها، والعمل بها»[3].

وبهذا يمكن أن نقول بأن مفهوم التدبر الكامل هو:

(الوقوف عند الآيات؛ بتفاعل القلب واللسان والجوارح معها، والنظر والتأمل فيما تدل عليه من المقاصد والمعاني والدلالات والهدايات، بقصد الانتفاع بها؛ إيمانًا وعلمًا وعملاً).

---

(١) القول بأن التذكر يورث العلم، لأنه إذا تذكر الشيء المغفول عنه كان بمثابة العلم به، قال ابن القيم: «ويسمى تذكرًا لأنه إحضار للعلم الذي يجب مراعاته بعد ذهوله وغيبته عنه». مفتاح دار السعادة (١/ ١٨٢)، وأما الإيمان؛ فالمقصود به يقظة القلب وتصديقه بعد غفلته.

(٢) تيسير الكريم المنان في تفسير كلام الرحمن ١/ ١٨٩.

(٣) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٧/ ٤٢٩.

الوقفة الثانية: وجه اعتبار لفظ الوقوف عند الآيات، ولفظ الانتفاع.

اعتبار لفظ الوقوف، ولفظ التذكر والاتباع في المفهوم ظاهر من وجهين:

أولًا: أن لفظ الوقوف عند الآيات قد ورد وتكرر في استعمال السلف، وقد أحصيت في ذلك ثمانية مواضع، فهو بذلك لفظ معتبر ولا شك أن اعتبار مفهوم السلف هو الأولى.

ومما ورد عنهم في ذلك:

في معنى الوقوف عند الآيات بالتفاعل معها:

١- روي عن عباد بن حمزة قال: دخلت على أسماء وهي تقرأ: ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾ [الطور: ٢٧]، قال: فوقَفَتْ عليها؛ فجعلَتْ تستعيذ وتدعو»[١].

٢- قال بعضهم: إني لأفتتح السورة، فيوقفني بعض ما أشهد فيها عن الفراغ منها، حتى يطلع الفجر»[٢].

في معنى الوقوف عند الآيات بالتأمل فيها:

١- روي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «لا تهذوا القرآن كهذ الشعر ولا تنثروه نثر الدقل، وقفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب»[٣].

٢- عن مجاهد قال: «عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات أقف عند كل آية منه وأسأله عنها فيم نزلت وكيف كانت»[٤].

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة ٢/ ٢٥.

(٢) فضائل القرآن لابن كثير ص ٢٢٩.

(٣) أخرجه البيهقي في الشعب ٢/ ٢٦٠ ح ٢٠٤١.

(٤) أخرجه الدارمي ٢/ ٢٣٣ رقم ١١٧٦.

قال القرطبي: «قرأ مجاهد على ابن عباس قراءة تفهم **ووقوف عند كل آية**»[1].

٣- عن عبد الله بن مسلم بن يسار عن أبيه قال: «إذا حدثت عن الله حديثًا فقف حتى تنظر ما قبله وما بعده»[2].

في معنى الوقوف عند الآيات للانتفاع بها إيمانًا وعلمًا وعملاً، وهو الغالب في أقوال السلف وأحوالهم:

١- ما أخرجه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه أن رجل قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: هي يا ابن الخطاب، فوالله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر حتى هم به، فقال له أحد أصحابه: «يا أمير المؤمنين، إن الله عز وجل قال لنبيه ﷺ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف:١٩٩]، وإن هذا من الجاهلين»، قال: «فوالله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقافًا عند كتاب الله عز وجل»[3].

٢- عن ابن عمر رضي الله عنه قال: «لقد عشنا برهة من دهرنا وإن أحدنا ليؤتى الإيمان قبل القرآن وتنزل السورة على محمد ﷺ، فنتعلم حلالها وحرامها وما ينبغي أن يوقف عنده منها كما تتعلمون أنتم اليوم القرآن، ولقد رأيت اليوم رجالاً يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته ما يدري ما آمره ولا زاجره ولا ما ينبغي أن يوقف عنده منه وينثره نثر الدقل»[4].

(١) تفسير القرطبي ١/ ٣٦.

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب ٢/ ٢٦٠ ح ٢٠٤١.

(٣) أخرجه البخاري ١٥/ ٢٣٨ رقم ٤٦٤٢.

(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط، وقال في مجمع الزوائد: رجاله رجال الصحيح ١/ ٢٠١ رقم ٧٥٥.

فهذه الآثار كلها نصت على لفظ الوقوف بمعانيه الثلاث مما يؤكد صحة اعتباره في مفهوم التدبر.

ثانيًا: بالنسبة للفظ الانتفاع، فقد صرح به القرآن في قوله تعالى: ﴿ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ﴾ [عبس:٤].

وقال أبو حيان في تفسير قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ أَمۡ جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون: ٦٨]: «قرعهم أولاً بترك الانتفاع بالقرآن، ثم ثانيًا بأن ما جاءهم جاء آباءهم الأولين»(١).

وقال ابن القيم: «إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألق سمعك، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه إليه، فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله ﷺ».

أركان التدبر:

من خلال التأمل في التعريف السابق نستطيع أن نحرر منه أركان التدبر، وهي ثلاثة أركان باجتماعها يتحقق التدبر ويتميز عن غيره وهي:

١- حضور القلب واستشعاره(٢).

٢- النظر والتأمل في الآيات.

٣- قصد التذكر والاتباع.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٢٦٨.

(٢) تخصيص حضور القلب واستشعاره، دون تفاعل اللسان بالترتيل والترسل والتحزن، لأن التدبر لا يمكن حصوله بغير حضور القلب واستشعاره، بخلاف الترتيل والترسل فإنه ليس من لوازم التدبر وإن كان سببًا رئيسيًّا فيه كما يؤكده الأمر به صريحًا في القرآن، وكما تؤكده الأحاديث والآثار، لكن التدبر قد يكون بغير تلاوة بل بتأمل أو استماع.

مراتب التدبر:

يمكن تقسيم التدبر إلى مراتب قياسًا على ما قسم به ابن عباس التفسير فقال: «التفسيرُ على أربعةِ أوجهٍ: وجهٌ تعرفه العربُ من كلامها، وتفسير لا يُعذر أحدٌ بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله تعالى ذكره».

فالتدبر على ثلاثة أوجه:

المرتبة الأولى: تدبر العامة، وهو الوقوف عند الآيات مع الفهم العام لها والتبصر بما اشتملت عليه من الأوامر والنواهي والوعد والوعيد، والانتفاع بها تذكرًا واتباعًا.

وصورة ذلك: أن يقرأ القرآن ويقف مع آياته متأملاً في وعده ووعيده وأمره ونهيه، فيزداد بها إيمانه وخشيته.

المرتبة الثانية: تدبر العلماء، وهو الوقوف عند الآيات مع الفهم لمعناها ودلالاتها، والتبصر بمقاصدها وهداياتها، والانتفاع بها إيمانًا وعلمًا.

وصورة ذلك: أن يقف مع آيات القرآن بإمعان النظر وإعمال العقل في مقاصدها ومعانيها ودلالاتها، وينتفع بها علمًا وفهمًا وخشية.

المرتبة الثالثة: تدبر العلماء الربانيين: وهو الوقوف عند الآيات مع الفهم لمعناها ودلالاتها ومقاصدها وهداياتها، والتبصر بما اشتملت عليه من الأوامر والنواهي والوعد والوعيد، والانتفاع بها علمًا وإيمانًا وعملاً، وهذه المرتبة هي التي تمثلها السلف الصالح في تعاملهم مع القرآن، وهي التدبر الأمثل.

وصورة ذلك: حال السلف الصالح في تلقيهم مع القرآن الذين رزقوا العلم والعمل بالقرآن.

* المحور الثاني: تحرير العلاقة والفرق بين التدبر والمصطلحات القرآنية الأخرى:

بالنظر في التعريف السابق نستطيع أن نحرر العلاقة والفرق بين التدبر والمصطلحات القرآنية الأخرى، بما لا يلتبس على القارئ والمتدبر:

أولًا: الفرق بين التدبر والتفسير:

الفرق بين التدبر والتفسير ظاهر من وجوه:

أولًا: إن التفسير هو كشف المعنى المراد في الآيات، والتدبر هو ما وراء ذلك من إدراك مغزى الآيات ومقاصدها، واستخراج دلالاتها وهداياتها، والانتفاع بها إيمانًا وعلمًا وعملاً.

ثانيًا: إن المفسر غرضه العلم بما دلت عليه الآيات للفهم، والمتدبر غرضه العلم بما دلت عليه للإيمان والعلم والعمل؛ ولذا فإن التفسير يغذي القوة العلمية، والتدبر يغذي القوة العلمية والإيمانية والعملية.

ثالثًا: إن التدبر واجب الأمة كلها بتفاوت مراتبها، ولذلك جاء الأمر بالتدبر في كتاب الله دون التفسير، وخوطب به ابتداءً الكفار في آيات التدبر، وأما التفسير فهو واجب بحسب الحاجة إليه لفهم كتاب الله تعالى.

رابعًا: إن التدبر لا يحتاج إلى شروط إلا فهم المعنى العام مع حسن القصد وصدق الطلب، ولذلك قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر:١٧]، أما التفسير؛ فله شروط ذكرها العلماء، لأنه من القول على الله، ولذا تورع عنه بعض السلف رحمهم الله.

ولذا يقال: لا يعذر المسلم في التدبر، ويعذر في التفسير.

ثانيًا: الفرق بين التدبر والاستنباط.

يقال في الفرق بين التدبر والاستنباط كما قيل في الفرق بين التدبر والتفسير؛ لأن غرض التفسير والاستنباط واحد هو فهم المعنى وما يدل عليه، فالتفسير في الفهم، والاستنباط في الدلالات،وأما التدبر فيتجاوزهما إلى قصد التذكر والاتباع، وبذلك يكون التدبر أوسع منهما.

ثالثًا: الألفاظ المقاربة للتدبر والفرق بينها:

هناك ألفاظ مقاربة للتدبر وهي: التأمل، والتفكر، والنظر، والتذكر، والاعتبار، والاستبصار.

وقد أبان ابن القيم الفرق بينها، فقال: «هذه معانٍ متقاربةٌ تجتمع في شيءٍ، وتتفرق في آخر:

فيسمى تفكرًا لأنه استعمال الفكرة في ذلك وإحضاره عنده.

ويسمى تذكرًا لأنه إحضار للعلم الذي يجب مراعاته بعد ذهوله وغيبته عنه.

وكل من التذكر والتفكر له فائدة غير فائدة الآخر فالتذكر يفيد تكرار القلب على ما علمه وعرفه ليرسخ فيه ويثبت ولا ينمحي فيذهب أثره من القلب جملة، والتفكر يفيد تكثير العلم واستجلاب ما ليس حاصلاً عند القلب فالتفكر يحصله والتذكر يحفظه.

ويسمى نظرًا لأنه التفات بالقلب إلى المنظور فيه.

ويسمى تأملاً لأنه مراجعة للنظر كرة بعد كرة حتى يتجلى له وينكشف لقلبه.

ويسمى اعتبارًا وهو افتعال من العبور لأنه يعبر منه إلى غيره فيعبر من ذلك الذي قد فكر فيه إلى معرفة ثالثة وهي المقصود من الاعتبار، ولهذا يسمى عبرة؛ إيذانا بأن

هذا العلم والمعرفة قد صار حالاً لصاحبه يعبر منه إلى المقصود به.

ويسمى تدبرًا لأنه نظر في أدبار الأمور وهي أواخرها وعواقبها، وتدبر الكلام أن ينظر في أوله وآخره ثم يعيد نظره مره بعد مرة ولهذا جاء على بناء التفعل كالتجرع والتفهم والتبين.

ويسمى استبصارًا وهو استفعال من التبصر وهو تبين الأمر وانكشافه وتجليه للبصيرة»[1].

❑ **القسم الثاني**: الدراسة التطبيقية: التحليل والاستدلال:

بعد أن تبين لنا مفهوم التدبر وما يتضمنه، والعلاقة بينه وبين المصطلحات الأخرى، ولتحقيق هذا المفهوم فإنني سأفصِّل القول في هذا القسم بذكر الأدلة من القرآن والسنة، والآثار الواردة عن السلف مما يؤكد ذلك ويجليه، ليطمئن قلب القارئ، وليكون ذلك تطبيقًا عمليًّا بالأمثلة من أحوال السلف الصالح الذين هم أكمل الناس تمثلاً للتدبر الأمثل، فهم الأسوة والقدوة، ولا سبيل لتحقيق التدبر والانتفاع بالقرآن إلا باتباع منهجهم والاقتداء بهم، كما قال مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا يصلح أمر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها».

*** المحور الأول: تحليل لآيات التدبر في القرآن:**

حين نتأمل في آيات التدبر الواردة في القرآن يتجلى لنا مفهوم التدبر من وجوه:

أولاً: سياق الآيات:

جميع آيات التدبر قد جاءت في غير سياق الحديث عن القرآن، وهذا يؤكد أن الغرض هو الأمر بالوقوف عند الآيات الواردة والتأمل فيها للإيمان والعلم والعمل،

---

(١) مفتاح دار السعادة ١/ ١٨٢.

ويظهر ذلك بما يلي:

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:٨٢]، وردت في سياق الأمر بطاعة الرسول ﷺ والاستجابة له والرجوع في الحكم إليه.

قال ابن جرير في معنى الآية: «أفلا يتدبر المبيتون غير الذي تقول لهم يا محمد كتاب الله، فيعلموا حجَّة الله عليهم في طاعتك واتباع أمرك...»(١).

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد:٢٤]، وردت في سياق الأمر بالاستجابة والإذعان وعدم التولي.

الآية الثالثة: قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون:٦٨] وردت في سياق تخويف المكذبين المستكبرين بالعذاب، تقريعًا لهم على عدم التذكر والانتفاع بها، وهذا يؤكد أن التدبر هو قصد التذكر والاتباع بالآيات.

قال أبو حيان: «قرعهم أولاً بترك الانتفاع بالقرآن، ثم ثانيًا بأن ما جاءهم جاء آباءهم الأولين: أي إرسال الرسل ليس بدعًا، ولا مستغربًا، بل أرسلت الرسل للأمم قبلهم، وعرفوا ذلك بالتواتر ونجاة مَن آمن، واستئصال مَن كذب»(٢).

الآية الرابعة: قوله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص:٢٩] وردت في سياق مخاصمة الكافرين في الحق الذي جاء به محمد، وذكر قصة داود وسليمان ورجوعهما للحق بعدما تبين وإنابتهما إلى الله.

فنلحظ من ورود هذه الآيات الآمرة بالتدبر في سياق الحديث عن غير القرآن

---

(١) جامع البيان ٨/ ٥٦٧.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٢٦٨.

أن الغرض منها الأمر بالوقوف عند الآيات الواردة والتأمل فيها والتذكر والانتفاع بها، مما يؤكد ما ذكرته بأن التدبر هو الوقوف عند الآيات والتأمل فيها بغرض التذكر والاتباع.

ثانيًا: بيان المراد بالتدبر من آيات التدبر:

الآيات المذكورة كلها معقبة -في نفس الآية- بما ينبئ عن مقصود التدبر، وهذا يظهر من وجوه:

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾[النساء: ٨٢] معقبة في نفس الآية بقوله: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:٨٢] وهذا يبين -والله أعلم-: أن المقصود بالتدبر التأمل في الآيات وما فيها من دلائل الصدق والحق، وهذا يؤكد أن التدبر هو الوقوف عند الآيات والنظر والتأمل فيما دلت عليه من الحق والصدق وغير ذلك، بقصد الانتفاع بها إيمانًا وعلمًا وعملاً.

قال الألوسي: «المعنى: أيعرضون عن القرآن فلا يتأملون فيه ليعلموا كونه من عند الله تعالى بمشاهدة ما فيه من الشواهد التي من جملتها هذا الوحي الصادق والنص الناطق بنفاقهم المحكي على ما هو عليه»[1].

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [محمد: ٢٤]، معقبة بقوله: ﴿ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد:٢٤]، وهذا يدل على أن من لوازم التدبر إقبال القلب وحضوره مع القرآن وإيمانه به، وهو ما يتضمنه الوقوع عند الآيات كما ذكرت.

قال الشنقيطي: «فقد أنكر تعالى عليهم إعراضهم عن تدبر القرآن، بأداة الإنكار التي هي الهمزة، وبين أن قلوبهم عليها أقفال لا تنفتح لخير، ولا لفهم قرآن».

---

(١) روح المعاني ٤/ ١٥٠.

الآية الثالثة: قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ ﴾ [المؤمنون: ٦٨] معقبة في نفس الآية بقوله: ﴿ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون:٦٨]، وهي تدل على أن من لوازم التدبر النظر والتأمل في الآيات الواردة وما دلت عليه، وهو مايتضمنه تعريف التدبر.

الآية الرابعة: قوله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص: ٢٩] عقبها بقوله: ﴿ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾، وهذا يؤكد أن لوازم التدبر قصد التذكر والاتباع، لأنه غاية له، وبذلك دلت الآية على ما تقرر من تضمن التدبر لقصد التذكر والاتباع، والله أعلم.

فظهر بذلك أن الآيات الأربع مشتملة على مفهوم التدبر المتضمنة لثلاثة أمور:

١- الوقوف عند الآيات بالقلب.

٢- النظر والتأمل فيما دلت عليه الآيات.

٣- قصد التذكر والاتباع.

ثالثًا: صيغة الفعل الواردة في الآيات:

جاءت صيغة الفعل في الآيات كلها بصيغة المضارع الدال على التجدد والاستمرار، وهذا يؤكد لنا أمور:

١- أن التدبر مأمور به دائماً حال القراءة، ويؤكد ذلك ورود الاستفهام ولام الأمر.

٢- أن التدبر لانهاية له في الآيات، وأن القارئ لن يبلغ النهاية فيه، وذلك لتوسع المعاني والدلالات والهدايات في الآيات وتجددها.

رابعًا: اختلاف المأمور بتدبره في الآيات:

بالنظر في الآيات الأربع نجد الاختلاف في المأمور بتدبره:

١- القرآن في آيتين من آيات التدبر السابق ذكرها.

٢- الآيات في آية واحدة.

٣- القول في آية واحدة.

ونستطيع أن نستنبط من هذا الاختلاف أمور:

١- أن آية النساء والمؤمنون الواردة بلفظ تدبر القرآن، وتدبر القول ظاهر فيها أن المراد تدبره من حيث العلم بأنه حق وبأنه دال على الصواب، ولذلك عقبت إحدى الآيتين بقوله: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:٨٢]، وعقبت الأخرى بقوله: ﴿ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون:٦٨]، والتعبير بالقرآن -والله أعلم- دال على أنه من عند الله كما يؤكده ختام الآية، والتعبير بالقول دال على أنه قول حق فيما تضمنه من الآيات والعبر، ويؤكده ختام الآية.

٢- أن آية محمد الواردة بلفظ تدبر القرآن، ظاهر فيها أن المراد الإيمان به والإقبال عليه وحضور القلب معه، ولذلك عقبت الآية بقوله: ﴿ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ أن آية (ص) الواردة بلفظ تدبر الآيات، ظاهر فيها معنى تدبر دلالات الآيات وهداياتها، ولذلك عقبت الآية بقوله: ﴿ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾، وبالتأمل في هذه الألفاظ واختلافها نجد أنها دالة على مفهوم التدبر بأركانه الثلاثة، أعني: حضور القلب، والتأمل في الدلالات، وقصد التذكر والاتباع، والله أعلم.

* **المحور الثاني:** أدلة الوقوف عند الآيات والتأمل فيها:

يؤكد تضمن التدبر للوقوف عند الآيات والتأمل فيها أدلة من القرآن والسنة وأقوال السلف وأحوالهم:

أولاً: الأدلة من القرآن:

القرآن دال على تضمن التدبر للوقوف عند الآيات والتأمل فيها، من وجوه:

١ – أن القرآن مليء بالنصوص الآمرة بالنظر في الآيات والتفكر والتبصر والتذكر، ومنها:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [يونس:٦٧].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد:٣].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد:٤].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر:٧٥].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ [طه:٥٤].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ [الروم:٢٢].

وفي أسلوب استفهامي يدعو للوقوف مع الآيات والتأمل في مقاصدها:

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤].

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠].

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٨٠].

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٣].

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص: ٧٢].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة: ٢٦].

وقد تكررت هذه الآيات في مواضع كثيرة من القرآن، مما يؤكد أن الغرض هو الحث على الوقوف عند الآيات والتأمل والتفكر وإعمال العقل والبصر والسمع فيها، والنظر في دلالاتها وهداياتها، والتذكر والاتباع، وهذا هو التدبر.

٢- تكرر الآيات في بعض السور مما يؤكد أنها للحث على الوقوف عندالآيات والتأمل فيها، ومن ذلك مثلاً:

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر:١٧] وردت هذه الآية في السورة أربع مرات، وتعددها دال على أن المقصود الوقوف عند الآيات والقصص الواردة والتذكر بها، ولهذا قال: ﴿ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾، وهي آية دالة دلالة صريحة على الحث على التدبر ولهذا قال: ﴿ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ ﴾أي للتذكر.

قوله تعالى: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن:١٣] وردت هذه الآية واحدًا وثلاثين مرة، وهي آية حاثة على الوقوف عند النعم والآلاء الواردة في السورة وتأملها مما يبعث على التذكر والإيمان.

٣- ورود القَسَم في ابتداء السور بالآيات الكونية وتعدده وتضمنه للتغيرات والأحوال التي تتضمنها الآيات الكونية المقسم بها فهذا التعدد دال على الأمر بالوقوف مع هذه الآيات والتأمل فيها للانتفاع والإيمان.

٤- اعتبار علم الوقف والابتداء وهو علم عظيم غرضه التدبر.

قال الزركشي في البرهان: «معرفة الوقف والابتداء: وهو فن جليل وبه يعرف كيف أداء القرآن ويترتب على ذلك فوائد كثيرة واستنباطات غزيرة وبه تتبين معاني الآيات»(١).

ثانيًا: السنة وأقوال السلف وأحوالهم:

بالنظر في السنة النبوية وأقوال السلف وأحوالهم نجد أنها دالة على أن التدبر هو الوقوف عند الآيات والتأمل فيها والتفاعل معها، ومما يشهد لذلك:

---

(١) البرهان في علوم القرآن ١/ ٣٤٢.

١- ما أخرجه النسائي وابن ماجه، عن أبي ذر، قال: «قام رسول الله ﷺ بنا ليلة فقام بآية يرددها وهي قوله تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]»[١].

فهذا الترديد وقوف عند الآية وتأمل في مشهدها العظيم.

٢- ما ورد عن عمر أنه مكث في تعلم سورة البقرة اثنتي عشرة سنة، وابنه عبد الله مكث في تعلمها ثماني سنين[٢].

وهذا يدل على طول وقفوهم وتأملهم فيها بتعلم ما فيها والعمل به.

ثالثًا: اللغة:

اللغة تدل على تضمن التدبر للوقوف مع الآيات والتأمل فيها من وجهين:

الأول: أن الوصول إلى أواخر الكلم ونهاياتها الذي هو أصل التدبر أمر يحتاج إلى وقوف مع الآيات وطول نظر وتأمل.

الثاني: مجيء التدبر على وزن التفعُّل، وهو ما يحتاج إلى بذل جهد وإعمال عقل وإمعان نظر، وإلقاء سمع؛ للوصول إلى ما وراء الألفاظ من المقاصد والمعاني والدلالات والهدايات.

يقول ابن القيم رحمه الله: «وتدبر الكلام أن ينظر في أوله وآخره ثم يعيد نظره مرة بعد مرة، ولهذا جاء على بناء التفعل كالتجرع والتفهم والتبين»[٣].

---

(١) أخرجه النسائي ٤/ ١٤٢١ ح١٠١٨، وابن ماجه ٤/ ٣٢٠ ح١٤١١، وصححه الألباني في المشكاة رقم ١٢٠٥.

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب ٢/ ٣٣١/ ١٩٥٧.

(٣) مفتاح دار السعادة ١/ ١٨٣.

* المحور الثالث: الأدلة على أن الوقوف عند الآيات يشمل الإقبال والتفاعل بالقلب واللسان والجوارح:

أولًا: الأدلة على أن الوقوف عند الآيات يكون بالقلب حضورًا وإيمانًا وتعظيمًا واستشعارًا بأنه المخاطب:

١- قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد:٢٤].

فقوله: ﴿ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ يؤكد أن التدبر يتضمن حضور القلب، حيث جعل من موانع التدبر انغلاق القلوب، وهذا دليل كاف على تضمن التدبر لحضور القلب الذي هو من مقدمات التدبر، وهو من الوقوف عند الآيات بالقلب.

٢- قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق:٣٧].

فقوله: ﴿ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾، وقوله: ﴿ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ دال على لزوم حضور القلب.

قال السعدي: «﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾ أي: قلب عظيم حي، ذكي، زكي، فهذا إذا ورد عليه شيء من آيات الله، تذكر بها، وانتفع، فارتفع، وكذلك من ألقى سمعه إلى آيات الله، واستمعها، استماعًا يسترشد به، وقلبه ﴿ شَهِيدٌ ﴾ أي: حاضر، فهذا له أيضًا ذكرى وموعظة، وشفاء وهدى»[1].

وقوله: ﴿ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ ﴾ دال على حضور السمع وإنصاته وإصغاؤه.

قال ابن كثير: «وقال الضحاك: العرب تقول: ألقى فلان سمعه: إذا استمع بأذنيه وهو شاهد يقول غير غائب. وهكذا قال الثوري وغير واحد»[2].

---

(١) تيسير الكريم المنان في تفسير كلام الرحمن ١/ ٨٠٧.

(٢) تفسير ابن كثير ٧/ ٤٠٩.

٣- قوله تعالى: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [يس:٦٩-٧٠].

قال السعدي: «﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا ﴾ أي: حي القلب واعيه، فهو الذي يزكو بهذا القرآن، وهو الذي يزداد من العلم منه والعمل، ويكون القرآن لقلبه بمنزلة المطر للأرض الطيبة الزاكية»[١].

٤- قال مالك بن دينار: «أقسم لكم لا يؤمن عبد بهذا القرآن إلا صدع قلبه»[٢].

٥- قال الإمام البخاري: «لا يجد طعمه ونفعه إلا من آمن بالقرآن ولا يحمله بحقه إلا الموقن»[٣].

٦- قال الحسن: «إنكم اتخذتم قراءة القرآن مراحل وجعلتم الليل جملاً؛ فأنتم تركبونه فتقطعون به مراحله، وإن من كان قبلكم رأوه رسائل من ربهم فكانوا يتدبرونها بالليل وينفذونها بالنهار»[٤].

٧- وقال ابن القيم: «إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألق سمعك، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه إليه، فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله ﷺ».

ثانيًا: الأدلة على أن الوقوف عند الآيات يكون باللسان ترتيلاً وترسلاً وتحزنًا وتكرارًا وتفاعلاً بالسؤال والتعوذ عند مناسبة ذلك ما يلي:

---

(١) تيسير الكريم المنان في تفسير كلام الرحمن ١/ ٦٩٨.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٢٩٨.

(٣) صحيح البخاري ٢٤/ ٤١٠.

(٤) التبيان في آداب حملة القرآن للنووي ص ٢٨.

١ – قوله تعالى: ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾ [المزمل:٤].

قال الرازي: «قال تعالى: ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾ الإسراع في القراءة يدل على عدم الوقوف على المعاني»(١).

وقال ابن كثير: «وقوله: ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾ أي: اقرأه على تمهل، فإنه يكون عونًا على فهم القرآن وتدبره. وكذلك كان يقرأ ﷺ، قالت عائشة: «كان يقرأ السورة فيرتلها، حتى تكون أطول من أطول منها».

وفي «صحيح البخاري»، عن أنس: أنه سئل عن قراءة رسول الله ﷺ، فقال: «كانت مدًّا، ثم قرأ ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ يمد بسم الله، ويمد الرحمن، ويمد الرحيم».

وقال ابن جُرَيج، عن ابن أبي مُلَيكة عن أم سلمة: أنها سُئلت عن قراءة رسول الله ﷺ، فقالت: «كان يقطع قراءته آية آية، ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الفاتحة:١-٢] رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي»(٢).

٢- قوله تعالى: ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾ [الإسراء:١٠٦]، قال مجاهد: {على مكث}: على تؤدة(٣).

٣- كانت قراءة النبي ﷺ كما نعتتها أم سلمة رضي الله عنها قالت: «كانت قراءة رسول الله ﷺ مفسرة حرفًا حرفًا»(٤).

---

(١) مفاتيح الغيب ٣٠/ ١٥٤.

(٢) تفسير ابن كثير ٨/ ٢٥٠.

(٣) جامع البيان ٧/ ٥٧٥.

(٤) أخرجه الترمذي وصححه ٥/ ١٨٥ ح٢٩٢٣.

٤- عن حفصة زوج النبي ﷺ، أنها قالت: «كان ﷺ يقرأ في السورة، فيرتلها، حتى تكون أطول من أطول منها»[١].

٥- ما روي عن سعد بن أبي وقاص قال: قال ﷺ: «إن هذا القرآن نزل بحزن، فإذا قرأتموه فابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا، وتغنوا به فمن لم يتغن به فليس منا»[٢].

٦- ما روي عن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «إن القرآن نزل بحزن فإذا قرأتموه فتحازنوا»[٣].

٧- أخرج مسلم عن حذيفة قال: «صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة فافتتح البقرة، فقلت: يركع عند المائة ثم مضى، فقلت: يصلي بها في ركعة فمضى، فقلت: يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها، يقرأ مترسلاً، إذا مرَّ بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مرَّ بسؤال سأل، وإذا مرَّ بتعوذ تعوذ»[٤].

٨- أخرج النسائي وابن ماجة عن أبي ذر قال: «قام رسول الله ﷺ بنا ليلة فقام بآية يرددها وهي قوله تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة:١١٨]»[٥].

٩- ورد ذلك أيضًا عن عدد من الصحابة والتابعين كعائشة وسعيد بن جبير

---

(١) أخرجه مسلم (٥/ ١٥١، برقم ١٧٤٦).

(٢) أخرجه ابن ماجه (١/ ٤٢٤، رقم ١٣٣٧)، والبيهقى في شعب الإيمان (٢/ ٣٦٢، رقم ٢٠٥١)، وأبو يعلى (٢/ ٤٩، رقم ٦٨٩)، وقال ابن كثير: «وفي الحديث كلام طويل يتعلق بسنده» فضائل القرآن ١/ ١١٤.

(٣) أخرجه أبو يعلى بسند ضعيف (٢/ ٤٩، رقم ٦٨٩).

(٤) أخرجه مسلم ٥/ ١٦٦رقم ١٨٥٠.

(٥) أخرجه النسائي ٤/ ١٤٢١ح١٠١٨، وابن ماجه ٤/ ٣٢٠ ح١٤١١.

والربيع بن خثيم وغيرهم.

وقال ابن القيم: «هذه عادة السلف يردد أحدهم الآية حتى يصبح»[1].

قال أبو حامد الغزالي: «وإذا لم يتمكن من التدبر إلا بترديد فليردد»[2].

١٠- قال ابن مسعود لعلقمة وقد عجل في القراءة: «فداك أبي وأمي رتل؛ فإنه زين القرآن»[3].

١١- عن أبي جمرة قال: قلت لابن عباس: «إني سريع القراءة وإني أقرأ القرآن في ثلاث فقال: لأن اقرأ البقرة في ليلة فأدبرها وأرتلها أحب إليَّ من أن أقرأ كما تقول»[4].

١٢- يقول إسحاق بن إبراهيم عن الفضيل بن عياض: «كانت قراءته حزينة شهية بطيئة مترسلة كأنه يخاطب إنسانًا، وكان إذا مرَّ بآية فيها ذكر الجنة يردد فيها ويسأل»[5].

* المحور الثالث: الدليل على أن التدبر شامل للتأمل فيما وراء النص:

ذكرنا معنى التدبر في الأصل اللغوي وأقوال العلماء في ذلك، وهي كافية في الدلالة، إذ أن هذا الركن هو الأصل في التدبر.

أما أدلة ما يشمله التأمل في الآيات؛ فظاهرة من وجوه:

أولًا: إدراك مغزى الآيات: لأن القرآن الكريم له مقاصد وغايات جاء لتحقيقها

(١) مفتاح دار السعادة ١/ ٢٢٢.

(٢) إحياء علوم الدين ١/ ٩٢.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٢/ ٢٥٥، برقم ٨٧٢٤).

(٤) أخرجه عبد الرزاق (٢/ ٤٨٩، رقم ٤١٨٧).

(٥) سيرة أعلام النبلاء ٢/ ٦٦٢.

في حياة الأفراد والمجتمعات وهي غايات عامة، فلا بد أن يكون من غرض المتدبر الوقوف على مقاصد الآيات وغاياتها ليدركها ويحققها في نفسه.

ثانيًا: فهم المعنى: لأن التدبر يستلزم فَهْم معاني الآيات؛ كما يقول ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «محال أنْ يُقَال لمن لا يَفهم ما يُقَال له، ولا يَعْقِل تأويلَه: «اعتبرْ بِما لا فَهْم لك به، ولا مَعْرفة مِن القيل والبيان»! إلا على معنى الأَمْرِ بأَنْ يَفْهَمه، ويفقهه، ثم يتدبره، ويعتبر به، فأَمَّا قَبْل ذلك فمستحيلٌ أَمْرُهُ بتدبُّره، وهو بمعناه جاهِلٌ»[1].

قال الشوكاني: «إنَّ التدبر هو التأمُّل؛ لفهم المعنى..»[2].

ثالثًا: استخراج دلالاتها وهداياتها: لأنها هي أواخر الكلم ونهاياته وهي المقصودة أصلاً، فلا بد أن يتضمنها التدبر، وهي ما يسمى بالاستنباط الذي هو استخراج ما خفي من النص القرآني الظاهر المعنى[3].

قال ابن عاشور: «معنى ﴿يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [محمد: ٢٤]: يتأمَّلون دلالته، وذلك يحتمل معنيين:

أحدهما: أن يتأمَّلوا دلالة تفاصيل آياته على مقاصده التي أرشد إليها المسلمين، أي تدبُّر تفاصيله.

وثانيهما: أن يتأمَّلوا دلالة جملة القرآن ببلاغته على أنَّه من عند الله، وأنَّ الذي جاء به صادق»[4].

قال عبد الرحمن حبنكة: «التدبر: هو التفكر الشامل الواصل إلى أواخر دلالات

(١) جامع البيان في تأويل آي القرآن ١/ ٨٢.

(٢) فتح القدير ١/ ٤٩١.

(٣) انظر: منهج الاستنباط ص ١٠٢.

(٤) التحرير والتنوير ١/ ٩٩٤.

الكلم ومراميه البعيدة»[1].

ومما يشهد لدخولها في التدبر ما استدل به ابن القيم في قوله: «فصل في ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [محمد: ٢٤]؛ فإن قلت: إنك قد أشرت إلى مقام عظيم فافتح لي بابه واكشف لي حجابه وكيف تدبر القرآن وتفهمه والإشراف على عجائبه وكنوزه وهذه تفاسير الأئمة بأيدينا فهل في البيان غير ما ذكروه قلت: سأضرب لك أمثالاً تحتذي عليها وتجعلها إمامًا لك في هذا المقصد.

قال الله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الذاريات: ٢٤-٣٠].

فعهدي بك إذا قرأت هذه الآية وتطلعت إلى معناها وتدبرتها فإنما تطلع منها على أن الملائكة أتوا إبراهيم في صورة الأضياف يأكلون ويشربون وبشروه بغلام عليم وإنما امرأته عجبت من ذلك فأخبرتها الملائكة أن الله قال ذلك ولم يتجاوز تدبرك غير ذلك؛ فاسمع الآن بعض ما في هذه الآيات من أنواع الأسرار:

فكم قد تضمنت من الثناء على إبراهيم.

وكيف جمعت الضيافة وحقوقها.

وما تضمنت من الرد على أهل الباطل من الفلاسفة والمعطلة.

وكيف تضمنت علماً عظيماً من أعلام النبوة.

(١) قواعد التدبر الأمثل ص ١٠.

وكيف تضمنت جميع صفات الكمال التي ردها إلى العلم والحكمة.

وكيف أشارت إلى دليل إمكان المعاد بألطف إشارة وأوضحها ثم أفصحت وقوعه.

وكيف تضمنت الإخبار عن عدل الرب وانتقامه من الأمم المكذبة.

وتضمنت ذكر الإسلام والإيمان والفرق بينهما.

وتضمنت بقاء آيات الرب الدالة على توحيده وصدق رسله وعلى اليوم الأخر.

وتضمنت أنه لا ينتفع بهذا كله إلا من في قلبه خوف من عذاب الآخرة وهم المؤمنون بها.

وأما من لا يخاف الآخرة ولا يؤمن بها فلا ينتفع بتلك الآيات.

فاسمع الآن بعض تفاصيل هذه الجملة...»[1].

ثم فصل في بيانها بما لا حاجة لذكره هنا.

فظهر بذلك أن استخراج الدلالات وأسرار التعبير من التدبر، ولذلك قال في سياق كلامه: «فعهدي بك إذا قرأت هذه الآية وتطلعت إلى معناها وتدبرتها فإنما تطلع منها على...».

* المحور الرابع: أدلة وشواهد قصد الانتفاع بها إيمانًا علمًا وعملاً:

وهذا هو بيت القصيد ومحط الراحل وغاية المتدبر.

وإنما قلنا: بتضمن التدبر لقصد الانتفاع بها علمًا وإيمانًا وعملاً لأن الغاية من قراءة القرآن هي التذكر والاتباع، والتدبر وسيلة لذلك فلا بد أن يتضمنه التدبر الذي هو مقصد نزول القرآن.

أما قصد مجرد التلاوة، أو مجرد العلم بالمعنى دون قصد الانتفاع بها علمًا وإيمانًا

(١) زاد المهاجر إلى ربه ص ٦٣-٦٨.

وعملاً فذلك أمر قاصر عن التدبر.

والانتفاع بها؛ أي: إيمانًا وعلمًا وعملاً:

أما الإيمان: فالمقصود به ما تورثه القراءة من زيادة الإيمان والخشية، وهو أعظم غايات الانتفاع بالقرآن وثمراته، ويشهد لذلك:

١- قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال:٢].

٢- قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [التوبة:١٢٤].

فتأمل التعبير في الآيتين بقوله: ﴿ زَادَتْهُمْ ﴾ مما يدل على أن أعظم آثار القرآن هو الإيمان، وذلك لا يكون إلا بالتدبر، فالإيمان إذاً مقصد من مقاصد المتدبر للقرآن.

٣- قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [البقرة:١٢١].

فتأمل قوله: ﴿ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾ ثم عقبها بقوله: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ ﴾ مما يدل على أن التلاوة المصاحبة للتدبر مؤدية للإيمان.

وأما العلم فالمقصود به أمران:

أولًا: العلم بما تضمنته الآيات من المعاني والدلالات.

الثاني: العلم بما تضمنته الآيات مما يلزم الامتثال له من الأوامر والنواهي، وما يلزم الاتعاظ به من الوعد والوعيد، والعبر والسنن الإلهية.

ويشهد لذلك:

١- قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾

[العنكبوت:٤٣].

قال السعدي في تفسيره للآية: «﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ﴾ بفهمها وتدبرها، وتطبيقها على ما ضربت له، وعقلها في القلب، ﴿إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ أي: أهل العلم الحقيقي، الذين وصل العلم إلى قلوبهم، وهذا مدح للأمثال التي يضربها، وحثٌّ على تدبرها وتعقلها، ومدح لمن يعقله»(١).

٢- ما ورد عن عمر أنه مكث في تعلم سورة البقرة اثنتي عشرة سنة، وابنه عبد الله مكث في تعلمها ثماني سنين(٢).

٣- أخرج ابن أبي حاتم في تفسيره عن عبد الله بن مسعود قال: إذا سمعت الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؛ فأرعها سمعك؛ فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه(٣).

وأما العمل، فهو ثمرة الإيمان وعاقبة التدبر.

والقرآن -بكونه مثاني- مليء بالأساليب المحفزة للعمل بالقرآن، ومنها أسلوب الأمر والنهي، وأسلوب الجزاء والعقاب، وأسلوب الوعد والوعيد، وأسلوب الترغيب والترهيب، وهذه الأساليب وغيرها دالة على أن القرآن أنزل للامتثال والعمل، وهذا يؤكد لنا أن التدبر لا يكون إلا بالإقبال على القرآن بنية الامتثال والعمل.

وهذا هو منهج النبي ﷺ والسلف الصالح، وغاية مرادهم من القرآن، ويشهد له:

---

(١) تفسير السعدي ١/ ٦٣١.

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب (٦/ ١٩٠٠،١٨٩٩).

(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٤/ ٢٠٠رقم ١٠٣٣.

١- أخرج مسلم عن سعد بن هشام بن عامر قال: سألت عائشة رضي الله عنها فقلتُ: يا أم المؤمنين أنبئيني عن خلق رسول الله ﷺ، قالت: ألستَ تقرأ القرآن؟ قلت: بلى، قالت: فإن خلق نبي الله ﷺ كان خلقه القرآن، فقلتُ: أنبئيني عن قيام رسول الله ﷺ، فقالت: ألستَ تقرأ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ [المزمل:١]؟ قلتُ: بلى، قالت: فإن الله عز وجل افترض قيام الليل في أول هذه السورة، فقام نبي الله ﷺ وأصحابه حولاً، وأمسك الله خاتمتها اثني عشر شهرًا في السماء حتى أنزل الله في آخر هذه السورة التخفيف؛ فصار قيام الليل تطوعًا بعد فريضة[1]..

ففي هذا الحديث دلالة على منهج النبي ﷺ في التعامل مع القرآن وهو التخلق بأخلاقه، والعمل بأوامره، ولذا حين نزلت عليه سورة المزمل عرف ﷺ حقيقة الأمر وقدَّره، فقال لخديجة رضي الله عنها وهي تدعوه أن يطمئن وينام: «مضى عهد النوم يا خديجة».

٢- ويشهد لذلك أيضًا ما أخبرت به عائشة رضي الله عنها حينما سئلت عن خلق رسول الله ﷺ، فقالت: «كان خلقه القرآن، يغضب لغضبه، ويرضى لرضاه»[2]. يصدق ذلك القرآن بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤].

٣- وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال له رجل: هِي يا ابن الخطاب! فوالله ما تعطينا الجزل! ولا تحكم بيننا بالعدل! فغضب حتى همَّ به، فقال له الحر: يا أمير المؤمنين إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف:١٩٩]، وإن هذا من الجاهلين. يقول ابن عباس: والله ما جاوزها عمر حين

(١) أخرجه مسلم ٥/ ٨٠ رقم ١٧٧٣.

(٢) أخرجه الحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجانه، ٩/ ٣٩ ح٣٨٠١.

تلاها عليه، وكان وقافًا عند كتاب الله»[1].

٤- وما روي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «كان الرجل منَّا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن»[2].

٥- وقال ابن عمر: «كان الفاضل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في صدر هذه الأمة لا يحفظ من القرآن إلا السورة أو نحوها، ورزقوا العمل بالقرآن، وإن آخر هذه الأمة يرزقون القرآن منهم الصبي والأعمى، ولا يرزقون العمل به»[3].

٦- وقال أبو عبد الرحمن السلمي، وهو أحد تلاميذ الصحابة: «إنما أخذنا القرآن من قوم أخبرونا أنهم كانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يجاوزوهن إلى العشر الأخر حتى يعلموا ما فيهن من العمل، قال: فتعلمنا العلم والعمل جميعًا»[4].

٧- وقال الحسن البصري: «والله ما تدبره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: قرأت القرآن كله! ما يرى له القرآن في خلق ولا عمل»[5].

وقد أكد السلف والعلماء على أن يكون هذا هو حال حامل القرآن وتاليه بحيث يظهر أثر القرآن عليه خلقًا وعملاً ومن ذلك:

١- قال ابن مسعود: «ينبغي لحامل القرآن أن يُعرف بليله إذا الناس ينامون، وبنهاره إذا الناس يفرطون، وبحزنه إذا الناس يفرحون، وببكائه إذا الناس يضحكون، وبصمته إذا الناس يخوضون، وبخشوعه إذا الناس يختالون، وينبغي لحامل القرآن أن

(١) أخرجه البخاري ١٥/ ٢٣٨ ح٤٦٢٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ٤.

(٣) أخلاق أهل القرآن للآجري ص١٠.

(٤) فضائل القرآن للفريابي ص٢٤١.

(٥) أخرجه عبد الرزاق في المصنف ٣/ ٣٦٤.

يكون مستكينًا لينًا، ولا ينبغي له أن يكون جافيًا ولا مماريًا ولا صياحًا ولا صخابًا ولا حديدًا»[١].

٢- عن الفضيل بن عياض قال: «حامل القرآن حامل راية الإسلام لا ينبغي أن يلهو مع مَن يلهو ولا يسهو مع مَن يسهو ولا يلغو مع مَن يلغو تعظيمًا لحق القرآن»[٢].

٣- قال الآجري في أخلاق حملة القرآن: «يتصفح القرآن ليؤدب به نفسه، همته: متى أكون من المتقين؟ متى أكون من الخاشعين؟ متى أكون من الصابرين؟ متى أزهد في الدنيا؟ متى أنهى نفسي عن الهوى؟»[٣].

فهذا يؤكد لنا أن القارئ للقرآن لا بد أن يكون مستصحبًا في تلاوته نية قصد التذكر والاتباع، وهذا هو التدبر.

*** الخاتـمــة:**

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

ففي نهاية هذه الدراسة التي يسر الله تعالى إعدادها حول مفهوم التدبر في ضوء القرآن والسنة وأقوال السلف وأحوالهم، يمكن أن نخلص إلى أمور وتوصيات مهمة:

١- إن مفهوم تدبر القرآن لا يحد بمعناه اللغوي وهو النظر فيما وراء الألفاظ من المعاني والدلالات، وإنما يمتد إلى مقدمات التدبر وهو حضور القلب واستشعاره، ونهاياته وهو قصد الانتفاع إيمانًا وعلمًا وعملاً.

---

(١) التبيان في آداب حملة القرآن ص٥٥.

(٢) المصدر السابق ص٥٤.

(٣) أخلاق حملة القرآن ص٤٠.

٢- إن الفرق بين التدبر وبين التفسير والاستنباط يتحدد بحسب غرض القارئ لكتاب الله تعالى؛ فالمفسر والمستنبط يكون غرضه الوصول إلى المعاني والدلالات، والمتدبر لا بد أن يكون مع ذلك مستصحبًا قصد الانتفاع بها إيمانًا وعملاً؛ فهذا الذي يميز التدبر عن التفسير، وهو الفرق الجوهري بينهما.

٣- إن التدبر واجب الأمة كلها لأنه غاية من إنزال القرآن كما صرحت الآيات بذلك أمرًا به وحثًّا عليه، وأن التفسير هو واجب بحسب الحاجة إليه لفهم القرآن والعمل به، والناس فيهما مراتب بحسب رسوخ إيمانهم وعلمهم.

٤- إن منهج السلف الصالح في التدبر يبرز في الجانب العملي، لأنهم كما قال ابن عمر: «ورزقوا العمل بالقرآن»، وهذا الذي تفقده الأمة اليوم كما قال في تمام كلامه: «وإن آخر هذه الأمة يرزقون القرآن منهم الصبي والأعمى، ولا يرزقون العمل به»[1].

*** التوصيات:**

للخروج بمنهج عملي لهذا الموضوع المهم يمكن أن نخلص إلى توصيات مهمة:

١- إن أعظم ما يجب على أهل العلم بالقرآن والمهتمين به والمؤسسات القرآنية في هذا الوقت هو العودة بالأمة إلى منهج التدبر الأمثل الذي تمثله الجيل الأول من الصحابة والتابعين، وذلك بتوجيههم لأبناء الأمة وأجيالها لتلقي القرآن بقصد العلم والإيمان والعمل مع قصد التلاوة والحفظ.

٢- إقامة لقاءات دورية تجمع النخبة من أهل العلم والتخصص والاهتمام بغرض دراسة الخطط والمناهج العملية للتدبر وسبل تفعيلها، ومن ثم نشرها بين

(١) أخلاق أهل القرآن للآجري ص١٠.

المؤسسات والمدارس القرآنية والتعليمية.

٣- أَنْ يتركز عمل هذا المشروع المبارك -أعني الهيئة العالمية لتدبر القرآن ومشاريعها- على تفعيل منهج التدبر العملي الذي تمثل في منهج السلف الصالح، وأن يسعى المركز لطرح البرامج والمناهج العملية التي تدعم مناهج المؤسسات والمدارس القرآنية القائمة على تحفيظ القرآن الكريم، ليكتمل البناء ويظهر الأثر العظيم للقرآن في الجيل المعاصر.

٤- أَنْ تتبنى الهيئة إقامة معاهد عليا للدراسات التدبرية، ومراكز قرآنية للتدريب لإقامة دورات تدريبية للعاملين في المدارس والحلقات والدور القرآنية على التدبر وطرقه ومناهجه.

٥- أن يكون من عمل (جوال تدبر) نشر الوعي بهذا المنهج بالتركيز على نشر الآثار الواردة عن السلف في ذلك مع التوجيهات المناسبة لذلك، وأن يتبنى منهجًا يجمع بين الجانب النظري بالتفسير والاستنباط والجانب العملي بالتوجيه للانتفاع والعمل؛ بحيث تضمن الرسالة الاستنباطية ما يمكن الاستفادة منه عملاً وسلوكًا.

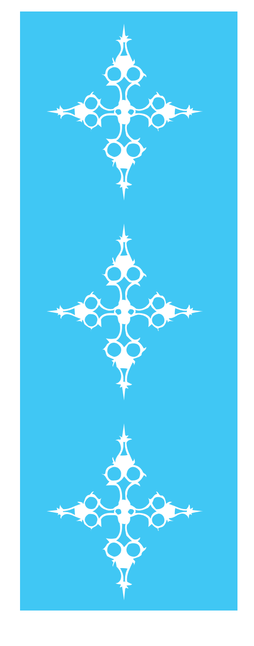
هذا ما يسر الله تعالى كتابته، ونسأل الله تعالى أن يجعلنا من أهل القرآن المتدبرين له والعاملين به، وأن يرزق الأمة عودة صادقة إلى كتاب ربها، وتقويم سبيلها به على وفق منهج سلفها الصالح.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكتبه

د. محمد بن عبدالله الربيعة

الأستاذ المساعد بقسم القرآن وعلومه بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة القصيم



فهرس المراجع والمصادر

أولًا: القرآن وعلومه:

- القرآن العظيم.
- الإتقان في علوم القرآن - جلال الدين السيوطي - دار التراث - القاهرة.
- أخلاق حملة القرآن - الآجري - دار الكتاب العربي - لبنان.
- التبيان في آداب حملة القرآن - أبو زكريا النووي - الوكالة العامة للتوزيع - دمشق - ط١ ١٤٠٣هـ.
- تدبر القرآن - سليمان السنيدي - المنتدى الإسلامي -ط١-١٤٢٢هـ.
- التعبير القرآني والدلالة النفسية - د. عبد الله الجيوسي - دار الغوثاني - دمشق - ط٢-٢٠٠٧.
- تفسير القرآن العظيم - الحافظ ابن كثير - دار طيبة - ط٢ - ١٤٢٠هـ.
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور - جلال الدين السيوطي - دار الكتب العلمية - بيروت - ط١-٢٠٠٠م.

- عظمة القرآن الكريم - محمود الدوسري - دار ابن الجوزي - ط١-١٤٢٦هـ.

- فتح من الرحمن الرحيم في بيان كيفية تدبر كلام المنان - د. أحمد منصور آل سبالك - المكتب الإسلامي -ط١ - القاهرة.

- فضائل القرآن - أبو عبيد القاسم الهروي - دار ابن كثير - دمشق - ط٢-١٤١٠هـ.

- فضائل القرآن - الفريابي - مكتبة الرشد - الرياض - ط٢-١٤٢١.

- قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله تعالى - عبد الرحمن حسن حبنكة - دار القلم - دمشق - ط٢-١٤٠٩.

- الكشاف - الزمخشري - دار الكتاب العربي - بيروت- ط٣- ١٤٠٧هـ.

- كيف نتعامل مع القرآن - محمد الغزالي - دار الوفاء - مصر - ط٢-١٤٢١هـ.

- كيف نتعامل مع القرآن - يوسف القرضاوي - دار الشروق - مصر.

- كيف ننتفع بالقرآن - أحمد الأميري - مؤسسة الريان - - بيروت.

- مع أشراف الأمة حملة القرآن - محمد حسين الرنتاوي - ط٢ ١٤٢٧هـ.

- مع القرآن وحملته في حياة السلف - عبيد بن أبي نفيع الشعبي - دار الوطن - الرياض ط٢-١٤١٧هـ.

- مفاتيح تدبر القرآن - خالد اللاحم - المؤلف نفسه - ط١١٤٢٥هـ.

- مفهوم التفسير والتأويل والاستنباط والتدبر والمفسر - د. مساعد بن سليمان الطيار - دار ابن الجوزي - الدمام -ط١ ١٤٢٣هـ.

- منهج الاستنباط من القرآن - د. فهد بن مبارك الوهبي - مركز الدراسات



والمعلومات القرآنية بمعهد الشاطبي - جدة - ط١ -١٤٢٨هـ .

- منهج السلف في العناية بالقرآن - د. بدر لن ناصر البدر - دار الضياء الخيرية - ط١ - ١٤٢٨هـ.

ثانيًا: السنة وعلومها:

- الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان - مؤسسة الرسالة - دمشق - ط١- ١٤٠٨هـ .

- سنن الترمذي - تحقيق أحمد شاكر - دار إحياء التراث - بيروت.

- سنن الدارمي - دار الحديث - القاهرة - ط١ - ١٤٢٠هـ .

- سنن أبي داود - دار الفكر - بيروت.

- سنن ابن ماجه - تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي - دار الفكر - بيروت.

- صحيح البخاري - مكتبة العبيكان - الرياض ط١٤١٧هـ .

- صحيح مسلم - تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي - دار الحديث -القاهرة - ط١ - ١٤١٢هـ .

- المستدرك على الصحيحين - الحاكم - دار الكتب العلمية -بيروت - ط١ ١٤١١هـ .

- مسند الإمام أحمد - مؤسسة الرسالة - بيروت -ط٢-١٤٢٠هـ .

- مصنف ابي أبي شيبة - مكتبة الرشد - الرياض - ط٢-١٤٠٩هـ .

- مصنف عبد الرزاق - المكتب الإسلامي - بيروت - ط٢ - ١٤٠٣هـ .

ثالثًا: اللغة وعلومها:

- التعريفات للشريف علي بن محمد الجرجاني - دار الشروق - ط ٣ ١٣٩٩هـ.
- الفروق اللغوية - أبو هلال العسكري.
- لسان العرب - محمد بن منظور - دار صادر - بيروت.
- المعجم الوسيط د. إبراهيم أنيس د. عبد الحليم منتصر وعطية الصوالحي ومحمد خلف.
- معجم مقاييس اللغة - تحقيق عبدالسلام هارون - اتحاد الكتاب العربي - ١٤٢٣هـ.

رابعًا: كتب السيرة والتاريخ:

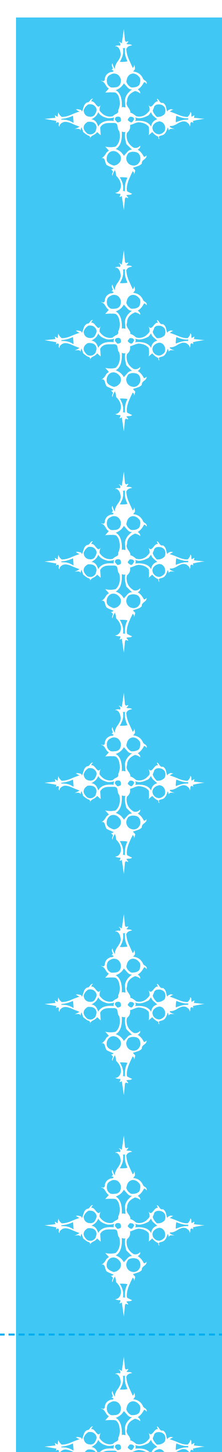
- البداية والنهاية - ابن كثير - دار الريان - القاهرة - ط١ ١٤٠٨هـ.
- حياة الصحابة للدهلوي - شركة الرياض - ط١ - ١٩٩٨م.
- سير أعلام النبلاء - الذهبي - مؤسسة الرسالة - ط٤-١٤٠٦هـ.
- السيرة النبوية لابن هشام - دار التراث العربي - القاهرة.

خامسًا: كتب عامة:

- إحياء علوم الدين - الغزالي - دار الحديث -ط١-١٤١٢هـ .

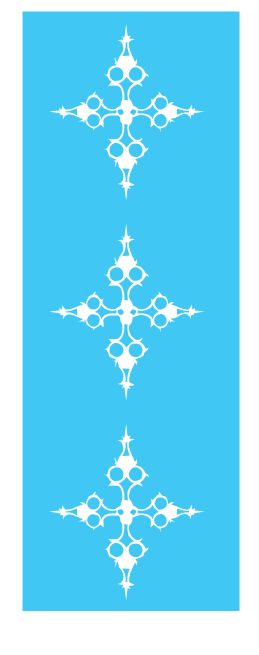
- زاد المهاجر إلى ربه (الرسالة التبوكية) - ابن القيم الجوزية - مكتبة المدني -جدة.

- مفتاح دار السعادة - ابن القيم الجوزية - دار الكتب العلمية - بيروت.





تعقيبات الجلسة الثالثة



د. فهد الرومي

التعقيب الأول

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين..

شكر الله للإخوة الأفاضل منظمي هذا اللقاء العلمي المبارك ما بذلوه من جهد، وما قدموه من عمل، فنسأل الله تعالى أن يجعله في موازين حسناتهم.

وقد أحسن القائمون على هذه الندوة اختيار موضوعها، فالتدبر هو الأساس الذي تقوم عليه كل علوم القرآن الكريم، بل كل العلوم الشرعية، وهو بحاجة إلى دراسات تنظيمية وتطبيقية، ودراسات لأصوله وقواعده، ومفاتحه ومراتبه، ودراسات شرعية وتربوية ونفسية يسلكها المتدبرون ليصلوا إلى الثمرة المرجوة الآجلة والعاجلة.

وما قدمه الإخوة الباحثون ليس إلا مدخلاً من مداخل التدبر، وخطوة في طريق طويل.

ولنقف عند التفريق بين تعريف التدبر اللغوي والاصطلاحي، فإنا نجد في نصوص العلماء ما قد نفهم منه أن التدبر للقرآن أوسع وأعم من التدبر بالمعنى

اللغوي، خلاف ما هو معروف من العموم في التعريف اللغوي والخصوص في المعنى الشرعي في مصطلحات شرعية كثيرة؛ كالصلاة والزكاة والصيام والحج.

وقد جرت نصوص العلماء على تفسير التدبر بالمعنى الشرعي بمعنى يزيد على معناه اللغوي كقول الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وما تدبر آياته إلا باتباعه»، وفسر كثير من المفسرين التدبر في قوله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ [ص: ٢٩] بالعمل به.

وقد أدخل كثير من الباحثين والعلماء آثار التدبر في التدبر كاجتماع القلب، والبكاء، والخشوع، والقشعريرة، وزيادة الإيمان، والفرح، والسجود تعظيماً لله، ومَن لم يشعر بشيء من ذلك فهو لم يتدبر.

وأرى أن التدبر كالصورة الواحدة المكونة من عدة أجزاء لا تكتمل إلا بسائر أجزائها، وهو مكون من ثلاثة أجزاء:

١- التدبر قبل التلاوة.

٢- التدبر أثناء التلاوة.

٣- التدبر بعد التلاوة.

ومَن لم يحقق هذه الأمور فليس بمتدبر.

ومما يدخل في مفهوم التدبر قبل التلاوة: حضور القلب وتهيئته بالتخلي عن الشواغل، والتعلق بالزخارف، والميل إلى الشهوات، وقبل ذلك حسن النية والإخلاص، ونحو ذلك...

وأما ما يدخل في مفهوم التدبر أثناء التلاوة فأمور كثيرة ذكر الإخوة بعضها؛ كالتكرار، والحفظ، والقرآءة بتأن وتؤدة، والجهر بالقرآءة لاستيفاء واستحضار

أدوات التدبر، وتقوية عوامله من المشاهدة للنص بالبصر وسماعه بالأذن.

ويدخل في مفهوم التدبر بعد القراءة ما ذكرته آنفًا من خشوع القلب، والقشعريرة، وزيادة الإيمان، والمبادرة للعمل.

ويمكن القول: إن التدبر بالمعنى اللغوي هو التدبر بالمعنى الشرعي إذا فرقنا بين التدبر والتفكر، فالتفكر هو إعمال الذهن لمعرفة حقيقة الشيء، ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ﴾ [الأعراف١٨٤]، ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران:١٩١]، ومن سمى هذا التفكر تدبرًا لزمه التفريق بينه وبين مفهوم التدبر بالمعنى الشرعي.

ومن أراد بالتدبر في اللغة ما هو أعم كقول الألوسي: «أصل التدبر التأمل في أدبار الأمور وعواقبها، ثم استعمل في كل تأمل سواء كان نظرًا في حقيقة الشيء وأجزائه، أو سوابقه وأسبابه، أو لواحقه وأعقابه» [٤/ ١٥٠].

فجعل التدبر في اللغة ما ذكرته في الحقيقة الشرعية، وحينئذ فلا فرق بين الحقيقة اللغوية للتدبر والحقيقة الشرعية.

وقد يوهم قول أحد الباحثين: إن الأمر بالتدبر غير مقتصر على المسلمين بل يشمل الكفار.. يوهم أن الخطاب بالتدبر موجه للمسلمين أصلاً.

والواقع أن الأمر بتدبر القرآن جاء في أربع آيات كان السياق في آيتين موجهًا للكفار، وفي آيتين موجهًا للمنافقين، ولا يعني هذا عدم دخول المؤمنين بل هم مأمورون بذلك، بل هم أولى به من غيرهم، وإن كان الخطاب موجهًا في الأصل للكفار والمنافقين.

ولا يزال التدبر بحاجة إلى تدبر، نسأل الله تعالى أن يعقب هذه الخطوة خطوات فاعلة وآثار نافعة للإسلام والمسلمين.

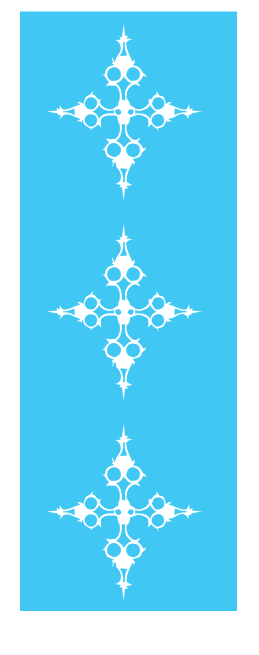
وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكتبه

أ.د. فهد بن عبدالرحمن الرومي

أستاذ الدراسات القرآنية بكلية المعلمين

جامعة الملك سعود



د. هاشم بن علي الأهدل

التعقيب الثاني

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، أما بعد:

فلقد كتب الكثيرون من المهتمين بموضوع تدبر القرآن الكريم، وبين المصنفون من العلماء مفهوم التدبر، وآثاره، ووسائله، والطرق المعينة على تحقيقه، وغير ذلك من المباحث الضرورية المتعلقة بالتدبر.

وسيكون تعقيبي نحو اتجاه آخر في مفهوم التدبر، ألا وهو كيف نجعل التدبر علماً يُعلَّم، مثل غيره من علوم القرآن، كما نعلم التجويد، أو التفسير، أو كما نعلم القواعد، أو الرياضيات، ونستفيد في ذلك من أبجديات علم المناهج وطرق التدريس وعلم النفس.

فمن الملاحظ في مؤسسات وحلق تعليم القرآن أنه قليلاً ما يُعتنى بهذا الجانب، فقد تجد الطالب يحفظ كتاب الله كاملاً، ولا يعرف معاني آيات من القرآن الكريم، ولا يحسن تدبرها، وربما يمكث المتعلم سنوات في حلقة التحفيظ، مركزًا على حفظ حروف الكتاب ولا يقيم آدابه، ولا يتمثله في واقعه سلوكًا، وما ذلك إلا لأنه لم

يعر هذا الجانب اهتمامًا، أو لأنه لم يجد معلمًا يبصره بطرق التدبر وأساليبه العملية، أو لم يتيسر له التتلمذ على يد مربٍ يحسن التعامل مع قدراته المعرفية، واستعداداته الذهنية، ويعينه على الرقي الفكري والسلوكي من خلال الوسائل التحفيزية، المادية منها والمعنوية.

ويؤكد أحد المسئولين بإحدى جمعيات تحفيظ القرآن هذه المشكلة التربوية بقوله: «لو نظرنا في واقع الحلقات لوجدنا تقصيرًا واضحًا في هذا المجال، وأن أكثر الدارسين اقتصروا على التحفيظ دون التدبر والتفهم بسبب ما يأتي:

١- ضيق وقت الحلقة.

٢- كثرة عدد الطلاب.

٣- صغر سن الطلاب.

وظهر لي أن عدم تدبر أكثر الطلاب لقراءة القرآن الكريم من خلال عدم مراعاتهم للوقف والابتداء أثناء تسميعي لهم في الحلقات، أو في الاختبارات والمسابقات، فيقف الطالب وقفًا عجيبًا، ويبتدئ ابتداءً غريبًا ، يدل على عدم التدبر والتأمل»[(١)].

وقد يكون من المعلمين مَن يحث طلابه على التدبر نظريًّا، ويردد عليهم هذا التوجيه مرارًا وتكرارًا، ويجتهد في ذلك، ولكنه لا يعرفهم بكيفية التدبر وأصوله وخطواته، ولا يراعي التدرج التربوي، ولا النمو المرحلي لهم، وبالتالي تكون توجيهاته قليلة الفائدة، أو بلا أثر يُذكر ولا نتيجة تظهر.

ولتجاوز هذا القصور التربوي لا بد من بناء خطوات ومراحل منهجية في تعلم وتعليم التدبر، معتمدةً على ما يفيد من نظريات تربوية معاصرة، حيث «تؤكد

(١) إسهام جمعيات تحفيظ القرآن الكريم في بناء الأجيال، الواقع والمأمول، ص٦١١ - ٦٢٨.

الاتجاهات التربوية الحديثة على أهمية استخدام أساليب التعليم والتعلم التي تؤكد على إيجابية المتعلم ونشاطه في أثناء العملية التعليمية، وعلى ضرورة تهيئة الظروف الملائمة لجعل المتعلم يكتشف المعلومات بنفسه بدلاً من الحصول عليها جاهزةً، وعلى أن يتحول دور المعلم من تلقين المعلومات إلى توجيه المتعلم وإرشاده»[١].

ومن تلك النظريات التي ينبغي أن يستفيد منها المهتمون: النظرية السلوكية في علم النفس، والتي تفسر التعلم على أنه استقبال مثير وإصدار استجابة، وتستفيد من نظرية الاقتران الشرطي، وما يتعلق بها من مفاهيم وتطبيقات التعزيز، وكذلك نظرية اكتساب العادات وتدعيم السلوك.

إن التدبر يستحق أن يكون علماً منفصلاً من علوم القرآن، بل من العلوم المعاصرة التي تُفرد لها المؤلفات والكتابات الخاصة، ويستحق أن تُنشأ له المؤسسات التربوية، وتكون مستقلةً عن غيرها من الجهات التعليمية، شأنه في ذلك شأن حلقات التحفيظ القرآنية، وهو علم يستحق أن يُطبق عليه منهج المواد الدراسية المنفصلة، والذي «يُعنى بوضع كل مجال دراسي خاص في مقرر منفصل عن بقية المقررات الدراسية الأخرى، أي أنه يرتب المواد الدراسية على أساس الفصل فيما بينها، بحيث تمثل كل مادة قسماً خاصًّا من التراث المعرفي الإنساني، ثم توزع هذه الأقسام -بترتيب منطقي- على سنوات الدراسة التي يقضيها الطلاب في السلم التعليمي»[٢]، فإذا ما أردنا تطبيق هذا المنهج، فإن الأمر يستلزم فصل علم التدبر عن غيره من علوم القرآن.

وأخيرًا، أود أن أشير في هذا التعقيب إلى أنني بحثت في هذا الموضوع المهم،

(١) أساليب التعليم والتعلم وتطبيقاتها في البحوث التربوية، ص ٥.

(٢) المنهج الدراسي المعاصر، ص ٢٤٨.

ولكن هذا البحث لم يستوعب كل ما يتصل بهذا التنظير الجديد لموضوع التدبر، وما ذُكر فيه من تفصيلات تحتاج إلى مزيد من الدراسة والبحث، كما أنها قد لا تكون أهمها وأحقها بالدراسة، ولكن الله يسر لي إبرازها لفتح باب المناقشة والدراسة العلمية، وهي قابلة للتعديل والتقويم.

وأحسب أني قد طرقت بابًا جديدًا لموضوع قديم، علينا جميعًا أن نجتهد فيه، ونحاول الوصول إلى الصواب، فلكل مجتهد نصيب، ولكل مخطئ توبة، ولا يضيع الله أجر من أحسن عملًا.

* أهمية البحث في هذا الموضوع:

يمكن تحديد أسباب أهمية البحث في الأمور التالية:

١ – إن التدبر موضوع أساسي له علاقة وثيقة بالقرآن الكريم.

٢ – إن التدبر هو المقصود الأعظم من تنزل القرآن العظيم.

٣ – إن التدبر نوع مهم من تعلم القرآن، والذي به تُنال الخيرية والأفضلية التي بينها رسول الله ﷺ.

٤ – الاقتداء بالرسول ﷺ في تدبر كتاب الله.

٥ – إن هذا البحث مبني على مراحل منهجية يستفيد منها المتعلمون والمعلمون، والمهتمون بالعملية التربوية عمومًا.

* أهداف البحث:

يمكن حصر الأهداف فيما يلي:

١ – التعريف بمفهوم التدبر، وبيان وسائل تربية الناشئة عليه.

٢ – تيسير عملية التدبر وجعلها في خطوات متدرجة.

٣- بيان أسباب التدبر وطرق اكتسابه.

٤- توعية المربين بوسائل وأساليب تربية الأجيال على التدبر.

* **حدود البحث:**

يناقش هذا البحث موضوع التدبر من منظور علم التربية وعلم النفس، وسيقترح البحث -إن شاء الله- مراحل منهجية تتناسب مع مراحل نضج المتعلمين، كما يقترح عددًا من الوسائل والإجراءات التربوية لكل مرحلة منها.

ولتعليم التدبر يضع البحث عددًا من الخطوات العملية التي يقوم بها الفرد بنفسه لتحقيق التدبر.

* **أما محتويات البحث فهي كما يلي:**

الفصل الأول:

الجوانب المعرفية لموضوع التدبر.

المبحث الأول: مفهوم تدبر القرآن.

المبحث الثاني: غاية التدبر وأهميته.

الفصل الثاني:

قواعد أساسية في تعليم التدبر.

مقدمة عن التعلم والتعليم.

المبحث الأول: قواعد أساسية تتعلق بطرق التدريس.

أولًا: العناية بالتمهيد التربوي.

ثانيًا: مراعاة التدرج في تعليم التدبر.

ثالثًا: التحضير الجيد للدرس القرآني.

رابعًا: استخدام أسلوب التعلم التعاوني.

خامسًا: استخدام الوسائل التعليمية المناسبة.

المبحث الثاني: قواعد أساسية تتعلق بالمحتوى الدراسي.

أولًا: الاهتمام بالاستعاذة.

ثانيًا: شرح الكلمات والجمل والآيات.

ثالثًا: ربط أحكام التجويد بالمعاني.

رابعًا: الموعظة والتحذير من الذنوب الصارفة عن التدبر.

خامسًا: إدراج حصة التدبر في الدرس القرآني.

سادسًا: التربية على شكر نعمة التدبر.

الفصل الثالث:

التدبر وتعليم الاستماع التربوي.

مقدمة:

المبحث الأول: أهمية الاستماع للتدبر:

المبحث الثاني: أسس الاستماع التربوي.

المبحث الثالث: آثار الاستماع التربوي.

المبحث الرابع: وسائل تربية ملكة الاستماع.

الفصل الرابع:

مراحل تعليم التدبر.

مقدمة:

المبحث الأول:

المرحلة الأولى (مرحلة التهيئة القلبية).

وأهداف هذه المرحلة:

١- تعريف المتعلمين بمفهوم التدبر.

٢- إيجاد التفاعل الوجداني مع سِيَر المتدبرين.

٣- ربط التدبر بالحياة الطبيعية والآيات الكونية.

٤- اكتساب القدرة على التغني بالقرآن.

٥- بث وإحياء الوعي بأهمية قراءة القرآن بتدبر في نفوس المتعلمين.

*** الوسائل:**

أولًا: تعريف المتربين بمفهوم تدبر القرآن وأهميته.

ثانيًا: الترغيب في التدبر.

ثالثًا: التشجيع والتحفيز التربوي على التدبر.

رابعًا: الترهيب من ترك التدبر.

خامسًا: التعويد على الترتيل والتغني بالقرآن وتحسين الصوت به.

سادسًا: التدبر بعرض القصص القرآني بأسلوب ميسر.

سابعًا: إلزام الطلاب بمصحف المتدبرين.

ثامنًا: الرحلات والبرامج الترويحية الهادفة المعينة على التدبر.

المبحث الثاني:

المرحلة الوسطى: (مرحلة الممارسة العملية).

أهداف المرحلة:

١- ربط الآيات القرآنية بالسيرة النبوية.

٢- الممارسة العملية للتدبر أثناء القراءة.

الوسائل:

أولاً: استخدام أسلوب التكرار.

ثانيًا: استخدام أسلوب ضرب الأمثال.

ثالثًا: التعريف بأسماء الله الحسنى.

رابعًا: ربط الآيات القرآنية بالسيرة النبوية.

خامسًا: الترغيب في قيام الليل.

سادسًا: إبراز القدوات والنماذج (للمتدبرين).

سابعًا: استثمار الأحداث والمناسبات.

ثامنًا: تعريف المتعلمين بكيفية التدبر وأحواله.

المبحث الثالث:

المرحلة المتقدمة (مرحلة التدبر المتقَن).

وأهداف هذه المرحلة:

١- تكوين ملكة التفسير عند المتعلم.

٢- التعريف بعلم الوقف والابتداء.

٣- زيادة الوعي بأهمية قراءة القرآن بتدبر.

٤- القدرة على استخراج الحكم والاستنباطات.

أما وسائل هذه المرحلة:

أولًا: تعليم قواعد التفسير.

ثانيًا: تعليم أحكام الابتداء والوقف.

ثالثًا: التوجيه للتعمق في علوم اللغة العربية.

رابعًا: التدريب على استخراج الحكم والاستنباطات.

خامسًا: التربية على نشر (مفهوم التدبر والعلوم المستنبطة منه) في المجالس.

سادسًا: تعليم مهارات التفكير.

الفصل الخامس:

طرق تربية الذات على التدبر.

مقدمة:

أولًا: الإخلاص سر النجاح في التدبر والفهم.

ثانيًا: الاستعداد النفسي للتدبر.

ثالثًا: الدعاء بأن يرزقه الله التدبر.

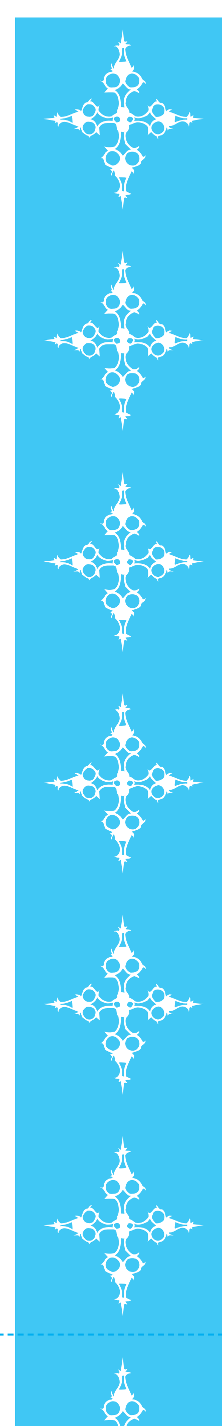
رابعًا: مراقبة الإنسان لنفسه ومحاسبتها أثناء القراءة.

خامسًا: تعويد النفس على التأني في قراءة القرآن وعدم العجلة.

سادسًا: اعتبار الفرد أنه المقصود (وليس غيره) بكل خطاب في القرآن.

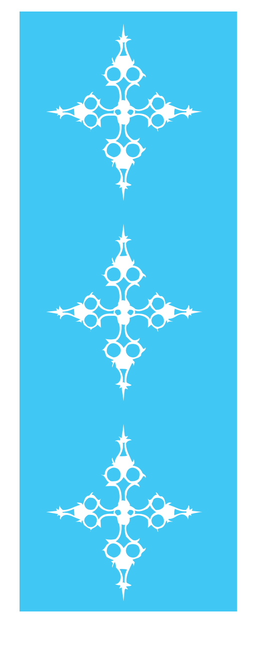
سابعًا: ملازمة الورد القرآني.

وكتبه
د. هاشم الأهدل
عضو هيئة التدريس
جامعة أم القرى



مداخلات الجلسة الثالثة





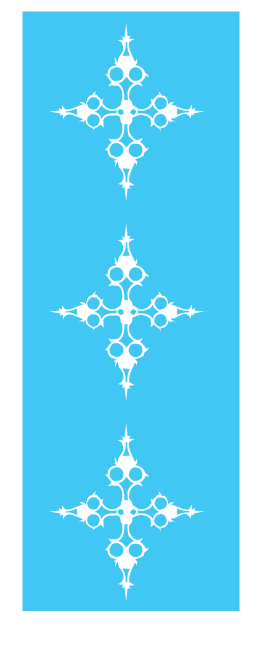
أ.د. حكمت بشير ياسين

المداخلة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى من والاه.. أما بعد:

فيطيب لي في هذه المناسبة المباركة أن أتقدم بالشكر الجزيل للإخوة القائمين على هذا المشروع المبارك، ولقد أفلحوا في اختيار هذا الموضوع الذي فيه إنقاذ لهذه الأمة، وفيه أيضًا إرشاد إلى الارتقاء بهذه الأمة، وقد رأيت التعريفات قد تعددت، ومن خلال استفادتي من هذه الورقات المباركة توصلت إلى تعريف للتدبر بأنه: (التأمل والنظر الثاقب في هداية القرآن الكريم.. استجابة لله عز وجل، من أجل ارتقاء الأمة، بل البشرية جميعًا)، أرجو أن نتأمل وأن نتدبر هذا التعريف، الذي أزعم أنه جامع ومقتبس من هذه الثمرات التي تمتعنا بها..

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته..



د. خالد العجيمي

المداخلة الثانية

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،،،

رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي..

أولًا: أيها الأحبة بعد الشكر والمقدمات التي أثني وأثلث وأربع بها على هذا الملتقى المبارك..

ثانيًا: اقتراحي.. أن الأشياء العلمية سنتجاوزها لأنها تأخذ وقتًا كثيرًا لكني سأذكر جانبًا عمليًّا مهمًّا في رأيي وهو: عناوين الأبحاث القادمة أو الملتقيات القادمة؛ لأن التدبر كتحرير وتأصيل -مع أهميته- أعتقد لا يغنينا عما يهم الإخوان في (جوال تدبر)، وما ينتج عنه من هيئة وغيرها، وهي: ميكانيكية التدبر، أو وسائل وآليات التدبر..

وأقول: إن العلماء والمختصين من المفسرين وأهل اللغة والعلوم المختلفة، سيستخرجون التدبر ويؤصلونه؛ لكن نحن محتاجون إلى الآليات والوسائل، ولا بد من استغلال أوعية المعرفة المختلفة، لإيصال التدبر إلى الناس كافة، فلا أرى أن يكون التدبر خاصًّا بكم أيها العلماء الأفذاذ، بل لا بد أن يصل إلى كل عامي وصغير

وكبير، وكذلك ما ذكرتموه من الحفَّاظ وطلاب المدارس وطالباتها، وكذلك المواقع الإلكترونية.. الباقات.. الوسائط الصوتية..فلا بد من العناية بهذا كله، لا أريد أن أطيل؛ لأن هذا على ما يبدو سيكون في لقاءات قادمة..

إنشاء قناة تلفزيونية، وإن لم يتحقق ذلك أرى أن نطور القنوات القرآنية وهي كثيرة -ولله الحمد- بأن تقدم في ختماتها وقرءاتها المتنوعة التدبر بدل كلمات وبيان، وأحيانًا تفسير وترجمة بالإنجليزية والفرنسية، فلا بد أن يوجد التدبر ضمن هذه الآيات في قنوات التلفزة.. وسيكون لذلك معنى مهم جدًّا للناس كافة.

إخراج وطباعة تفاسير مركزة، وأظن أن في سوريا الآن شيء من هذا القبيل، تعين على التدبر، فيحيط بالصفحة القرآنية مجموعة من الدرر التدبرية، وليست معاني ولا أسباب نزول، ولَعَلِّي ألفتُ النظر إلى نموذج سيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «ظلال القرآن»، في الحقيقة هو جاء بنموذج رائع فريد، حتى في الفهارس التي تلت كتابه؛ فقد فهرست الآيات التي تتحدث عن اليوم الآخر.. أو الربا.. وهكذا، فأعتقد أن حضور هذه المنهجية في التفاسير جيد..

والتدبر يا أحباب -حسب فهمي- في ثلاثة مواطن:

في آيات القرآن المسطور، وفي آيات الكون المنظور، من خلال القرآن نفسه، والقرآن يحضنا على ذلك، بالمخلوقات والأنفس والكون، فأرى أنه من أهم ما يرتقى به يا أحباب..

ثالثًا: تدبر أسماء الله وصفاته العلا التي تختم به مئات الآيات القرآنية.. فأرجو أن لا يغفل مشايخنا عن ذلك.

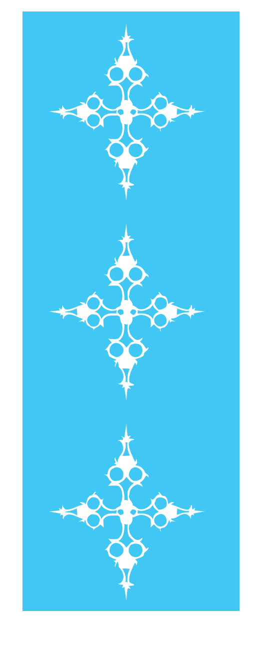
وأقول: إن الجانب الذي أشار إليه د. الربيعة فيما يتعلق بإنشاء جمعيات وروابط

وهيئات، وخاصة موضوع الهيئة العالمية، حتى لو لم تشهر هنا، أو لم تأتِ في رابطة العالم الإسلامي، فسينظم إليها مئات بل ألوف من الناس؛ لأن الناس يحتاجون إلى مظلة...

أقول شيء مهم: موضوع ترجمات القرآن، بعد أحداث سبتمبر -بحكم احتكاكي بالندوة العالمية- أسلم كثير من الناس بسبب ترجمات معاني القرآن اليسيرة هذه، فلا تستقلوا هذا العمل المبارك..

وأسأل الله لي ولكم الثبات والتوفيق..

وصلى الله وسلم على نبينا محمد،،،



أ. عادل المعاودة

المداخلة الثالثة

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، تعودت أن أورط نفسي، وفي الحقيقة تأثرًا بهذا الجو؛ فأقحمت نفسي كما أقحم الأعرابي نفسه بين النبي ﷺ ومعاذ بن جبل، فسأله النبي ﷺ: ماذا تقول في صلاتك؟ فعرف أنه ليس أهلاً لذلك البحر..

فأقول لكم كما قال الأعرابي: أما دندنتكم ودندنة معاذ فإني لا أفقهها..

وأشعر كأنني كـ(النون) بين (لنا) في هذا الجو العظيم وبين هؤلاء العلماء الجهابذة، الذين في الحقيقة أمتعونا بكتاب الله عز وجل.

لكن أبشركم نحن العوام نفهم التدبر بسهولة، كما نفهم آيات الصفات بدون تعقيدات المتحذلقين والمتكلمين، نقرأ آيات الصفات فنؤمن بها، ولم نشعر بمشكلة قط.. كذلك القرآن يقرأه العوام ويتلذذون به، وأذكر أن أحد الإخوة من غير أهل السنة، وقد تجاوز عمره السبعين عام، قرأ قوله تعالى: ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ ﴾ [الأحزاب: ٦]، فسبحان الله، سبعين عام، يقرأ القرآن كثيرًا؛ لكن في تلك اللحظة فتح الله عليه، فقال: الله يقول: وأزواجه أمهاتهم وأنا أسبهم وألعنهم؟!! فالتزم بمنهج أهل السنة والجماعة..

وهذا ليس معناه أننا لا نحتاج إلى هذه الدراسات، ولا إلى هذا التعمق، بل نحتاج ذلك من أهل الاختصاص..

وأبشركم أن هذا التدبر لم ينقطع عند الأمة؛ ولكنه ضعف، لذلك أشكر أخي الدكتور محمد الربيعة، الذي سمعت منه ومن الدكتور عبد الرحمن الشهري، كلمة في البحرين، قال: القرآن خُدِمَ طباعةً، وخُدِمَ تلاوةً، وخُدِمَ تفسيرًا؛ لكن أين الخدمة في التدبر؟ وهذا هو السؤال..

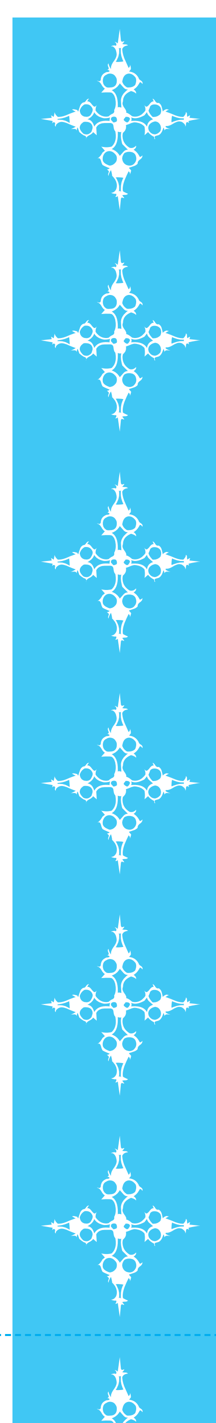
وحيرني أكثر سؤال د. عويض الذي قال: لماذا لم يخدم سابقًا؟

وحقيقة؛ حيرني وجلستُ أتساءل، هل نحن تعدينا الصواب؟ لكن قد نقول: ربما أنه خدم بأساليب مختلفة..

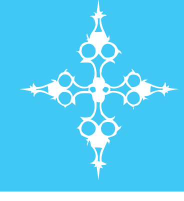
والتدبر لا يمكن أن يكون بدون حفظ القرآن وتلاوته وحفظ القراءات والتفسير.. كل ذلك مهم للتدبر بل لازم للتدبر، ولا يمكن أن يتدبر القرآن بدون هذه العلوم..

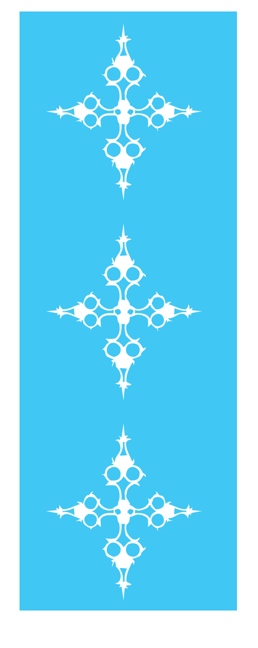
وأعتقد: أن واجب الأمة خدمة العلماء في هذا العمل الذي أعتقد أنه من أرجى وأفضل أعمال الأمة التي نسمع بها، ولذلك أتمنى، ودعوت الله عز وجل أن تتشرف البحرين بأحد هذه المؤتمرات.. وأرجو أن تكون قبل تبوك..

وجزاكم الله خيرًا،،،



ملحقات الكتاب





د. عبدالله عبدالغني سرحان

التدبر حقيقته وعلاقته بمصطلحات

التفسير، والتأويل، والبيان، والاستنباط، والفهم

الحمد لله الذي ميز الإنسانَ بالعقلِ والتَّفَكُّرِ، وأنعم عليه بنعمةِ التدبر، والصلاة والسلام على أشرف خلق الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه. وبعد:

فبادئَ ذي بدء أشكرُ جميع القائمين على إقامة وإعداد هذا الملتقى بدعوتهم الكريمة لي للحضور والمشاركة بالمداخلة ضمن فعالياتِ هذا الملتقى الفريد من نوعه في اسمه وغايته، وأدعو مخلصًا أن يحقق الأماني والتطلعات المرجوة من وراء انعقاده.

ولا أخفي على حضراتكم حينما وصلتني الدعوة الكريمة، وطالعتُ المحاور الأساسية والفرعية لهذا الملتقى أني شعرتُ برهبة شديدة ؛ لأن هذا الموضوع، وإن بدا في ظاهره موضوع مطروق مترددٌ في أروقة العلم والعلماء إلا أنه في الحقيقة موضوع حيوي شائق وشائك ؛ لأن التدبر من وجهة نظري هو أساس اكتساب المعارف والعلوم عند الأفراد والأمم في كل زمان ومكان مذ بدء الخليقة، وحتى قيام الساعة،

فالتدبر يعد أساس الحضارات والإبداعات والابتكارات المختلفة في شتى العصور.

بل إن التدبر هو أساس الخير في هذه الحياة، ونظيره التدبير هو أساس الشر في هذه الحياة أيضًا، فالشرير المتمكن في شره، والمجرم العاتي في إجرامه لن يكون لإجرامه أثر كبير، ولشره ضرر عظيم إلا إذا حاك خطته الإجرامية حياكة منظمة، وعَمِل على تدبير الشر، واصطناع المكر والحيلة اصطناعًا عظيمًا.

وَلْنُعَدِّ عن ذا، ولنركز على التدبر المذكور في القرآن الكريم، ومدى علاقته بغيره من المصطلحات القرآنية الأخرى (التفسير، التأويل، البيان، الاستنباط، الفهم) وكلها مصطلحات وردت في القرآن متفاوتة من حيث العدد قلة وكثرة.

ونظرًا لأني لم أطالع تفصيل محاور المؤتمر، وأوراق العمل المقدمة فيه حتى يكون صلب المداخلة منصبًّا على شيء ما، فقد فكرت أن تكون مداخلتي متسعة بعض الشيء قد تلتقي في نواح منها مع ما سيقال، وقد تختلف في نواحٍ أخرى، ومن ثم سأعرض مرئياتي حول هذا الموضوع المهم جدًّا.

لكِنْ قبل أن أخوض في حقيقة التدبر وما يتعلق به، ومدى صلته بهذه المصطلحات القرآنية ينبغي أن أؤكدَ على أمرين مهمين:

الأول: يجب أن يكون القرآن الكريم هو منطلقنا في تحرير وتأصيل وبيان الفروق بين هذه المصطلحات من واقع الاستعمال والسياقات المختلفة؛ لأن الذكر الحكيم يتميز عن كلام البشر أجمعين بانتقائه مفردات وصيغٍ يستخدمها الاستخدام الأمثل والأدق، ولا يصح وضع غيرها مما قد يقاربها البتة موضعها.

الثاني: أن هذه المصطلحات القرآنية السالفة بينها حتمًا فوارق دقيقة، وإلا -عقلاً ومنطقًا- لو كانت متحدة في معناها من جميع الوجوه لاكتفى المولى عز وجل بإحداها

عن الأخرى في الذكر الحكيم، وعلى ذلك فإن المقصود بالتدبر يختلف عن غيره من بقية المصطلحات لكنه ليس اختلافًا متضادًّا كالاختلاف بين القيام والجلوس، والنوم واليقظة، والمرض والصحة، والضحك والبكاء، فهذه المصطلحات لا يمكن أن تجتمع معانيها بأي وجه من الوجوه، عكس المصطلحات محل الدراسة، فهي وإن افترقت من وجه فإنها قد تلتقي من وجه آخر مثل التقاء معاني الأفعال: [حَصْحَصَ وظَهَرَ، ونَتَقَ وَرَفَعَ، وَقَطَعَ وَانْفَصَلَ] من وجه، وافتراقها من وجه آخر، وكما قلنا: سيكون القرآن الكريم بعد تحرير هذه المصطلحات في اللغة هو منطلقنا لبيان الفروق الدلالية، والعلاقات القائمة بينها.

أولًا: تحرير مفهوم التدبر في اللغة والقرآن الكريم:

التدبر مصدر للفعل الماضي الخماسي (تَدَبَّر) على وزن تَفَعَّلَ، ومعناه لغة: التفكر والنظر في عواقب الأمور وأدبارها، يقول صاحب تاج العروس: «التَّدَبُّرُ: النَّظَرُ في عاقِبَةِ الأَمْر أَي: إلى ما يَؤُول إِليه عاقِبَتُه كالتَّدَبير، وقيل: التَّدَبُّر: التَّفكُّر أَي تَحْصِيل المَعْرِفَتَيْنِ لتَحْصِيل مَعْرِفةٍ ثالثة، ويقال: عَرَف الأَمرَ تَدَبُّرًا أَي بأَخَرَةٍ»[1].

ومجيء التدبر على صيغةِ التَّفعُّلِ فيه دلالة على التكلُّفِ في الفعلِ، ومعاناته وحصولِه بعد جُهْدٍ، يقال: تدبر المسألة أي تفكر فيها، وتأمل في دلالتها، وبذل جهدًا مرة بعد مرة حتى وعاها، ووقف على حقيقتها، فالتدبر ملازم دائمًا لبذل الجهد والمشقة والمعاناة مما يدل على أنه يحتاج إلى وقت للوصول إلى حقيقة الشيء الذي يتدبره الإنسان أو أجزائه أو سوابقه أو لواحقه أو أعقابه.

ولم يرد مصطلح التدبر مطلقًا في القرآن الكريم بهذه الصيغة بل وردت صيغ

(١) تاج العروس ١/ ٢٨١٣ مادة (د ب ر).

أخرى من مادة (دَبر) في الذكر الحكيم في عدة آيات على النحو الآتي:

أولًا: ورد الفعل المضارع (يُدَبِّرُ) (٤ مرات) وهو من الفعل الماضي الرباعي المضعف العين (دَبَّرَ):

١- قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ ﴾ [يونس: ٣].

٢- قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٣١].

٣- قَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ [الرعد: ٢].

٤- قَالَ تَعَالَى: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [السجدة: ٥].

يتضح لنا من هذه الآيات السابقة عدة أمور:

أولًا: جاء التعبير فيها جميعها بالفعل المضارع (يُدَبِّرُ).

ثانيًا: المدبِّر في جميع الآيات (أي الفاعل المحذوف) هو الله عز وجل.

ثالثًا: المدبَّر (أي المفعول المذكور) في جميع الآيات هو الأمر، والأمر هنا ورد معرفًا بأل، وتعريفه بأل يفيد الاستغراق والعموم الكلي لجميع أنواع الأمر، وهذا حق لا مرية فيه كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

[الأعراف: ٥٤]، أي له أمر كل شيء سبحانه وتعالى صغيرًا وكبيرًا، قليلاً وكثيرًا، دقيقًا وجليلاً، وقد صرحت الآية الثانية بما قلناه في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ﴾.

ثانيًا: ورد اسم الفاعل (مُدَبِّر) من الماضي الرباعي (دَبَّرَ) في موطن واحد فحسب في قوله تعالى: ﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا﴾ [النازعات: ٥] ففي هذه الآية «يقسم المولى عز وجل بالملائكة التي تدبر الأمر، وهو شئون الكون المختلفة في الرياح والأمطار والأعمار والأرزاق وغير ذلك من شئون الدنيا»[1]، وهنا مفارقة دقيقة فالملائكة تدبر أمرًا ما، والله يدبر الأمر كله.

نستنتج من هذا أن الله عز وجل وصف نفسه بأنه المدبِّر، وأنه يدبر أمور الخلائق كلها دون استثناء فالله هو المدبِّرُ، والأمر هو المدبَّر، كما وصف الملائكة المقربين بذلك أيضًا، ولكنهم يدبرون أمرًا ما بإذنه سبحانه وتعالى لا يتجاوزونه.

ثالثًا: ورد الفعل المضارع المتصل به واو الجماعة (يَتَدَبَّرُونَ) من الفعل الماضي الخماسي (تدبَّر) مرتين قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ٨]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]، والخطاب في آية النساء موجه للمنافقين الذين يتحدث السياق القرآني عنهم قبل هذه الآية، والاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ﴾ استفهام إنكاري ينكر عليهم عزوفهم عن القرآن وعن قراءته بتدبر وأناة، وأنهم لو تدبروا القرآن حق التدبر لانخلعوا عن نفاقهم الذي سيودي بهم إلى الدرك الأسفل من النار، ولما كان المنافقون لا يتدبرون القرآن فيفهم من ذلك بمفهوم المخالفة،

(١) تفسير الصابوني ٣/ ١٦٧٨ بتصرف.

وفحوى الخطاب أنَّ المتدبرين حقًّا هم المؤمنون.

والخطاب في آية سورة محمد موجه للمنافقين الذين يتحدث السياق القرآني عنهم قبل هذه الآية أيضًا، والاستفهام في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ﴾ استفهام إنكاري توبيخي أيضًا.

والمراد بالقرآن في آية النساء ومحمد القرآن كله حيث جاء معرفًا بأل التي تفيد الاستغراق، نصل من ذلك إلى أن الذي لا يتدبر القرآن كُلَّه هو المنافق، وأن المتدبِّر للقرآن كله هو المؤمن، وأن المتدبَّر هو القرآن كله مسموعًا أو مقروءًا، فمعنا إذنً مصطلحان قرآنيان مستنبطان من هاتين الآيتين (المتدبِّر هو المؤمن، والمتدبَّر هو القرآن).

ونستنتج من ذلك أيضًا إلى أن مَن تدبر القرآن، وتأمل معانيه، وتبصر ما فيه سيصل إلى نتيجة فحواها أن القرآن كله كلام الله ليس فيه اختلاف البتة؛ لأنه لو كان من عند غير الله لوجد المتدبر فيه اختلافًا، ولما لم يجد المتدبر فيه اختلافًا ثبت أن القرآن من عند الله، فمن أراد من المنافقين والكفار أن يقف على تلك الحقيقة عليهم أن يقرأوا القرآن كله بتدبر، أما القراءة السريعة والهذُّ والهذرمة التي لا تأمل فيها فلن تُوَصِّلَ إلى تلك النتيجة، كما يلاحظ أن آية سورة محمد قد أشارت إلى أن آلة التدبر هي القلوب المفتوحة، أما القلوب المنغلقة القاسية التي كأنها مكبلة بالأغلال، والأقفال الحديدية لا ينفذ إليها نور الإيمان ونور القرآن، وهذا يعني أن التدبر له شروط وضوابط لا بد أن يسير عليها المتدبر وسوف نبين ذلك لاحقًا إن شاء الله تعالى.

٤- ورد الفعل المضارع (يَدَّبَّرُوا)[1] من الماضي الخماسي (تَدَبَّرَ) مرتين، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص:٢٩].

والخطاب في آية سورة المؤمنون موجه إلى كفار مكة كما هو واضح من الآية السابقة في قوله تَعَالَىٰ: ﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦٧] حيث كان كفار مكة يسمرون، ويذكرون القرآن بالهجر، ويقولون: إنه سحر وشعر وكهانة، فالخطاب لكفار مكة، والاستفهام في قوله: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ ﴾ استفهام توبيخي إنكاري ينعي عليهم أنهم لو تدبروه لصدقوا بما فيه، وعلموا أنه كلام رب العالمين.

وعبر عن القرآن هنا بالقول؛ لأنهم يسمعونه مقولاً، ولا يقرؤونه قراءة، وهو تعبير دقيق جدًّا في هذا السياق.

نستنتج من هذا أن كفار قريش لم يكونوا من المتدَبِّرين في القرآن الكريم، وبمفهوم المخالفة -كما يقول الأصوليون- يكون المؤمنون هم (المتدبرون)، والمتدبَّرُ هو القول المراد به هنا القرآن الكريم أيضًا.

أما في آية ص، فالفاعل في قوله: (لِيَدَّبَّرُوا) هو واو الجماعة الذي يعود على المؤمنين

---

(١) أصله يتدبروا حذفت التاء وشدِّدت الدال. يقول أبو حيان : «قرأ الجمهور: چ‌‌چ ، بياء الغيبة وَشَدِّ الدال وأصله ليتدبروا. وقرأ عليٌّ بهذا الأصل، وقرأ أبو جعفر: بتاء الخطاب وتخفيف الدال؛ وجاء كذلك عن عاصم والكسائي بخلاف عنهما، والأصل: لتتدبروا بتاءين، فحذفت إحداهما على الخلاف الذي فيها، أهي تاء المضارعة أم التاء التي تليها؟ واللام في ليدبروا لام كي، وأسند التدبر في الجميع، وهو التفكر في الآيات، والتأمل الذي يفضي بصاحبه إلى النظر في عواقب الأشياء، وأسند التذكر إلى أولي العقول؛ لأن ذا العقل فيه ما يهديه إلى الحق وهو عقله، فلا يحتاج إلا إلى ما يذكره فيتذكر». البحر المحيط لأبي حيان ٩/ ٣٣٨.

بدليل كاف الخطاب في قوله: (إِلَيْكَ) أي أنزلناه إليك ولأمتك خاصة، وبدليل وصفه بكونه مبارك، وبدليل السياق السابق، كل هذا يرشحُ أن يكون المقصود بواو الجماعة هم المؤمنون، والمعنى: أنزلنا هذا الكتاب إليك ليتدبر مَنْ معك من المؤمنين آياته وليتعظ به أولوا العقول الرشيدة، وبناء على ذلك أيضًا يكون المفعول الواقع عليه التدبر هو آيات الكتاب، فالمتدَبِّرون إذن بصيغة اسم الفاعل هنا هم المؤمنون، والمتدبَّر هو آيات الكتاب.

وهنا لفتة رائعة، ومفارقة دقيقة، المؤمنون يتدبرون ويتأملون في المكتوب نصًّا، ويتدبرون في المقروء والمسموع بالفحوى ؛ لأن من يتأمل يجد أن التدبر في المكتوب جاء في آية واحدة في سورة ص، والتدبر في القرآن ورد في آيتين النساء ومحمد، والتدبر في القول ورد في آية (المؤمنون)، وكأن الذكر الحكيم يجعل التدبر في المقروء المسموع أكثر وهذا شيء بدهي وطبيعي ؛ لأن من يُحسن سماعًا يحسن فهمًا وتعقلاً واستجابةً.

أما المقيد المكتوب؛ فإن المرء لو لم يتدبره من المرة الأولى فسيعود إليه مرة أخرى ولن يَتَفَلَّتَ منه؛ لأنه مقيد مكتوب، فهل يقدر مخلوق على الإتيان بمثل هذا التفاوت العجيب والرشيد في هذه الصياغات؟![1]، والأمر يطول بنا لو توقفنا عند الأسرار

(١) العجيب أن الذكر الحكيم استخدم الماضي الرباعي (أَدْبَرَ) ٤ مرات، واسم الفاعل منه (مُدْبِر) ٨ مرات، والمصدر (إدبار) مرة واحدة في سياقات مختلفة تمامًا لا صلة لها بما نحن فيه، كما استخدم اسم الفاعل من (دَبَرَ) ٤ مرات، ولم يستخدم هذا الفعل الثلاثي مطلقًا، كما استخدم الجمع (دُبُر) ٥ مرات، وجمع الجمع (أدبار) ١٣ مرة في سياقات لا صلة لها بما نحن فيه أيضًا، وكل هذا ينبئ عن أن القرآن الكريم يضع كل صيغة في مكانها الأشكل بها ولا يمكن أن يسد غيرُها مسدها، وهذا من دلائل إعجازه في اختيار صيغه بما لا يسمح الوقت بالاستفاضة فيه، يراجع المواضع السابقة في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ٢٥٢، ٢٥٣.

البلاغية الكامنة وراء التعبير بكل صيغة على حدة، وما ذكرناه كان هذه لمحة سريعة، والإشارة تغني عن العبارة، وبخاصة في الحديث مع أولي الألباب.

وهكذا يلوح لنا أن الذكر الحكيم يقصر التدبر على شيئين: القرآن مقروءًا ومقولاً، أي مسموعًا، والقرآن مكتوبًا، وبين الاثنين علاقة قوية، وصلة شديدة ملتحمة لا تنفصم ولا تنقطع، فالمتدبر يتدبر المكتوب والمحفوظ في الصدور، والسامع يتدبر المقروء على الألسنة، هذا ما قد يُسْتَنْبَطُ مِنْ تَدَبُّرِ حديث القرآن عن هذه الآيات.

وما دام القرآن هو منطلقنا في تحرير وتأصيل المصطلحات، فالذي يتناغم مع ذلك أن يكون التدبر مقصورًا على القرآن مقروءًا ومكتوبًا ومسموعًا، ومتابعة للذكر الحكيم لا يُطلَق مصطلح التدبر على التفكر في الكون والنفس الإنسانية صراحة؛ لأن القرآن لم يُطلِقْ عليه ذلك بل أطلق عليه عبارات أخرى مثل: التفكر والتذكر والنظر والاعتبار كما سيأتي، وما جاء على ألسنة علمائنا في كتب التراث إنما هو من قبيل التسامح في العبارة فحسب، وليس هذا من مصطلحات القرآن الكريم وإطلاقاته.

ولكن مما ينبغي الإشارة إليه -كما سيأتي- أننا بالقياس على أن التدبر يكون في القرآن الكريم كتابة (رسمًا وخطًّا) وقراءة وسماعًا يكون التدبر كذلك في الحديث الشريف كتابةً وقراءةً وسماعًا، وكذلك الحال في سائر علوم المسلمين المستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة، وكلام العرب كله شعره ونثره، وهكذا نتوسع بالتدبر إلى جميع آفاقه ومجالاته الرحبة، وليس هذا منا ابتعادًا عما أَصَّلْنَاه من قبل، ولكنه قياس عليه، وهو قياس صحيح جدًّا إن شاء الله تعالى، فعلوم المسلمين يجب أن تُقْرَأَ وتدرس بنفس كيفية التدبر ذاته في القرآن الكريم.

ومن ثَمَّ يتبين لنا بعد هذا كله أن أركان التدبر كما ظهرت لنا بجلاء من هذه

الآيات تتمثل في ثلاثة أمور:

الأول: المُتَدَبِّرون: هم الكافرون والمنافقون والمؤمنون وكل هؤلاء يجب أن يتدبروا القرآن بقلوب مفتوحة، وعقول واعية ليصلوا إلى المراد من وراء التدبر فتدبر هؤلاء تحكمه شروط وضوابط يجب أن تُراعى.

الثاني: المُتَدَبَّرُ: هو القرآن كله مسموعًا ومقروءًا ومكتوبًا بمختلف ما فيه، وبما اشتمل عليه من شرائع وعقائد وأخلاق وقصص.

الثالث: عملية التدبر ذاتها وطريقتها وكيفيتها.



ثانيًا: تحرير مصطلح التفسير لغة:

صيغة تفسير مصدر على وزن تفعيل من الفعل الماضي الرباعي المضعف العين (فَسَّر)، ويعني في اللغة: البيان وكشف المغطَّى، يقول ابن منظور «الفَسْرُ: البيان. فَسَر الشيءَ يفسرُه بالكَسر، وتَفْسُرُه بالضم، فَسْرًا، وفَسَّرَهُ: أَبانه، والتَّفْسيرُ مثله. ابن الأَعرابي: التَّفْسيرُ والتأْويل والمعنى واحد، وقوله عز وجل: وأَحْسَنَ تَفْسيرًا ؛ الفَسْرُ: كشف المُغَطَّى، والتَّفْسير كَشف المُراد عن اللفظ المُشْكل»[1]. فالتفسير على ذلك هو كشف المغطى، وبيان المراد من الألفاظ المشكلة.

وقد ورد في الذكر الحكيم في آية واحدة [2] في قوله تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا

(١) لسان العرب مادة (ف س ر).

(٢) هذه اللفظة من الألفاظ الفرائد مادة وصيغة في القرآن الكريم، فهي لم ترد إلا في هذا الموضع في الذكر الحكيم، ولكاتب هذه السطور بحث بعنوان «من الأسرار البلاغية في الفرائد القرآنية» ذكر فيه أسرار استخدام الذكر الحكيم لبعض الألفاظ التي وردت مرة واحدة لم تتكرر على أي صيغة من الصيغ، بل هي فريدة وحيدة لفظًا ومعنًى مثل: «نَتَقْنَا، حَصْحَصَ، فَارِهِينَ، ابْلَعِي، اخْلَعْ، غَلَّقَتْ» إلخ.

﴿ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ [الفرقان: ٣٣].

والتفسير هنا يحتمل أن يكون بمعنى أحسن بيانًا وتفصيلاً، أو كشفا للحجة والدليل، أو أحسن تفسيرًا من مَثَلِهم كما يقول كثير من المفسرين.

لكن يلاحظ أن الذي أَتَي هنا بأحسن التفسير هو المولى عز وجل حيث نسبه لنفسه في قوله: ﴿ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ ﴾، والذي أُتِيَ به إليه هو النبي ﷺ بدليل كاف الخطاب في قوله: ﴿ جِئْنَاكَ ﴾، وكأن المعنى: ولا يأتونك (أي الكفار) يا محمد بحجة وشبهة فاسدة من كلامهم إلا أتينا بحجة تدمغ هذه الحجة الباطلة، وحجتنا هي أقوى وأحسن بيانًا وكشفًا وإيضاحًا «ومعنى كونه أحسن أنه أحق في الاستدلال، فالتفضيل للمبالغة إذ ليس في حجتهم حسنٌ، أو يراد بالحسن ما يبدو من بهرجة سفسطتهم وشُبههم فيجيء الكشف عن الحق أحسن وقعًا في نفوس السامعين من مغالطاتهم فيكون التفضيل بهذا الوجه على حقيقته؛ فهذه نكتة من دقائق الاستعمال ودقائق التنزيل»[1] إذن لدينا هنا مصطلحان مُسْتَنْبَطَانِ من هذه الآية الكريمة:

المُفَسِّر: هو الله عز وجل.

والمفسَّر له: هو الرسول ﷺ؛ هكذا بإطلاق القرآن.

ومن ثم نتساءل: هل يجوز أن نُسَمِّيَ آخرين بهذه التسمية أو بمعنى آخر؟ هل يجوز أن نطلق على الذين يكشفون عن معاني القرآن مفسِّرين؟

نعم؛ بالقياس على ذلك يجوز، شريطة أن يكون المفسر كاشفًا الحق موضحًا له مُبينًا عنه دامغًا به الباطل، وما عدا ذلك لا يُسَمَّى مفسِّرًا، وهذا الأمر هو ما جرى عليه علماؤنا، ولم يخفَ عليهم، ولذا عرفوا المفسِّر بقولهم: «مَن له أهلية تامةٌ يعرف بها

(١) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١/ ٢٩٦٤.

مراد الله تعالى بكلامه المتعبد بتلاوته، قدر الطاقة البشرية، وراضَ نفسه على مناهج المفسرين، مع معرفته جُملاً كثيرة من تفسير كتاب الله، ومارس التفسير عمليًّا بتعليم أو تأليف»[1].

وإذا كان التفسير هو البيان والكشف عن المعنى فبينه وبين التدبر تلازم واضح وعلاقة شديدة الاتصال والالتحام؛ لأن المتدبِّرَ إذا تدبر وفق ضوابط وشروط التدبر فسوف يزيل الشبهات، ويوضح الالتباسات، ويكشف عن المعاني المرادة من الألفاظ والجمل بل من السورة القرآنية بله القرآن كله، فالتدبر على ذلك وسيلة، والتفسير غاية.

وإذا كانت مهمةُ المفسِّر هي بيان المراد من معاني وأحكام القرآن، فَمِنْ ثم يلزم المفسر أن يتسلح بكافة العلوم التي تعينه على الكشف عن المعاني والأحكام، فلا يصح أن يُفسر أحدٌ القرآن، وهو لا يدري شيئًا عن طرائق العرب في أساليبهم شعرًا ونثرًا؛ لأن القرآن الكريم نزل على طرائقهم الأسلوبية، وطبائعهم اللغوية بنظم معجز.

وهنا يجدر بنا أن نذكر العلوم أو الأدوات التي يحتاج إليها المُتَدَبِّرٌ والمُفَسِّرُ على حد سواء ما دامت العلاقة وطيدة بينهما كما بينا فنقول: «اشترط العلماء في المفسِّر الذي يريد أن يُفسِّر القرآن برأيه بدون أن يلتزم الوقوف عند حدود المأثور منه فقط، أن يكون مُلِمًّا بجملة من العلوم التي يستطيع بواسطتها أن يُفسِّر القرآن تفسيرًا عقليًّا مقبولاً، وجعلوا هذه العلوم بمثابة أدوات تعصم المفسِّر من الوقوع في الخطأ، وتحميه من القول على الله بدون علم، وإليك هذه العلوم مفصَّلة، مع توضيحٍ لكل علم منها من الأثر في الفهم وإصابة وجه الصواب:

(١) قواعد الترجيح عند المفسرين، للشيخ حسين الحربي ١/ ٣٣.

الأول: علم اللغة: لأن به يمكن شرح مفردات الألفاظ ومدلولاتها بحسب الوضع، قال مجاهد: «لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالمًا بلغات العرب»، ثم إنه لا بد من التوسع والتبحر في ذلك؛ لأن اليسير لا يكفى، إذ ربما كان اللفظ مشتركًا، والمفسِّر يعلم أحد المعنيين ويخفى عليه الآخر، وقد يكون هو المراد.

الثاني: علم النحو: لأن المعنى يتغير ويختلف باختلاف الإعراب، فلا بد من اعتباره، أخرج أبو عبيدة عن الحسن أنه سُئِل عن الرجل يتعلم العربية يلتمس بها حُسن المنطق، ويقيم بها قراءته فقال: حَسَنٌ فتعلمها، فإن الرجل يقرأ الآية فيعيى بوجهها فَيَهْلَكُ فيها.

الثالث: علم الصرف: وبواسطته تُعرف الأبنية والصيغ. قال ابن فارس: «ومَن فاته المعظم، لأنَّ (وَجَدَ) مثلاً كلمة مبهمة، فإذا صرفناها اتضحت بمصادرها»، وحكى السيوطي عن الزمخشري أنه قال: «من بدع التفاسير قول مَن قال: إن (الإمام) في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١]: جمع (أُمٍّ)، وأن الناس يُدعون يوم القيامة بأمهاتهم دون آبائهم قال: وهذا غلط أوجبه جهله بالتصريف، فإن (أُمًّا) لا تُجمع على إمام!».

الرابع: الاشتقاق: لأن الاسم إذا كان اشتقاقه من مادتين مختلفتين، اختلف باختلافهما، كالمسيح مثلاً، هل هو من السياحة، أو من المسح؟

الخامس، والسادس، والسابع: علوم البلاغة الثلاثة (المعاني، والبيان، والبديع): فعلم المعاني يُعرف به خواص تراكيب الكلام من جهة إفادتها المعنى، وعلم البيان يُعرف به خواص التراكيب من حيث اختلافها بحسب وضوح الدلالة وخفائها،

وعلم البديع يُعرف به وجوه تحسين الكلام، وهذه العلوم الثلاثة من أعظم أركان المفسِّر، لأنه لا بد له من مراعاة ما يقتضيه الإعجاز، وذلك لا يُدرك إلا بهذه العلوم.

الثامن: علم القراءات: إذ بمعرفة القراءة يمكن ترجيح بعض الوجوه المحتملة على بعض.

التاسع: علم أصول الدين: وهو علم الكلام، وبه يستطيع المفسِّر أن يستدل على ما يجب في حقه تعالى، وما يجوز، وما يُستحَل، وأن ينظر في الآيات المتعلقة بالنبوات، والمعاد، وما إلى ذلك نظرة صائبة، ولولا ذلك لوقع المفسِّر في ورطات.

العاشر: علم أصول الفقه: إذ به يعرف كيف يستنبط الأحكام من الآيات ويستدل عليها، ويعرف الإجمال والتبيين، والعموم والخصوص، والإطلاق والتقييد، ودلالة الأمر والنهي، وما سوى ذلك من كل ما يرجع إلى هذا العلم.

الحادي عشر: علم أسباب النزول: إذ إن معرفة سبب النزول يعين على فهم المراد من الآية.

الثاني عشر: علم القصص: لأن معرفة القصة تفصيلاً يعين على توضيح ما أجمل منها في القرآن.

الثالث عشر: علم الناسخ والمنسوخ: وبه يعلم المحكم من غيره، ومَن فقد هذه الناحية ربما أفتى بحكم منسوخ فيقع في الضلال والإضلال.

الرابع عشر: الأحاديث المبيِّنة لتفسير المجمل والمبهم؛ ليستعين بها على توضيح ما يشكل عليه.

الخامس عشر: علم الموهبة: وهو علم يُورثه الله تعالى لمن عمل بما علم، وإليه

الإشارة بقوله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾ [البقرة:٢٨٢]، وبقوله ﷺ: «مَن عمل بما علم وَرَّثه اللهُ علم ما لا يعلم».

قال السيوطي: بعد أن عَدَّ علم الموهبة من العلوم التي لا بد منها للمفسِّر: «ولعلك تستشكل علم الموهبة، وتقول: هذا شيء ليس في قدرة الإنسان، وليس الأمر كما ظننت من الإشكال، والطريق في تحصيله ارتكاب الأسباب الموجبة له من العمل والزهد. قال في البرهان: «اعلم أنه لا يحصل للناظر فهم معاني الوحي ولا تظهر له أسراره، وفى قلبه بدعة أو كبر، أو هوى أو حب دنيا، أو هو مُصِّرٌ على ذنب، أو غير متحقق بالإيمان، أو ضعيف التحقيق، أو يعتمد على قول مفسِّر ليس عنده علم، أو راجع إلى معقوله، وهذه كلها حُجُب وموانع بعضها آكد من بعض»، قلت: وفى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ [الأعراف: ١٤٦]، قال ابن عيينة: أنزع عنهم فهم القرآن. أخرجه ابن أبي حاتم.

هذه هي العلوم التي اعتبرها العلماء أدوات لفهم كتاب الله تعالى، وقد ذكرناها مسهبة مفصَّلة، وإن كان بعض العلماء ذكر بعضًا وأعرض عن بعض آخر، ومنهم مَن أدمج بعضها في بعض وضغطها حتى كانت أقل عددًا مما ذكرنا، وليس هذا العدد الذي ذكرنا حاصرًا لجميع العلوم التي يتوقف عليها التفسير، فإن القرآن -مثلًا- قد اشتمل على أخبار الأمم الماضية وسيرهم وحوادثهم، وهى أمور تقتضى الإلمام بعلمي التاريخ وتقويم البلدان، لمعرفة العصور والأمكنة التي وُجِدت فيها تلك الأُمم، ووقعت فيها هذه الحوادث...»[1].

وإذا كان الأمر كذلك فمن قال بغير ذلك فقد جانبه الصواب، يقول الشيخ

(١) التفسير والمفسرون للشيخ الذهبي ١/ ٢٤٨ : ٢٥١.

مساعد: «إذا كانت مهمة المفسِّر بيان معاني القرآن، فإنَّه عند تأمُّل هذه العلوم، وفحصها سيظهر ما يأتي: أنَّ بعضها لا يلزم المفسِّر معرفتها، كعلم البلاغة، وعلم أصول الفقه، وأنَّ بعضها يكفيه منها مبادئ العلم دون الدخول في تفصيلته، كعلم النحو، وأنَّ بعضها يحتاج منه جزءًا معيَّنًا، كمعرفة دلالة الألفاظ من علم اللغة، ولا شكَّ أنَّ من حصَّل هذه العلوم كان أوسع بحثًا وتقريرًا في تفسيرِه، لكنه فيما يكون خارجَ حدِّ البيان عن معاني القرآن»[1].



ثالثًا: تحرير مصطلح التأويل لغة:

صيغة تأويل مصدر على وزن تفعيل، وهو مصدر من الفعل الماضي الرباعي المضعف العين (أَوَّل)، ويعني في اللغة الرجوع والتقدير والتفسير، يقول ابن منظور: «أَوَّلَ الكلامَ وتَأَوَّله: دَبَّره وقدَّره، وأَوَّله وتَأَوَّله: فَسَّره. وقوله عز وجل: ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ [يونس:٣٩] أي لم يكن معهم علم تأويله، وهذا دليل على أَن علم التأْويل ينبغي أَن ينظر فيه، وقيل: معناه لم يأْتِهِمْ ما يَؤُول إليه أَمرهم في التكذيب به من العقوبة.

ودليل هذا قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ٣٩]، وفي حديث ابن عباس: «اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ في الدِّيْنِ وَعَلِّمْهُ التَّأْويْلَ». قال ابن الأَثير: هو من آلَ الشيءُ يَؤُول إلى كذا أَي رَجَع وصار إليه، والمراد بالتأْويل نقل ظاهر اللفظ عن وضعه الأَصلي إلى ما يَحتاج إلى دليل لولاه ما تُرِك ظاهرُ اللفظ، ومنه حديث عائشة رضي الله عنها: كان النبي ﷺ يكثر أَن يقول في ركوعه وسجوده:

(١) مفهوم التفسير للشيخ مساعد الطيار ١/ ٤٤.

«سبحانك اللهم وبحمدك» يَتَأَوَّل القرآنَ، تعني أنه مأْخوذ من قوله تعالى: ﴿ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُ ﴾ [النصر:٣]...»[1].

فالتأويل على ذلك له عدة معانٍ: التفسير والتوضيح والكشف، والرجوع أي: رجوع الألفاظ والجمل إلى معانيها المرادة منها، ونقل ظاهر اللفظ عن وضعه الأصلي إلى ما يَحتاج إلى دليل لولاه ما تُرِك ظاهرُ اللفظ.

وقد ورد هذا المصطلح في الذكر الحكيم (١٧) مرة:

قَالَ تعَالَىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ ﴾ [يوسف: ٦].

قَالَ تعَالَىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ ﴾ [يوسف: ٢١].

قَالَ تعَالَىٰ: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ ﴾ [يوسف: ١٠٠].

قَالَ تعَالَىٰ: ﴿ رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ ﴾ [يوسف:١٠١].

قَالَ تعَالَىٰ: ﴿ وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا ﴾ [الكهف:٨٢].

قَالَ تعَالَىٰ: ﴿ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴾ [يوسف: ٤٤].

قَالَ تعَالَىٰ: ﴿ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا ﴾ [الكهف: ٧٨].

قَالَ تعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ

---

(١) لسان العرب مادة (أ و ل)، وجعل الراغبُ في مفردات ألفاظ القرآنِ ٩٩ التَّأويل من الأَوْل، أي : الرُّجوع إلى الأصلِ، وجعل ابن فارس في مقاييس اللُّغةِ ١/ ١٥٨ مادَّة أول ترجعُ إلى أصلين : ابتداءُ الأمر، وانتهاؤه، ويظهرُ أنَّهما يشتركانِ في معنى الرُّجوع الذي نصَّ عليه الرَّاغبُ، ولو جُعِلَ أصلاً واحدًا لكانَ أَوْلَى، فالأوَّل من الأشياءِ يرجعُ إليه ما بعدَه مما تأخَّرَ عنه.

فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩].

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [الإسراء:٣٥].

قَالَ تَعَالَى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَاءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُولُوا ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران:٧].

قَالَ تَعَالَى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ [الأعراف: ٥٣].

قَالَ تَعَالَى: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ﴾ [يونس: ٣٩].

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْآخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٣٦].

قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ [يوسف:٣٧].

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴾ [يوسف: ٤٥].

ومن يتأمل سياق هذه الآيات يلاحظ أن **المؤَّوَل** (أي الواقع عليه التأويل) في

هذه الآيات جاء متنوعًا: فقد يكون متشابهًا من القرآن كما في سورة آل عمران، أو رجوعًا إلى كتاب الله وسنة رسوله كما في سورة النساء، أو بيانًا لعاقبة ما وُعِدوا به من العذاب كما في سورة الأعراف، أو تفسيرًا لأحلام وأحاديث ورؤى كما في آيات سورة يوسف، أو كشفًا لأمر السفينة والغلام والجدار كما في سورة الكهف.

كما يلاحظ أنَّ **المؤِّول** إما أن يكون هو الله عز وجل: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وإما نبيًّا من أنبياء الله: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، وإما عبدًا صالحًا من عباده على أرجح الأقوال، وهو الخضر عليه السلام: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾، وعلى ذلك؛ فإن الصلة بين التدبر والتأويل صلة وثيقة جدًّا، فالذي يعلم التأويل هو الله وبعض الأنبياء، وبعض عباده الصالحين، والذي يُدبِّرُ الأمر هو الله، والذي يتدبر القرآن حق التدبر هو الرسول ﷺ، والمؤمنون (العباد الصالحون)؛ فهذا مناط الالتقاء بين التأويل والتدبر من ناحية الفاعل.

كما يتفقان من جهة المفعول من جهة أخرى، هي أن **المؤوَّل والمتدبَّر** هو القرآن، ولكنهما يختلفان من جهة أن المؤَّوَل في القرآن هو المتشابه، والمتدبَّر يشمل جميع القرآن، ويلتقيان أيضًا من جهة أن المؤَّول يكون بيانًا لعاقبة، أو تفسيرًا لأحلام ورؤى، وكل هذا يندرج في التدبر كما سبق تعريفه، ولكنهما يختلفان من جهة أن التدبر في القرآن عام للجميع كافرين ومنافقين ومؤمنين أي لجميع الخلائق، بينما التأول وقفٌ على الراسخين في العلم مثل حبر الأمة ابن عباس كما يفهم من الحديث الشريف السابق، فالتدبر على ذلك أعم من التأويل كما ترى، وبذلك يلتقي التأويل بالتدبر من وجوه، ويختلفان من وجوه أُخَر.



رابعًا: تحرير مصطلح البيان لغة:

صيغة البيان مصدر من الفعل (بان يبين بيانًا)، وهو في اللغة بمعنى الوضوح والظهور، يقول ابن منظور: «البَيانُ: ما بُيِّنَ به الشيءُ من الدلالة وغيرها، وبانَ الشيءُ بَيانًا: اتَّضَح، فهو بَيِّنٌ، والجمع أَبْيِناءُ، مثل هَيِّنٍ وأَهْيِناء، وكذلك أَبانَ الشيءُ فهو مُبِينٌ؛ قال الشاعر:

لو دَبَّ ذَرٌّ فوقَ ضَاحِي جلدِها   لأَبَانَ من آثارِهِنَّ حُدورُ

... وتَبَيَّنَ الشيءُ: ظَهَر، وتَبيَّنْتهُ أَنا، تتعدَّى هذه الثلاثةُ ولا تتعدَّى، وقالوا: بانَ الشيءُ واسْتَبانَ وتَبيَّن، وأَبانَ وبَيَّنَ بمعنى واحد...»(١)، وإلى هذا ذهب البقاعي أيضًا حيث يقول «البيان: إظهار المعنى للنفس بما يفصله عن غيره وهو غرض كل حكيم في كلامه، ويزيد عليه البرهان بأنه إظهار صحة المعنى بما يشهد به»(٢).

وقد استعمل الذكر الحكيم هذا المصطلح (البيان) ثلاث مرات(٣)، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران:١٣٨]، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ [الرحمن: ٤].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ [القيامة: ١٩].

وهنا يجدر بنا ملاحظة عدة أمور:

الأول: اسم الإشارة (هذا) في آية آل عمران يعود على القرآن أي: هذا القرآن فيه

---

(١) لسان العرب (ب ي ن).

(٢) نظم الدرر للبقاعي ٤ / ٢١٩.

(٣) وردت صيغ كثيرة من مادة (ب ي ن) لا مجال لذكرها كلها هنا، فلتراجع في المعجم المفهرس١٤١ : ١٤٥.

بيان للناس عامة، وهو هدى وموعظة للمتقين خاصة فالبيان هنا بمعنى الوضوح والانكشاف مما يعني أن القرآن لا ألغاز فيه، فمعانيه بينة وطرائقه واضحة.

الثاني: البيان في سورة الرحمن ليس ببعيد عن هذا، فمعنى: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ٤] «أي: ألهم الله عز وجل الإنسانَ النطق الذي يستطيع به أن يُبين عن مقاصده ورغباته، ويتميز به عن سائر الحيوان»[1]، ولن يبين الإنسان عن مقاصده ورغباته إلا بكلام واضح لا ألغاز فيه عكس ما يتشدق به بعض الحداثيين الذين يغمغمون بكلام وغمغمات غير مفهومة، ومعاني كلامهم زئبقي رجراج تغطيه التعمية، ويلفه الغموض، ويسمون هذا فنًّا، ألا سحقًا لهذا الفن!

الثالث: البيان في سورة القيامة أيضًا بمعنى التوضيح أي: علينا توضيح معانيه وإظهارها، وتفصيل المجمل من أحكامه عن طريق السنة المطهرة، كما قال رب العالمين: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، فالبيان في هذه الآيات الثلاث لم يخرج عن معنى الظهور والوضوح والانكشاف.

الرابع: يلاحظ أن **المُبَيَّن** في آية آل عمران هو القرآن، **والمبيَّن** في آية الرحمن هو كلام الإنسان، **والمبيَّن** في آية القيامة هو القرآن، وأن **المبيِّن** في آل عمران وسورة القيامة هو المولى عز وجل الذي أنزل القرآن بيانًا للناس، **والمبيِّن** في سورة الرحمن هو الناطقية لدى الإنسان.

ولعلك الآن عزيزي القارئ تدرك الفرق لائحًا بين التدبر والبيان، فالتدبر يكون في المعاني المكنونة في كلام الرحمن كي نصل إلى مراد الله فيها، وهذا هو صلة التدبر

---

(١) تفسير الصابوني ٣/ ١٤٥٦ بتصرف.

بالبيان المفهوم من آية آل عمران والقيامة، وقد أشار إلى هذا بعض العلماء يقول د/ محمود توفيق: «والتدبُّر لا يكون إلاَّ لما هو مكنون في الكلم من المعاني، ومن ثَمَّ كان المبتغَى بالتدبر هو المعنى القرآني الكريم، وهذا هو مناط البركة الرئيس»[١].

ويكون التدبر أيضًا في الدلالات المستكنة في كلام الإنسان، فعلى المتكلم أن يبين كلامه، وعلى أخيه الإنسان أن يتدبر في كلامه، ويعقله ليفهم المراد منه، كما أن بين التدبر والبيان تلازم جليٌّ من جهة أن البيان هو المعنى الواضح المنكشف، والتدبر لا يكون إلا في كلام واضح لا ألغاز فيه للوقوف على حقيقته، وهكذا كانت العلاقة وثيقة بين البيان والتدبر فهما صنوان متلازمان لا ينفكان.



خامسًا: **تحرير مصطلح الاستنباط لغة،** صيغة استنباط مصدر على وزن استفعال من الفعل الماضي السداسي استنبط، ويعني في اللغة الاستخراج، يقول ابن منظور: «اسْتَنْبَطه واستنبط منه علمًا وخبرًا ومالاً: استخرجه، والاسْتنْباطُ: الاستخراج، واستنبَطَ الفَقيهُ إذا استخرج الفقه الباطن باجتهاده وفهمِه، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾ [النساء: ٨٣]. قال الزجَّاج: معنى يستنبطونه في اللغة يستخرجونه، وأَصله من النَّبَط، وهو الماء الذي يخرج من البئر أَوَّل ما تحفر»[٢].

لكن يلاحظ أن الألف والسين والتاء في استنبط تدلُّ على الطلب أي: أن المستنبط يتطلب ويتكلف ويبذل جهده، ويعمل عقله ليصل إلى مراده كما يحصل المستخرج للماء من قعر البئر بالصبر والتكلف والمعاناة وبذل الجهد.

(١) العزف على أنوار الذكر د/ محمود توفيق ١/ ١٢.

(٢) لسان العرب (ن ب ط).

ولم يرد هذا المصطلح بذاته في القرآن الكريم بل ورد الفعل المضارع (يستنبط) في الذكر الحكيم مرة واحدة في قوله تعَالَى: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ٨٣]؛ فهذا الفعل من الألفاظ الفرائد التي لم ترد إلا في هذا الموطن فحسب من الذكر الحكيم.

ويلاحظ أن هذه الآية وردت عقب الحديث عن قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾، كما يلاحظ أن الخطاب فيها، وفيما قبلها موجه للمنافقين الذين ينعي المولى عز وجل عليهم هنا بأنهم «إذا جاءهم خبر من الأخبار عن المؤمنين بالظفر والغنيمة أو النكبة والهزيمة أذاعوا به، وأفشوه وأظهروه، وتحدثوا به قبل أن يقفوا على حقيقته، وكان في إذاعتهم له مفسدة للمسلمين، ولو ترك هؤلاءِ الكلامَ بذلك الأمر الذي بلغهم، وردوه إلى رسول الله، وإلى كبراء الصحابة، وأهل البصائر لعلمه الذين يستخرجونه منهم»[1].

فالاستنباط هنا كما هو جلي لم يتعلق بآية من آيات القرآن لم يفهمها المنافقون فهماً صحيحًا بل هو متعلق هنا بعدم الوقوف على حقيقة الأخبار التي يتناقلها بعض الناس بدون فهم أو روية، ويفشونها، ولا يعرفون حقائقها، ولو ترك المنافقون هذا الأمر لأهله لاستنبطوه، ووضعوا الأمور في نصابها، وأدركوا حقائق الأخبار المتناقلة.

كما يلاحظ من الآية أن الذين يستنبطون حقائق الأخبار المذاعة هم: (الرسول، وأولو الأمر) والمقصود بهم هنا (أكابر الصحابة وأهل البصائر في كل زمان ومكان)، أو الذين من الممكن أن نسميهم المتدبرين.

(١) تفسير الصابوني ١/ ٢٧٦.

فالمتدبرون هم الذين يقفون على حقائق الأمور، ويعرفون كنه الأخبار التي قد تكون سببًا في المفسدة، وعلى ذلك فإن بين التدبر والاستنباط علاقة وثيقة جدًّا، فالمستنبط يستخرج ما خفي ودق من الأخبار والمعاني.

والمتدبر لا يتدبر إلا في كل كلام يحتاج في إدراكه إلى تأمل وتفكر وإنعام نظر، ليستخرج خفيه، ويقف على حقيقته، كما أن التدبر يُعدُّ أصلاً أصيلاً للاستنباط ؛ لأن الذي يستنبط الأمور الخفية، والمسائل الدقيقة لا بد أن يتدبر ويتأمل فيها أولاً، وعلى ذلك فالتدبر أعم، والاستنباط أخص، وأيضًا فإن التدبر يؤدي حتماً إلى الاستنباط، ويزخر تراثنا العظيم بكثير من العلماء، والفقهاء، والقضاة، وأصحاب البصائر الذين وفَّقَهُم المولى سبحانه وتعالى واستنبطوا المسائل الخفية، وأزاحوا الركام عن القضايا الشائكة التي خفيت عن غيرهم وكانت سبب فتنة وبلبلة كثيرة في شتى صنوف العلوم والمعارف عقيدةً وتفسيرًا وحديثًا وفقهًا وبلاغةً ونحوًا، وغير ذلك، وما ذلك إلا بفضل التدبر.

أما وجه المفارقة بينهما فيتمثل في أن التدبر مطلوب من كافة الناس باختلاف مشاربهم، بخلاف الاستنباط؛ فإنه لا يكون للكافة بل يختص كما حكى القرآن بالرسول، وأولي الأمر (العلماء والولاة وأهل البصائر) فهؤلاء على كل حال طوائف خاصة، وليسوا عامة المؤمنين.



سادسًا: تحرير مصطلح الفهم لغة:

صيغة فَهْم على وزن فَعْل، وهي مصدر من الفعل الماضي الثلاثي فَهِمَ، ويعني في اللغة: المعرفة والعلم والفقه، يقول ابن منظور: «الفَهْمُ: معرفتك الشيء بالقلب،

فَهِمَه فَهْمًا وفَهَمًا وفَهامةً: عَلِمَه الأخيرة عن سيبويه، وفَهِمْت الشيء: عَقَلتُه وعرَفْته، وفَهَّمْت فلانًا وأَفْهَمْته، وتَفَهَّم الكلام: فَهِمه شيئًا بعد شيء» [1].

ولم يرد هذا المصطلح بعينه في الذكر الحكيم بل ورد الفعل الماضي الرباعي المضعف العين (فَهَّم)[2] مرة واحدة فحسب في قوله تعَالَىٰ: ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

وقد ورد التفهيم هنا في سياق بيان الحادثة المشهورة بين داود وسليمان عليهما السلام التي ذكرتها الآية السابقة في قوله تعالى: ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴾ [الأنبياء:٧٨]، فحكم داود عليه السلام بحكم لم يكن هو عين الصواب، وامتن المولى عز وجل على سليمان فعلمه وعرفه، وألهمه عين الصواب، ومن ثم نُسب التفهيم هنا للمولى عز وجل بنون العظمة في قوله: ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا ﴾.

ونستطيع أن نستنبط من ذلك أمرًا مهمًّا أن **المُفَهِّم** هو الله عز وجل، وأن الذي وقع عليه التفهيم شيئان [3]: سليمان عليه السلام، وقضية الحرث المتنازع فيها، وعليه فالفهم لا يكون إلا في الأمور العويصة، والقضايا الشائكة والمسائل الدقيقة المتنازع فيها، والتي يذهب فيها الحكمان مذاهب شتى ما بين الخطأ والصواب وعين الصواب،

(١) لسان العرب مادة (ف هـ م).

(٢) هذه الكلمة من الكلمات الفرائد -مادةً وصيغةً- في الذكر الحكيم، وهي مثل مصطلح (التفسير)، ومصطلح (الاستنباط).

(٣) الفعل «فَهَّمَ» يتعدى لمفعولين الأول القضية والثاني سليمان، وتقدير الكلام: «فَهَّمَ المولى عز وجل القضيةَ سليمانَ».

ومن رزقه الله فهمًا وعلمًا ومعرفةً وألمعيةً أكثر يكون أقدر على الإتيان بالحكم الصائب بعينه.

كما يلاحظ أن الفهم هنا كان في أمر دنيوي مما يتصل بالزرع والحرث.

وهنا تبدو العلاقة واضحة جدًّا بين التدبر والفهم؛ لأن المتدبر في الأمور يجب أن تتوافر فيه هذه الصفات من الفهم والمعرفة التي يلهمها رب العالمين لبعض عباده الصالحين ولو نسبيًّا.

وعلى ذلك فالتدبر أعم والفهم أخص؛ لأن التدبر يكون في كل المعاني المستكنة في كتاب الله، والفهم يختص بالقضايا الشائكة والمسائل الخبيئة الدفينة، ولذا كان العقل والعلم والمعرفة اللاتي هي مناط الفهم من الأساسيات التي يجب أن تتوافر في المتدبر، وأيضًا فالفهم يكون نتيجة للتدبر، وهل نتدبر شيئًا إلا بعد فهمه ومعرفته والوقوف على حقيقته اللغوية والمراد منه؟

وبعد؛ فقد تبين لنا من عرضنا لهذه المصطلحات، والصيغ المختلفة أن القرآن الكريم يعبر عن المعاني السابقة بصيغ معينة غاية في الدقة، فمن يتأمل القرآن قراءةً وسماعًا وكتابةً يكون **متدبرًا**، ومن يقف على متشابه القرآن يكون **متأولاً**، ومن يكشف عن المعاني المرادة من الألفاظ يكون **مُفَسِّرًا**، ومن يتعرف على حقائق الأخبار، ويميز بينها يكون مستنبطًا، ومن يأتي بكلام واضح يكون **مبينًا**، ومن يدرك الصواب في القضايا الشائكة يكون فاهمًا، وغني عن البيان أن التدبر أعم من هذه المصطلحات، وأنها كلها داخلة تحت عباءته، فيا لروعة هذا الذكر الحكيم الذي يعبر بصياغات هي مناط إعجازه، بما لا يقدر الإنس والجن أن يأتوا بها.



هذا، وكنت أود أن تتسع محاور هذا الملتقى لتشمل علاقة التدبر بالتَّفَكُّر والتَّذَكُّر والنظر والاعتبار؛ لأنها من المصطلحات القرآنية المهمة، والتي لها وثيق الصلة بمصطلح التدبر، وزيادة في الفائدة أقول:

صيغة (تَفكُّر) على وزن تفعُّل، وهي مصدر الفعل الماضي الخماسي (تَفكَّرَ)، والمراد منه لغة التأمل وإعمال العقل في الشيء، يقول ابن منظور: «الفَكْرُ والفِكْرُ: إِعمال الخاطر في الشيء ؛ قال سيبويه: ولا يُجمع الفِكْرُ ولا العِلْمُ ولا النظرُ، قال: وقد حكى ابن دريد في جمعه أَفكارًا، والفِكْرة: كالفِكْر، وقد فَكَر في الشيء، وأَفْكَرَ فيه وتَفَكَّرَ بمعنًى، الجوهري: التَّفَكُّر: التأَمل»[1]، ومن العجيب أن الذكر الحكيم لم يستخدم مصطلح التأمل مطلقًا وهذه خصوصيات في استعمالات الذكر الحكيم لبعض الصيغ والألفاظ عرضتُ لها في بحثٍ بعنوان: «من أسرار الإعجاز القرآني في ضوء آيات النحل والنمل».

وصيغة (تَذَكُّر) على وزن تفعُّل أيضًا، وهي مصدر الفعل الماضي الخماسي(تَذَكَّرَ) والمراد منه لغةً: استحضار المنسي أو الغائب عن الذهن، يقول ابن منظور: «وذَكَرْتُ الشيء بعد النسيان وذَكرتُه بلساني وبقلبي وتَذَكَّرْتُه وأَذْكَرْتُه غيري، وذَكَّرْتُه بمعنًى»[2].

والنظر مصدر من الفعل الماضي الثلاثي (نَظَرَ) ومعناه لغة: التأمل بحاسة البصر يقول ابن منظور: «النَّظَر: حِسُّ العين، نَظَره يَنْظُره نَظَرًا، ومَنْظَرًا ومَنْظَرة ونَظَر إِليه، الجوهري: النَّظَر تأَمُّل الشيء بالعين»[3].

ومصطلح الاعتبار مصدر من الفعل الماضي الخماسي (اعْتَبَرَ) وهو في اللغة: التدبر

(١) لسان العرب مادة (ف ك ر).

(٢) لسان العرب مادة (ذ ك ر).

(٣) لسان العرب مادة (ن ظ ر).

والنظر بمهالك الأقوام، وفي ذلك يقول ابن منظور: «والعِبْرة: العجب، واعْتَبَر منه: تعجَّب، وفي التنزيل: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [الحشر: ٢]؛ أَي تدبَّروا وانظُروا فيما نزل بقُرَيْظةَ والنضير، فقايِسوا فِعالَهم واتَّعِظُوا بالعذاب الذي نزل بهم»[١].

هذا؛ وقد حصرت تلك المصطلحات في القرآن الكريم فوجدتها استعملت فيه على النحو الآتي:

لم يرد مصطلح التفكر في القرآن العظيم بل ورد الفعل المضارع (تَتَفَكَّر)، (يتفكر) من الماضي الخماسي تَفَكَّر (١٧) مرة[٢] وقد ورد الفعل الماضي الرباعي المضعف (فَكَّرَ) مرة واحدة في قوله تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ [المدثر: ١٨]، ولم ترد من هذه المادة أي صيغة فعلية أخرى، كما لم يرد منها أي صيغة اسمية البتة.

والتفكير في آية المدثر كما هو معلوم ورد في مقام ذم الوليد بن المغيرة.

أما سياقات التعبير في بقية الآيات فقد وردت كلها في مقام مدح المتفكرين، وكان مناط التفكر أشياء عديدة: فعلى سبيل المثال كان التفكر واقعًا على آيات الكتاب الحكيم في آية البقرة (٩٩)، وعلى أمر الدنيا والآخرة في آية البقرة (٢١٩)، وعلى خلق السموات والأرض في آية آل عمران (١٩١).

وفي أمر النحل في آية النحل (٦٩)[٣] وفي المودة والرحمة التي غرسها المولى عز

(١) لسان العرب مادة (ع ب ر).

(٢) المعجم المفهرس ٦٦٧.

(٣) يقول البيضاوي: «في آية النحل في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٩] من تدبر اختصاص النحل بتلك العلوم الدقيقة والأفعال العجيبة حق التدبر علم قطعًا أنه لا بد له من خالق قادر حكيم يلهمها ذلك، ويحملها عليه»، وأقول أيضًا: لم يصل العلماء قديمًا وحديثًا في معرفة شأن النحل وكيفية الإفادة من عسله ومنتجاته إلا بالتدبر في حكمة خلقه.

وجل بين الأزواج في آية الروم (٢١)، فمن تفكر في آيات الذكر الحكيم، وفي خلق السموات والأرض وخلق النحل وغير ذلك يجد فيها كلها دلائل واضحة على وجود الخالق سبحانه وتعالى، ومن هنا تبدو العلاقة واضحة جدًّا بين التدبر والتفكر.

وقد وفق العسكري توفيقًا واضحًا حين ذكر الصلة بين التدبر والتفكر فقال: «فُرِّقَ بينهما بأن التدبر: تصرف القلب بالنظر في عواقب الأمور، والتفكر: تصرف القلب بالنظر في الدلائل»(١).

أما مصطلح التذكر فلم يرد في القرآن الكريم مطلقًا، ولكن ورد المضارع (يتذكر) وغير ذلك من الصيغ المستمدة من مادة (ذ ك ر) كثيرًا(٢).

وعلاقة التذكر بالتدبر واضحة فإن تَذَكُّرَ الشيء يقتضي أن صاحبه كان عالمًا به قبل أن ينساه، ثم تذكره بقراءة أو اكتساب علم أو مذاكرة أو بأي سبب من الأسباب، وفي ذلك يقول د/ محمود توفيق: «في قوله تعالى: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩] إشارة إلى أنَّ التَّذكُّرَ منزلةٌ مُتَرَتِّبَةٌ على حسن التدبر، فمن قام بشيءٍ من حق التَّدبُّر كان له من التذكر نصيب على قدر لبِّه»(٣).

وكذلك الحال في مصطلح النظر فهو لم يرد مطلقًا في القرآن الكريم بل ورد الماضي (نَظَرَ) ومضارعه وأمره، كما ورد المضارع (تُنْظِرونَ) من الماضي الرباعي (أَنْظَرَ) وكذلك الأمر من هذا الماضي، كما ورد المضارع والأمر من الماضي الخماسي (انْتَظَرَ)، وورد اسم الفاعل من الثلاثي (نظر)، واسم المرة (نظرة)، وورد اسم الفاعل، واسم

---

(١) الفروق اللغوية ١/ ١٢٠.

(٢) المعجم المفهرس ٢٧٠ : ٢٧٥.

(٣) العزف على أنوار الذكر ١/ ١٠.

المفعول من الرباعي (أَنْظَرَ)، واسم الفاعل من الخماسي (انْتَظَرَ).

وهكذا تعددت الصيغ من هذه المادة والوقت لا يسعنا لبيان دلالة كل صيغة من واقع سياقها القرآني.

والمهم أن مناط النظر في كثير من هذه الآيات كان متنوعًا ما بين النظر في ملكوت السموات والأرض، والنظر في عاقبة وهلاك الذين سبقوا كفار قريش، والنظر إلى السماء كيف بنيت وزينت، وغير ذلك، ولا يخفى أن النظر بمعنى البصر مطوي في دلالة هذه الصيغ.

وعلاقة النظر بالتدبر علاقة وثيقة؛ لأن المتدبِّر ينظر للمُتَدَبَّرِ بأناة وتأمل حتى يصل إلى مراده من التدبر.

وكذلك الحال في مصطلح الاعتبار فلم يرد مطلقًا في القرآن الكريم بل ورد الأمر من الماضي (اعتبر) مرة واحدة فحسب في قوله تعالى: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [الحشر: ٢] وورد الفعل (تَعْبُرُونَ) مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف:٤٣]، وجمع المذكر عابرين مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ﴾ [النساء: ٤٣]، كما ورد المصدر (عِبْرَة) ٦ مرات[1].

والعلاقة بين التدبر والاعتبار واضحة أيضًا ؛ لأن التدبر في عواقب الأمور يقود إلى الاعتبار والاتعاظ بيسر وسهولة، أو قُلْ: إن العظة والاعتبار من ثمار التدبر.

وبعدُ؛ فلو تدبرنا في هذه المصطلحات والصيغ السابقة كلها نستطيع أن نجزم أن القرآن الكريم في اختيار صيغه المختلفة له أنماط وطرائق يسير عليها لا يستطيع

(١) المعجم المفهرس ٤٤٥.

بشر -كائنًا ما كان- أن يصبو إليها أو يحاكيها، فهو يأتي من المادة الواحدة بالأسماء، والأفعال على اختلاف الصيغ، وقد يأتي من المادة الواحدة بالأسماء فقط، أو بالأفعال فقط، والعثور على ذلك كله إنما هو نتيجة واضحة للتدبر في ألفاظه وصيغه.

ولقد اتضح من تحرير هذه المصطلحات القرآنية من خلال استعمالات الذكر الحكيم مدى الصلة الوثيقة بينها، كما اتضح أيضًا لكل من له لب أن القرآن يسمي الأشياء بمسميات دقيقة عكس البشر فقد يتسامحون ويطلقون هذا على ذاك، وهذا ما يجب التنبه له مما يدل على أننا لا بد أن نسمي الأشياء بمسمياتها القرآنية، وهو الاتجاه الأعز والأكرم والأفضل.

فالتأمل في الكون عبر عنه الذكر الحكيم بالنظر والعبرة والاستبصار، والتأمل في القرآن عبر عنه بالتدبر، ومن هنا يبدو لنا الفرق الواضح بين كلام الرحمن وكلام الإنسان ففضل كلام الرحمن على كلام الإنسان كفضل الله على سائر خلقه، وكل ذلك ظواهر قرآنية تستحق البحث والدرس بأناة أكثر وتدبر أعمق لاستخراج الفروق الدقيقة، وإدراك العلاقات القائمة بينها، لأن ما ذكرناه كان بنظرة عجلى في هذا الجانب الغزير.

وفي خاتمة المطاف يجب أن نقول: إن التدبر كما يكون في الذكر الحكيم مسموعًا ومقروءًا ومكتوبًا، فبالقياس على ذلك فإن التدبر يجب أن يكون أيضًا سمة عامة في مختلف العلوم الإسلامية مقروءةً ومسموعةً ومكتوبةً، ولقد قام أسلافنا بالوفاء بحق التدبر في هذين الجانبين الكريمين فتركوا لنا تراثًا تليدًا خالدًا في شتى العلوم والمعارف، ولا نبالغ إذا قلنا أيضًا: إن التدبر عند الأمم الأخرى كان وسيلة أساسية وعظيمة من وسائل اكتساب المعرفة البشرية، ولولا التدبر والتفكر والنظر والاعتبار

ما وصل العقل البشري إلى ما وصل إليه من منجزات وثقافات، وحضارات متنوعة ما بين حضارات مادية تُغَلِّبُ الجانب المادي على الروحي، وحضارات روحية تغلب الجانب الروحي على الجانب المادي، وكل من هاتين الحضارتين تقومان على ساق واحدة عرجاء لم تُخَلِّفْ أثرًا قويًّا في تاريخ البشرية إلى أن جاء هذا الدين الحنيف على يد سيد البشر أجمعين، فكانت بعثته ﷺ إيذانًا بتصحيح الأوضاع المعوجة، والمعتقدات الفاسدة بفضل القيم التي ارتكز عليها هذا الدين العظيم، والتي هي صالحة لأن تطبق على البشرية في كل زمان ومكان.

وكان عمود وعماد هذا الدين العظيم ركنين أساسيين القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، ولقد قامت حول هذين الركنين العظيمين دراسات وأبحاث كثيرة تفوق الحصر لم يحدث ذلك في تاريخ أي أمة من الأمم، وهذا الإنتاج الضخم والغزير هو انعكاس واضح وظاهر للتدبر في هذين الركنين العظيمين.

ولن تستطيعَ أمة الإسلام أن تنهض من كبوتها العابرة إلا بالعودة من جديد للتدبر والتأمل في هذين الركنين العظيمين حتى تستعيدَ سالف المجد والحضارة والفكر والثقافة التي أنتجها أسلافنا القدماء حينما أعملوا عقولهم، وشحذوا أفكارهم، وانكبوا على كتاب الله وسنة نبيه، واستنبطوا منهما هذا التراث العظيم المتنوع في شتى العلوم والمعارف الإنسانية ولم يترك علماؤنا الأوائل باب خير للإنسانية إلا ولجوه، فقد كتب علماء المسلمين في كل المعارف والعلوم دون استثناء فألفوا في الطب والرياضة والصيدلة والكيمياء والفلك وغير ذلك من العلوم العملية التجريبية، كما ألفوا في العلوم الإنسانية بصورة ليس لها نظير عند الأمم الأخرى التي أُنزل عليها كتاب سماوي، فالتوراة والإنجيل لم تقم حولهما دراسات ومعارف وعلوم كمًّا وكيفًا

كما قامت حول القرآن من العلوم والمعارف التي استنبطت منه.

وكل هذا كان تلبية من علماء المسلمين، واستجابة واعية، وانصياعًا واضحًا لما أمرهم به رب العالمين من التدبر فتدبروا، ومن التفكر فتفكروا، ومن النظر فاستبصروا.

والذكر الحكيم كتاب لا تنقضي عجائبه، ولا تنفد غرائبه، ولا يخلق على كثرة الرد.

فلو عادت جموع الأمة إليه من جديد شريطة أن تكون العودة بتدبر وتأمل وتمعن لعادت إلينا الريادة والسيادة والقيادة، والقرآن الكريم نفسه فيه من الآيات التي تحث على التفكر في الكون والنظر في مخلوقات الله والتدبر في آياته العظيمة، واستخلاص العظات والعبر منهما ما لا يوجد في كتاب سماوي آخر.

ولذا لا نبالغ إذا قلنا: إن الإسلام هو دين العلم والعقل والتدبر والتأمل والتفكر، وليس هذا رطانة جوفاء دون دليل، بل الصيغ والمصطلحات التي أحصيناها، وحررناها، وأَصَّلْنَا معانيها من الذكر الحكيم فيما سلف، وأظهرنا الفروق الدقيقة بينها لأكبرُ دليل على ذلك.

فليس هناك دليلٌ أوضح مما ذكرناه على أنَّ كُلًّا من التدبر والتفكر والنظر والاعتبار وسائر هذه المصطلحات هي ركن ركين، وأساس عظيم من أركان وأسس الإسلام المهمة التي يجب أن تكون في وعي وقلب وعقل كل مسلم يحب هذا الدين، ويحرص على تقدم أمته في سلم الحضارة الإنسانية، وأن تحتل هذه الأمة من جديد المكانة اللائقة بها، والتي قال عنها رب العالمين سبحانه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

فهذه الخيرية ليست من فراغ بل لأن لهذه الأمة مقومات ودعامات قامت عليها حضارتها الإسلامية العظيمة، فهذا الجانب الذي لمسناه هو جانب مهم ورشيد مع الجوانب الأخرى للتدبر وأثره وقيمته إسلاميًّا وإنسانيًّا، ومن ثم يلوح لي هنا أن التدبر وإن كان قاصرًا في الذكر الحكيم على القرآن فحسب فإنه على سبيل المسامحة يجوز أن نطلقه على التفكر في الكون والنفس الإنسانية بوجه عام وبذلك يتسع مفهوم التدبر فيندرج فيه كل هذه المصطلحات ويكون التدبر هو الأعم منها جميعها، وأنه كما كان التدبر في القرآن نصًّا، يجب أن يكون في خلق الإنسان، وفي الملكوت كله بالقياس عليه.

ومن ثم يبدو لي أن التدبر يتنوع إلى ثلاثة أنواع:

النوع الأول: تدبر بيانيٌّ مقروءًا ومسموعًا ومكتوبًا مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ [ص: ٢٩]، وقد قام علماؤنا في القديم بهذا الواجب حق القيام فتركوا لنا هذا الإنتاج الفقهي والعلمي والأدبي الضخم والغزير المستمد من الذكر الحكيم، فيا ليت أسلافهم يواصلون المسيرة بدأب وأناة، ويبنون من ماضيهم التليد لحاضرهم المجيد، ومستقبلهم الواعد إن شاء الله تعالى.

وهذه صورة موجزة من صور التدبر القرآني لصاحب هذه السطور ففي بحثٍ لي بعنوان: «من الأسرار البلاغية في الفرائد القرآنية» أسوق هنا تحليلاً لكلمة فريدة وحيدة وردت مرة واحدة في الذكر الحكيم، وهي الفريدة (**حَصْحَصَ**) التي وردت في قوله تعالى: ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [يوسف:٥١].

وقد ذكر اللغـويون لهذه الفريدة معاني عديدة، يقول السمين الحلبي: «قوله تعالى: ﴿ ٱلۡـَٔـٰنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ ﴾ أي: ظهر، وتبلج وذلك بانكشاف ما يغمُرُه، وأصله من قولهم: رجـل أحـص، وامرأة حصاء، وهو مَن ذَهَبَ شعره فانكشف ما تحته»[1].

وفي المصباح المنير: «حصحص الحق: وضح واستبان»[2]، ولم يخرج حديث المفسرين حول هذه اللفظة عن تلك المعاني، يقول العلامة أبو السعـود: «﴿ ٱلۡـَٔـٰنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ ﴾ أي: ثبـت واستقر، أو تبين وظهر بعد خفاء قاله الخليل، وقيل: هو مأخوذ من الحصةِ وهي القطعةُ من الجملة أي تبينت حصةُ الحق من حصة الباطل كما تتبين حصصُ الأراضي وغيرها، وقيل: بَانَ وظهر من حـص شعره إذا استأصلـه»[3].

ويلاحظ أن هذه المعاني التي ذكرها اللغويون والمفسرون لهذه الفريدة كلها متقاربة.

إذن لماذا لم يُعَبَّرْ بواحدة منها وآثر تلك الفريدة؟ لابد أنها تشتمل على خصائص لا توجد فيما يقاربها منها:

١- أن تلك الفريدة تضم في طياتها تلك المعاني كلها، وجميعها مقبولة لا يرفضها المعني العام لسياق الكلام، ولا توجد لفظة أخرى تستطيع أن تحتوي على تلك الدلالات كلها مع فصاحتها وإيجازها.

٢- في هذه الفريدة قوة وجزالة ومتانة تتناغى بها مع ألفاظ الآية الجزلة القوية

(١) عمدة الحفاظ ١/ ٤٨٣، ومفردات الراغب ١١٩، ولسان العرب (حصحص).

(٢) المصباح المنير ٥٣، ومختار الصحاح ٥٩.

(٣) تفسير أبي السعود ٤/ ٢٨٤، وانظر تفسير القرطبي ٩/ ٢٠٨، وزاد المسير ٤/ ٢٣٨، ومفاتيح الغيب ١٧/ ٧٦، وتفسير الألوسي ٨/ ٢٣٧، والتحرير والتنوير ١٢/ ٢٩١.

فضلاً عن أن مجيئها على تلك الصيغةِ من تكرار الحاء والصاد يفيد المبالغةَ في شدة وضوح الحق، وظهوره بعد خفائه وكتمانه ردحًا من الزمان، فتلك الصيغة تدل بوضوح لا لبس فيه ولا تأول على استبانة الحق وانبلاجه وسطوعه بعد غمره، وتغطيته من قبل العزيز وامرأته، وكل من شاهد هذه الواقعةَ، وعلم وتأكد من براءة يوسف u، ولن تنهض لفظةٌ أخرى من الألفاظ التي تقاربها في المعنى بمثل ما نهضت به هذه الفريدة المتفردةُ صيغةً ومادةً في الذكر الحكيم.

٣- تشير الفريدةُ إلى عودة امرأة العزيز إلى صوابها، وانقلابها من امرأة والهة مصممة على الفاحشة علانيةً إلى امرأة مقرةٍ بجرمها معترفةٍ بخطئها دون خوف أو تهديد لها، وهذا أمر فريد؛ إذ لم يُعهد في عالم المرأة أن تعترف واحدة منهن صراحة أمام جمع غفير، وحشدٍ كبير أنها راودت رجلاً عن نفسه، ناهيك عن أنها ليست أيَّ امرأةً بل هي امرأةُ عزيز مصر صاحبةُ الجاه والقوة والصولجان، فهذا موقف غريب عجيب غايةٌ في التفرد إذ يصعب بل يستحيل أن تجد امرأة على هذا الوصف في تاريخ الإنسانية جمعاء ولو وضعوا السيف على جيدها أن تعترف بما اعترفت به امرأة العزيز.

وفي هذا الاعتراف شجاعة منقطعةُ النظير، وأوبةُ للحق لا مثيل لها قديماً وحديثًا، ومردُّ هذا كلِّه هو إيمانُها بربها كما يفهم من قولها الذي حكاه القرآن الكريم عنها: ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾ [يوسف: ٥٢]، وقولها أيضًا: ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [يوسف: ٥٣] فلهذه المرأة موقفان في غاية الغرابة: موقفٌ مزرٍ معيبٌ دلت عليه الفريدة: ﴿ وَغَلَّقَتِ ﴾ وموقفٌ حرٌّ كريم دلت عليه الفريدة: ﴿ حَصْحَصَ ﴾.

٤- تشير تلك الفريدة إلى تفرد هذا الموضع في القرآن كله ؛ إذ لم يرد الحديث عن هذا الموقف في أي سياق، أو موضوع آخر من الذكر الحكيم.

وهنا أمر ينبغي أن أؤكد عليه وهو أن دلالة الفرائد على تفرد موضعها بنصه وفصه في القرآن لا ينبغي أن يُعترض عليه بأن هناك مواطنَ في القرآن كثيرة ذكرت مرة واحدة بنصها وفصها ولم ترد فيها فرائد ؛ لأن هذا السر من ضمن أسرار الفرائد وليس سرا وحيدا فيها والله أعلم.

٥- هذه الفريدة لوجازتها ودقتها في الدلالة على سطوع الحق، وظهوره بعد كتمانه جرت مجرى المثل في دقته وفصاحته وعذوبته كما أشار كثير من العلماء.

وباختصار فقد توافرت في تلك الفريدةِ شتى صنوفِ الفصاحة، ومختلفِ أنواع الجمال، ولا يمكنُ للفظةٍ أخرى أن تحل محلها في هذا المقام فهي أكثر وفاء بالمعنى المراد، وأحلى على اللسان، وألذَّ في الوقع والآذان، والله أعلم.

النوع الثاني: تدبر كياني إنساني مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢١]، وقد خطت الأمم الغربية خطوات كبيرة وعظيمة في معرفة كثير من النواحي البيولوجية والطبية والنفسية عن الجسد الإنساني، وكل يوم تترى الابتكارات والاكتشافات العلمية والطبية التي تتصل بحياة الإنسان على هذا الكوكب، وما كان أجدر بالمسلمين أن يكونوا أصحاب هذا التقدم، وقد دعاهم ربهم للنظر في ذلك في آيات عديدة.

النوع الثالث: تدبر كوني ملكوتي آفاقي مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، وهذا ما قد ينقص الأمة الإسلامية في هذا العصر عكس الأمم الغربية التي أنست التدبر في السموات التي تظلهم،

والأرض التي تقلهم فاستخرجوا بعض مكنوناتها وعجائبها، ووصلوا إلى بعض كواكبها، وكل هذا من آثار التدبر والتأمل، وكأنهم حين طبقوا التدبر في هذا الجانب صدق عليهم قوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣].

ودلائل التوحيد الخالص تنحصر في هذين النوعين الأخيرين، قال الفخر الرازي: «دلائل التوحيد محصورة في قسمين: دلائل الآفاق، ودلائل الأنفس، ولا شك أن دلائل الآفاق أجل وأعظم، كما قال تعالى: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾ [غافر: ٥٧]»[(١)].



كما يلوح لي أن الأعمدة التي يرتكز عليها التدبر، وبدونها لا يكون له أثرٌ تتمحور في أعمدة داخلية يهبها المولى سبحانه لبعض عباده من الذكاء، وسرعة البديهة، والفهم وحسن التبصر، وأعمدة خارجية يجب على كل متدبر في القرآن أن تكون نصب عينه تتمثل في فهم علوم اللغة، ومعرفة أساليب العرب، وطرائق تراكيبهم، وغير ذلك كما أسلفنا في آلات المفسِّر.

فمن تدبر غير معتمدٍ على تلك الأسس لم ولن يصل به عقله إلى مراده؛ فكم من عقل معجب بنفسه وفكره ضل الطريق كبعض الفلاسفة الذين أعلوا من قدر العقل على النقل، وقديماً سقط المعتزلة في هذا البئر فخالفوا نصوصًا شرعية واضحة؛ لأنها خالفت العقل من وجهة نظرهم، ومن ثم يجب أن تكون هناك ضوابط عقلية وشرعية ينطلق منها المتدبر في كتاب الله وسنة نبيه، وليس هذا فحسب بل يجب أن

(١) مفاتيح الغيب للفخر الرازي ٥/ ١١.

تكون هناك أسس يسير عليها كل متدبر في أي علم من العلوم.

وهذا يوصلنا إلى قضية خطيرة ومهمة، وهي وجوب التخصص لدى العلماء الذين يتدبرون في شتى المعارف، فالطبيب لا يتحدث في مهنة المهندس بدون علم، وبخاصة في المسائل المعقدة المتشابكة، والفلكي لا يتحدث في علوم الدين بدون علم، وهكذا دواليك، نعم ليس الدين حكرًا على بعض دون بعض، ولكن لا بد من وجود الأدوات التي يدخل بها العالم أو المفسر، أو الفقيه إلى رحاب القرآن الكريم والسنة المطهرة، وقد تنبه علماؤنا، وأسلافنا القدماء رحمهم الله إلى ذلك فوضعوا شروطًا للمفسر وشروطًا للمفتي الذي يجتهد في مسائل الدين.

وليس هذا أمرًا غريبًا أو عجيبًا فكل شيء في الحياة يجب أن يكون له ضوابط فالكون يسير على أسس وضوابط محكمة، ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ [النمل: ٨٨]، بل حتى اللعب له ضوابط وضعها له الواضعون، ففي الرياضات المختلفة ضوابط لو تخطاها اللاعبون، ولم ينفذوا تعليمات اللعبة وشروطها لن يقبل أحدٌ منهم تلك الخروق فما بالك بالعلم والدين واللغة، وهي من أعظم الأشياء لدى الأمم، فيجب أن تكون هناك قواعد وأسس ومبادئ ينطلق منها المتدبرون في علوم الدين بمختلف طوائفهم وتخصصاتهم.

والقضية الأخرى في هذا المقام أن المتدبرين في كل زمان ومكان هم المبتكرون والمخترعون، والذين يتوصلون إلى النظريات التي تخدم البشرية في العلوم البحتة التطبيقية والنظرية، فنيوتن لو لم يتدبر في نفسه ويتساءل لماذا لَمْ تسقط التفاحة إلى أعلى لما توصل لقانون الجاذبية، وهكذا الحال في كل المخترعات الحديثة والقديمة، وهذه كلها أمور بدهية لا بد أن تلتقي عليها الإنسانية لنخرج من هذا كله بنظرية عامة

تتمحور في:

١- التدبر هبة إلهية للبشرية جمعاء؛ لأنه من لوازم العقل الذي خلقه المولى سبحانه وتعالى في كل إنسان عاقل مكلف.

٢- التدبر أساس في اكتساب العلوم والمعارف في كل أمة مذ بدء الخليقة حتى قيام الساعة.

٣- التدبر يحمي من الوقوع في الزلل والتردي في وهدة الخطأ؛ لأنه يعتمد على أسسٍ وقواعد وأصول وضوابط وشروط في كل علم وفن ومعرفة، ولا ينطلق من فراغ.

٤- المتدبرون في الذكر الحكيم خاصة لا يكتمل تدبرهم إلا إذا صحبوا هذه الأسس والقواعد المختلفة.

٥- التدبر يحمي الأمة الإسلامية جمعاء من التردي والسقوط، وهو الذي يحمي شباب المسلمين من براثن الوقوع في الأفكار الضالة المضللة التي لا تتكئ على أسس لغوية وشرعية.

٦- التدبر هو الذي يفتح مغاليق العلوم المختلفة، ويكشف عن أسرار الكون بل وكل الكائنات الصامتة والناطقة.

٧- التدبر العميق هو الذي يحل الإشكالات بين كثير من المذاهب المختلفة.

ومن خلال تطبيق علمائنا الأوائل لشروط هذا التدبر توصلوا لكثير من المعطيات العلمية، وحققوا كثيرًا من المنجزات الحضارية، وصححوا كثيرًا من الأفكار المضللة.

ويجدر بنا بحكم التخصص أن نشير إلى أن علماء البلاغة قد عرفوا التدبر حق

المعرفة، وأشاروا إلى أنه آلة من آلات التحليل البلاغي، والكشف عن الأسرار الجمالية في فنون القول المختلفة، يقول الإمام عبد القاهر: «قولهُ تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾ [ق: ٣٧]؛ أي لمن كان أعْمَلَ قلبَه فيما خُلِقَ القلبُ له منَ التدبُّرِ والتفكُّر والنظر فيما ينبغي أن ينظرَ فيه»[١].

ويقول أيضًا: «واعْلَمْ أن ها هُنا دقائقَ لو أنَّ الكنديَّ استقرأ وتصفَّحَ وتتبَّعَ مواقعَ (إنَّ) ثم أَلْطَفَ النظرَ وأكثر التدبُّرَ لَعَلِمَ عِلْمَ ضرورةٍ أنْ ليس سواءً دخولُها وأن لا تَدْخلَ»[٢].

ويقول أيضًا منعيًا على مَن يهمل التدبر: «ولولا أنَّ الشيطان قد استحوذ على كثيرٍ من الناس في هذا وأنهم بترك النظر وإهمالِ التدبُّرِ وضعفِ النِّية وقِصَر الهمَّة وقد طرَّقوا له حتى جَعَل يلقي في نفوسِهم كلَّ مُحال وكلَّ باطِل»[٣].

وفي موطن آخر يدعو العلماء إلى التدبر في كتابه دلائل الإعجاز فيقول: «ما أظنُّ بكَ أيها القارئ لكتابنا إن كنتَ وفَّيته حقَّه من النظر، **وتدبَّرتَه حقَّ التدبر** إلَّا أنكَ قد علمتَ علمًا أَبى أن يكون للشكِّ فيه نصيبٌ وللتوقُّفِ نحوكَ مذهبٌ أنْ ليس النظمُ شيئًا إلَّا توخِّي معاني النحو وأحكامِه ووجوهِه وفروقه فيما بَيْنَ معاني الكلم»[٤].

ولم يقتصر الأمر على معرفة التدبر، وقيمته وفضله عند البلاغيين، ومن قبلهم المفسرون كما ذكرنا قبل بل كان في صلب اهتمام نقاد الأدب ورواته حيث أعملوا

(١) دلائل الإعجاز عبد القاهر الجرجاني تحقيق محمود شاكر ٣٠٤.
(٢) المرجع السابق ٣١٥.
(٣) المرجع السابق ٤٥٠.
(٤) المرجع السابق ٤٣٠.

التدبر في رفض الروايات وقبولها يقول البكري: «أيمن بن خريم بن فاتك الأسدي، وخريم له صحبة وهو ممّن اعتزل الجمل وصفّين وما بعدهما من الأحداث، وهو منسوب إلى جدِّه الأعلى؛ لأنه خريم بن الأخرم بن شدَّاد بن عمرو بن فاتك وكان أيمن فارسًا شريفًا، وكان يتشيَّع، وكان به وضحٌ، وقوله فيها:

أَتَانِي بِها يَحْيَى وَقَدْ نِمْتُ نَوْمَةً وَقَدْ غَابتِ الشِّعْرَى وَقَدْ جَنَحَ النِّسْرُ

روى غيره: (وقد غابت الشعرى وقد طلع النسر)، وهو الصحيح لأن الشعرى: العبور إذا كانت في أفق المغرب كان النسر الواقع طالعًا من أفق المشرق على نحو سبع درجات وكان النسر الطائر لم يطلع، وإذا كانت الشعرى الغميصاء في أفق المغرب كان النسر الواقع حينئذ غير مكبَّد فكيف أن يكون جانحًا، وكان النسر الطائر حينئذ في أفق المشرق طالعًا على نحو سبع درجات أيضًا، **فرواية أبي علي لا تصحُّ عند التدبر البتَّة...**»[1].

ولم يقتصر الأمر على البلاغيين والمفسرين، ورواة الأدب ونقاده بل جرى التدبر على ألسنة الفقهاء يقول أحدهم: «الْوَقْفَ لا يُقْسَمُ أَيْ قِسْمَةً مُسْتَدَامَةً، فَقَدْ ظَهَرَ لَكَ أَنَّ هَذَا كلام نَاشِئٌ عَنْ عَدَمِ التَّدَبُّرِ، لِمُخَالَفَتِهِ لِلإِجْمَاعِ فَتَدَبَّرْ»[2].

كما جرى التدبر على ألسنة الشعراء، وعدوه نعمة أنعم بها الله على عباده يقول شاعر الجزيرة العربية محمد حسن فقي في قصيدته الرائعة أطوار:

وأَسْدُرُ في غَيِّ الحياة وأَرْعَوي فَأَبْكِي.. وتَطْويني رُؤاهـا وتَنْشُرُ!
وإنِّي عَلَى مَــا كَانَ مِنِّي لَنَـادِمٌ فَهَلْ نَدمِي يُجْدِي ويُجْدي التَّدَبُّرُ؟!

(١) سمط اللآلئ للبكري ١/ ٧٤.
(٢) رد المحتار ١٧/ ٢١٤.

فقال.. بَلى. إنَّ التَّدَبُّرَ نِعْمَةٌ عَلَيْكَ. وقد يَتْلُو.. فَيَهْدِي التَبَصُّرُ!»[1].

ولم يقتصر الأمر على ذلك بل العجيب الغريب أن التدبر كان مضرب الأمثال نظرًا لأهميته القصوى يقول العسكري: «ومن أمثالهم في الأمر قولهم: (الأمر يبدو لك في التدبر)»[2].

وفي النهاية لا يسعني بعد هذه المداخلة الطويلة إلا أن أتقدم بخالص الشكر والتقدير للأساتذة الفضلاء، والشيوخ الأجلاء القائمين على أمر هذا الملتقى الفكري الرائد والناجح بإذن الله عز وجل، وأحييهم وأشدُدُ على أيديهم داعيًا لهم بدوام التوفيق والسداد، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وكتبه

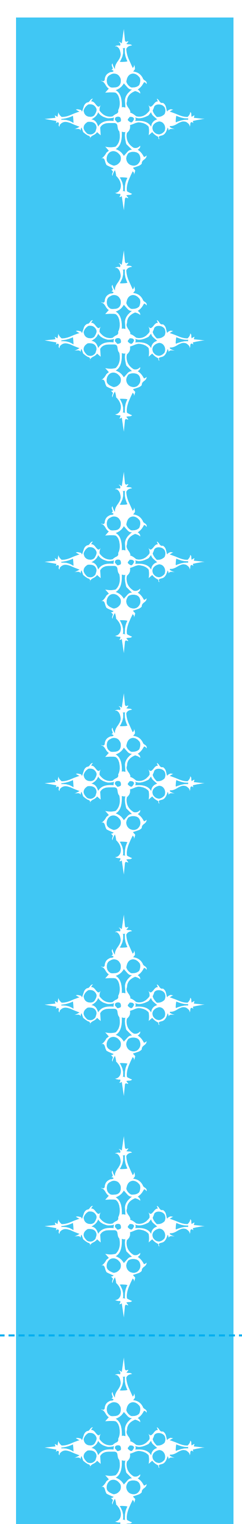
د. عبدالله عبدالغني سرحان

أستاذ البلاغة والنقد المشارك بكلية اللغة العربية

جامعة الملك خالد بأبها

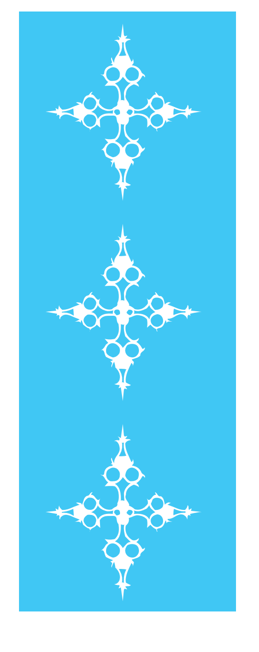
(١) ديوان الشعر العربي على مر العصور ٦٣ / ٢٧٤.

(٢) جمهرة الأمثال للعسكري ١/ ١٧٩.



التدبر مفتاح العلم وباب العمل





أ.د. سعود بن عبدالله الفنيسان

التدبر مفتاح العلم وباب العمل

جاءت آيات كثيرة تدعو إلى تدبر القرآن وتأمله كقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢]، وقوله: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وقوله: ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [ص: ٢٩]، وقوله: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد: ٢٤].

والتدبر هو التأمل والتفكر الممزوج بالعمل عند النظر في آيات الكون المنظورة وآيات الكتاب المسطورة للاعتبار؛ فآيات الكون المنظور هي ضمن آيات الكتاب المسطور، لنتأمل سويًّا قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١]. صحَّ عن عبد الله بن مسعود أنه قال: «أثيروا» وفي رواية: «ثوروا القرآن فإن فيه علم الأولين والآخرين»، وقال كما في المسند (٥/ ٢١٧): «إن للقرآن منارًا كمنار الطريق فما عرفتم فيه فتمسكوا به، وما شبه عليكم فكلوه إلى

عالمه»؛ فعلى المسلم أن يتمسك بالمعلوم له، وما كان في الحلال والحرام مما يحتاج إلى اجتهاد فيوكل إلى أهله وهم العلماء. وإثارة القرآن هي تدبُّره وتأمله، لقد صوَّرت آية آل عمران وما بعدها النموذج الفريد من البشر أولئك الذين تدبروا القرآن حق تدبره حتى أصبح كل واحد منهم، وكأنه مصحف يدب على الأرض ويمشي في الأسواق، لقد كان رجال ذلك الجيل من البشر على مدار الزمان يتخففون من تلاوة القرآن أو حفظه، من أجل أن يتقصدوا ويتزودوا من تأمله والعمل به، قال أبو عبد الرحمن السلمي من كبار التابعين: حدثنا الذين كانوا يقرؤننا القرآن كعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف أنهم كانوا لا يتجاوزون عشر آيات من القرآن حتى يعلموها ويعملوا بها، قال فتعلمنا العلم والعمل جميعًا.

ويقول عبد الله بن عمر بن الخطاب: «لقد عشنا برهة من دهرنا وأن أحدنا ليؤتى الإيمان قبل القرآن، وأنتم اليوم تتعلمون القرآن قبل الإيمان، فيقرأ الواحد ما بين فاتحته إلى خاتمته لا يدري ما آمره ولا زاجره».

نعم إن أجر تلاوة القرآن عظيم كما جاء في الحديث: «إن في كل حرف عشر حسنات لا أقول: (ألم) حرف، ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف»، ولكن أجر تأمله وتدبره أعظم من أجر تلاوته، وهذا ما فهمه الصحابة وهم رواة أحاديث فضل التلاوة، فقدموا أجر التدبر على ما دونه وهو أجر التلاوة نظرًا أو حفظًا، ومن الملاحظ في آيات التدبر السابق ذكرها أنها جاءت بصيغة الخبر والزجر والحكاية عن أقوام أعرضوا عن تدبر القرآن فخسروا الدنيا والآخرة. تدل آية النساء على أن تدبر القرآن بتأمل معانيه ودلالاته سبب للألفة والوحدة والاتفاق، والإعراض عن تأمله أو الاكتفاء بتلاوته فقط سبب للفرقة والاختلاف والنـزاع، وتدل آية (ص) على

أن القرآن لم ينـزله الله إلا من أجل التدبر، وفي التدبر بركة في العلم والعمل، ومن أعرض عن تدبره فهو مسلوب العقل، أما الآيتان من سورة (محمد) ففيهما أن من لم يتدبر القرآن فهو مقلّد جامد فيه شبه بأهل الجاهلية حيث أقفلوا عقولهم فلا يصل إليها من ضياء العلم والنور شيء، وهذا على مستوى الأفراد والشعوب والأمم، وها هو القرآن بين أيدي الناس اليوم يتلونه صباح مساء، وهذه أحوالهم التي لا تُحمد!! فلم يغن عنهم شيئًا، وأما آية سورة) المؤمنين) فتدلّ على أن كل من لم يتدبر القرآن، ويتأمل آياته فهو جاهل بليد ومتخلف جامد، ولو كان يُشار إليه بالبنان عند قومه، نعم لقد وردت نصوص وآثار عن السلف توحي بالتحرُّج والتأثم في تفسير القرآن ، وجاءت نصوص أخرى تدعو إلى وجوب التدبر والتأمل، فاتخذ الناس الأولى إلى ما شاء الله لهم منهجًا؛ لأنها أسهل وأدعى إلى الركود والدعة بحجة التدين والورع وأعرضوا عن الثانية لما فيها من النفع والجد وامتثال الأمر، فمن النصوص المشعرة بالتأثم في تفسير القرآن وتأويله حديث جندب بن عبد الله عند أبي داود والترمذي: «مَن قال في كتاب الله عز وجل برأيه فأصاب فقد أخطأ»، ومثل حديث ابن عباس عند الترمذي: «مَن قال برأيه في القرآن أو بلا علم فليتبوأ مقعده من النار»، وثبت عن أبي بكر وعمر لما سُئلا عن قوله: ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ [عبس: ٣١]، قال أبو بكر: أيُّ سماء تظلّني، وأيُّ أرض تقلّني إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم؟!! وقال عمر: هذه الفاكهة عرفناها فما الأبُّ؟ ثم رجع إلى نفسه، وقال: إن هذا لهو التكلف يا عمر؟!

أما حديث جندب وابن عباس فلا يصح إسنادهما؛ ففي الأول سهل بن حازم القطيعي ضعفه البخاري وأبو حاتم وغيرهما، وفي الثاني عبد الأعلى بن عامر التغلبي ضعفه الإمام أحمد والنسائي وأبو زرعة وآخرون، ثم الأول مردود من حيث المتن،

فإن الصواب لا يكون خطأً بحال وكذلك العكس، وإنما قد يصيب الرجل الأمر ولا يحصل له الأجر.

أما الحديث الثاني؛ فيتعين حمل معناه لو صح سنده على من فسّر القرآن أو قال فيه برأيه من المغيبات التي لا يعلمها إلا الله كالآجال وحقيقة الجنة والنار، وكيفية صفات الله سبحانه وتعالى ونحو ذلك، أو في الأحكام الشرعية من التحليل والتحريم. ثم إن الذين حفظوا القرآن عن ظهر الغيب من الصحابة لا يتجاوز عددهم أربعة فقط (علي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، وأُبيّ بن كعب، وعبد الله بن مسعود) وأبو بكر وعمر ليسا منهم مع فقههما وعلمها بالقرآن، كما ذكر ذلك الإمام الذهبي وغيره، بل إن أبا بكر توفي ولم يختم القرآن، وعبد الله بن عمر بقي يحفظ سورة البقرة ثماني سنين، وهو أكثر الصحابة بعد أبي هريرة حفظًا ورواية لأحاديث رسول الله، ولما أتم حفظها ذبح بقرة شكرًا لله. أكان يعجز عن حفظ هذه السورة ببضع دقائق؟! لا والله، ولكنه الفقه والتدبر قبل الحفظ وأثناء التلاوة.

قال ابن تيمية في «جامع المسائل» (٥/ ٤١): «إن نقلة الآثار قل فيهم الفقه والعقل كما أن ذوي النظر والاعتبار ضعف علمهم بآثار النبيين، ولن يتم الدين إلا بمعرفة الآثار النبوية، وفقه لمقاصدها الشرعية».

أما الآثار المروية عن السلف كأبي بكر وعمر في التوقف من التفسير بالرأي، فغير صحيح؛ إذ كيف يجهل أبو بكر وعمر وهما عربيان كلمة (الأبّ) في اللغة؟ وتفسير القرآن باللغة أحد أنواع التفسير كما يقول ابن عباس: «التفسير على أربعة أوجه: تفسير لا يعذر أحد بجهله، وتفسير تعلمه العرب من كلامها، وتفسير من ادَّعى علمه فهو جاهل، وتفسير تعلمه العلماء».

ثم إذا كانت آيات الأحكام (٥٠٠) آية على أكثر تقدير؛ فإن جملة آيات القرآن كما يقول ابن عباس (٦٦٠٠) آية، فهل يترك أكثر من ستة آلاف آية من القرآن بدعوى الورع والزهد، ثم هذه وأمثالها قضايا أعيان لا عموم لها، فلا تصح دليلاً، فكل من روي عنه التوقف من السلف في تفسير القرآن بالرأي في موضع فقد روي عنه التفسير بالرأي في موضع آخر، فهذا أبو بكر صاحب المقولة السابقة في تفسير (الأبّ) في سورة عبس فسر (الكلالة) في آية النساء برأيه لما سُئل عنها قال: إني سأقول فيها برأيي فإن يكن صوابًا فمن الله وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان: الكلالة ما عدا الوالد والولد».

أما عمر بن الخطاب؛ فهو أكثر أهل بدر تفسيرًا للقرآن بالرأي وكثيرًا ما ينـزل القرآن وفق رأيه، وهذا عبد الله بن مسعود يقول في تفسير آية البقرة: ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً ... ﴾ [٢٣٦]: أقول فيها برأيي فإن أصبت فمن الله، وإن أخطأت فمن نفسي والشيطان: لها الصداق كاملاً، وعليها العدة، ولها الميراث»، ثم إن أغلب التفاسير المأثورة عن السلف من الصحابة والتابعين غير مسندة إلى الرسول فهي تفاسير بالرأي، بل كتب التفاسير المطبوعة المتداولة أغلبها تفسير بالرأي والدراية والقليل منها تفسير بالأثر والرواية.

ثم هل التفسير بالأثر المحمود إلا عين التدبر والتأمل الذي أمرنا الله به؟ وأوجبه على كل مخلوق من ذكر أو أنثى وصغير وكبير عامي ومتعلم ، فكيف يوجب الله علينا تدبر القرآن ومنه تفسيره، ثم يعرض الناس عنه بدعوى الورع وتعظيم القرآن؟ إنها -والله- دسيسة من دسائس الشيطان زيّنها للخاصة والعامة، وألبسها لباس الدين والورع، ورحم الله ابن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن يوم قال: «يأتي على الناس

زمان يخلق يدرس ويبلى القرآن في قلوبهم يتهافتون فيه تهافتًا، قيل: وما تهافتهم؟ قال: يقرأ أحدهم فلا يجد حلاوة ولا لذة يبدأ أحدهم بالسورة وإنما نهمته -قصده- آخرها ثم تلا قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴾ [محمد٢٣-٢٤].

وإليك يا أخي طريقة سهلة للتأمل والتدبر في آيات القرآن:

كرر الآية أو الآيات مرتين وثلاث وخمس مرات ولو بقيت في السورة الواحدة أيامًا، وحاول أن تسجل الأفكار التي ترد على خاطرك فيها.

اقرأ الآيات المراد تفسيرها من حفظك أو من المصحف مرتين أو ثلاثًا.

ثم اقرأ تفسيرها في تفسيرين على الأقل، واحرص على أن تكون طريقة كل مفسر تختلف عن طريقة الآخر.

ثم ارجع إلى تلك الآيات السابقة، واقرأها في المصحف -ولو كنت لها حافظًا- وحاول الوقوف عند كل كلمة أو حرف من الآية، وأحضر معك ورقة سجل فيها ما فهمته، وظهر لك من الآية والآيات.

ثم ارجع مرة أخرى إلى قراءة تفسيرها في واحد من كتب التفسير وقابله بما سجلته في ورقتك، ستجد أن نسبة كبيرة في التفسير المقروء بين يديك موجود في ورقتك، وإن اختلف الأسلوب، بل ربما ظهر لك معان صحيحة لم يذكرها ذلك المفسر.

وإذا أردت التأكد والطمأنينة على هذا المعنى الجديد الذي ظهر لك فعاود الخطوات السابقة (١، ٢، ٣، ٤) فسيزول عنك الإشكال، وتزداد يقينًا وإن بقيت في المعنى الجديد مترددًا فأعرضه على من هو أعلى منك في التفسير فستجده يوافقك

عليه أو بعضه.

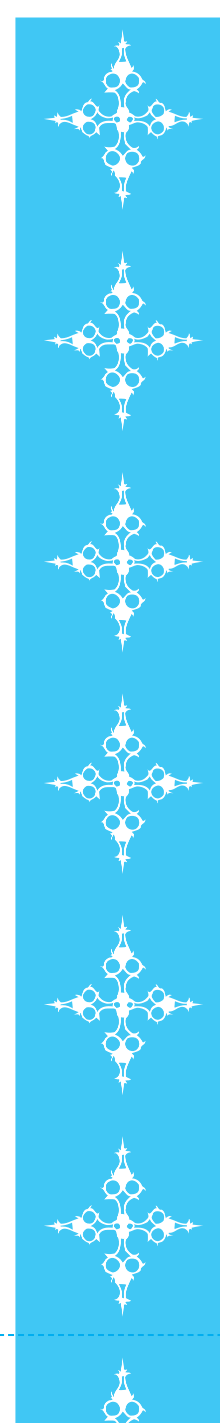
قال المناوي المتوفى سنة (١١٣١هـ): «كم من معاني دقيقة من أسرار القرآن تخطر على قلب المتجرد للذكر والفكر تخلو منها كتب التفاسير ولا يطلع عليها أفاضل المفسرين ومحققي الفقهاء».

اللهم إني أسألك العلم النافع والعمل الصالح،،، آمين.

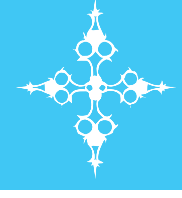
وكتبه

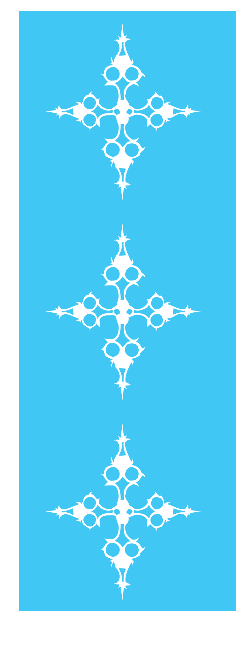
أ.د. سعود بن عبدالله الفنيسان

أستاذ الدراسات القرآنية، وعميد كلية الشريعة في جامعة الإمام سابقًا



فهرس المحتويات





فهرس المحتويات